الدكتور حلمي خليل
أستاذ علم اللغة
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دراسات في اللسانيات التطبيقية

٢٠٠٣

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٧٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٢٣١٤٦

دراسات

في اللسانيات التطبيقية

دراسات

في اللسانيات التطبيقية

الدكتور حلمي خليل
أستاذ علم اللغة
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٢٠٠٣

دار المعرفة الجامعية

٤٠ شارع سوتير - الأزاريطة - تليفون: ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ شارع قناة السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

الاهـــداء

إلي أستاذي الدكتور حسن ظاظا

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

صدق الله العظيم

محتويات الكتاب

المقدمة

لعل من أهم ما يلفت نظر بعض الدارسين والباحثين فى علم اللغة أو اللسانيات Linguistics، أن هذا العلم، رغم مرور نصف قرن، على معرفته، والعلم به، والبحث فيه وتدريسه فى الجامعات العربية، مازال علماً غريباً على جمهور المثقفين فى الوطن العربى، ناهيك بجمع غفير من القائمين على تعليم اللغة العربية فى المدارس والمعاهد،وتلك-لاشك- آفة من آفات انفصال الجامعات العربية عن مجتمعها.

بل إن بعض المتخصصين فى علم العربية، والمهتمين بأمر هذه اللغة فى بعض المجامع اللغوية، مازالوا ينظرون إلى هذا العلم نظرة الشك والارتياب، لأنه علم أجنبى لم ينبت فى أرضنا، أو هو لون من التغريب، إذ ما طبق على لغتنا، يحاول هدمها والقضاء عليها، بنظريات ومناهج لا تصلح لها، وإنما تصلح مثل هذه النظريات لغير العربية من اللغات الإنسانية الأخرى.

ومن الغريب، أنهم لا يقولون ذلك على علوم أخرى مثل: الهندسة والطب والصيدلة وغيرها من العلوم، ويرون أن هناك فرقاً، بين الأخذ بهذه العلوم والانتفاع بها فى حياتنا، وعلم اللغة أو اللسانيات، ذلك لأن اللغة العربية هى لغة القرآن والإسلام، وأن فى التراث اللغوى العربى غناء، عن أى دراسات أو نظريات لغوية أخرى، تأتى لنا برطانات ومصطلحات أجنبية وتحليلات غير مفهومة !!

أما أن العربية لغة القرآن والإسلام، فهذا حق لا مراء فيه، غير أن علاقة العربية بالقرآن والإسلام، لا ينفى عنها أنها لغة مثل أية لغة أخرى، إذا ما احتكمنا إلى المعايير اللغوية الخالصة، لا إلى المعايير الدينية أو الحضارية، لأن اللغات الإنسانية طبقاً للمعايير اللغوية لا تتفاضل.

يقول ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦هـ): «وقد توهم قوم فى لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له، لأن وجوه الفضل معروفة، ولا جاء نص فى تفضيل لغة على لغة، وقد قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ»، وقال تعالى: «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ». فأخبر تعالى أنه لم يُنزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام، لا لغير ذلك. وقد غلط فى ذلك «جالينوس»، فقال: إن لغة اليونانيين أفضل اللغات، لأن سائر اللغات، إنما هى تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع، وهذا جهل شديد، لأن كل سامع لغة ليست لغته لا يفهمها، فهى عنده فى النصاب الذى ذكره «جالينوس» ولا فرق.

وقال قوم: العربية أفضل اللغات لأنه بها كلام الله تعالى، وهذا لا معنى له، لأن الله - عزَّ وجلَّ - قد أخبرنا أنه لم يُرسل رسولاً إلا بلسان قومه»[1].

هذا كلام أحد فقهاء الإسلام منذ أكثر من تسعة قرون ولا تعليق!

أما عن التراث اللغوى العربى، فلا شك فى أصالته وثرائه، ولا شك أيضاً فى أن علماء العربية القدماء، خاصة فى القرنين الأول والثانى

---

(١) انظر ابن حزم، الإحكام فى أصول الأحكام، ١/ ٣٥.

للهجرة مثل: أبو عبد الله بن اسحاق الحضرمى (ت ١١٧هـ)، أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ)، ويونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ)، والخليل بن أحمد الفراهيدى (ت ١٧٥هـ) وسيبويه (ت ١٨٠هـ)، والكسائى (ت ١٨٩هـ) والفراء (ت ٢٠٧هـ)، ومن جاء بعدهم من العلماء على اختلاف درجاتهم، قد قاموا بجهد فى وصف اللغة العربية صوتياً وصرفياً ونحوياً ومعجمياً وأسلوبياً، قلَّ أن نجد له نداً أو نظيراً فى تراث أية لغة أخرى.

غير أن هذا الوصف أو التحليل للعربية، قد قام على مبادئ وأصول وأهداف، أقل ما يقال فيها: أنها مغايرة لما توصلت إليه النظريات اللغوية الحديثة والمعاصرة، من مبادئ وأصول، هى بلا شك، أكثر دقة وموضوعية وشمولاً، من التفكير اللغوى التقليدى، لا عند علماء العربية القدماء فحسب، بل فى الدراسات اللغوية فى الحضارات الأخرى، ذلك لأن علم اللغة أو اللسانيات، يصف اللغة ويحللها من حيث هى ظاهرة إنسانية، بغض النظر عن كونها لغة قوم أو أمة بعينها، من خلال نظريات علمية مضبوطة ليصل منها إلى قوانين تسرى على كل اللغات.

وصدد هذا لا بد أن نعترف بأن التراث اللغوى العربى رغم قيمته العلمية الفريدة، قد اقتصر على دراسة اللغة العربية وحدها، وعلى مستوى واحد من مستويات هذه اللغة هو الفصحى، دون غيرها من اللهجات أو المستويات اللغوية الأخرى، وكان الطابع الغالب على منهج هذه الدراسة الكثير من المعيارية والقليل من الوصفية، وكان لهذا أسباب يمكن فهمها وتقديرها، فلم تكن دراسة اللغة أنذاك، قد وصلت إلى ما وصلت إليه الآن من أساليب ومناهج فى البحث العلمى أو النظرة العلمية للغة.

وفى العالم العربى اليوم مشكلات لغوية لا يستطيع التراث اللغوى القديم أن يتصدى لها بالنظر إلى الظروف والملابسات العلمية لنشأته وتطوره، مثل علاقة الفصحى ومستوياتها بالعامية ومستوياتها وأثر

العاميات العربية فى تعلم الفصحى،وطرق تعليم اللغة وتعلُّمها، وبصورة عامة المشكلات اللغوية المتصلة بعلاقة اللغة بالمجتمع، والجوانب النفسية فى اكتساب اللغة، وأمراض الكلام والتخطيط اللغوى، ووضع المعاجم الحديثة، وغير ذلك من مشكلات لغوية،يهتم بها علم اللغة أو اللسانيات من الناحيتين النظرية والتطبيقية، كما سنرى فى هذا الكتاب.

أما تعدد النظريات اللغوية فى علم اللغة النظرى وطرق تطبيق هذه النظريات، واختلاف طرق التحليل والمصطلحات من نظرية إلى أخرى، فإن بعضاً من هذه الصعوبة، أو بعضاً من هذا الغموض الذى يحيط بها، قد يتحمل تبعته، بعض من يتصور أن علم اللغة أو اللسانيات نظرية واحدة متجانسة، أو أن هذا العلم موجود بصورة أو بأخرى فى التراث اللغوى العربى، أو أن علماء العربية القدماء قد سبقوا علماء اللسانيات فى هذا الجانب أو ذلك من اللسانيات، وكل هذا غير صحيح ويؤدى إلى مظاهر الحيرة واللبس والشك فى هذا العلم كما نلاحظها اليوم.

وإذا كان من الضرورى إعادة قراءة التراث اللغوى العربى وصياغته من خلال أصول ومبادئ اللسانيات، فليس معنى هذا أن النظريات اللغوية الحديثة والمعاصرة موجودة بصورتها التجريدية الكاملة فى هذا التراث، وللأسف فإن إعادة صياغة التراث اللغوى العربى على النحو الذى أشرت إليه، لم يحدث حتى الآن إلا بصورة جزئية ومن عمل أفراد، ومازلنا نفتقر إلى الصورة العلمية الكاملة بحيث يمكن القول بأن بين أيدينا اليوم نموذجاً لسانياً عربياً متكاملاً، ناهيك بالوصف العلمى للعربية المعاصرة صوتياً وصرفياً ونحوياً ومعجمياً وأسلوبياً.

لقد قام علماء العربية القدماء بواجبهم فى دراسة العربية وتحليلها بما أتاحه عصرهم من علم، ونحن لم نفعل ذلك، رغم ما أتاحه عصرنا من أساليب ومناهج علمية فى دراسة اللغة، لم يُتح للقدماء ما يقترب منها، أو يشبهها.

إن الأخذ بمبدأ التخطيط اللغوى Laguage Planning فى العالم العربى اليوم، قد يكون الخطوة الأولى على بداية الطريق لحل مشكلات حياتنا اللغوية وهى مشكلات جديرة بأن تكون فى مقدمة مشكلاتنا القومية والسياسية والاجتماعية، بل لعلى لا أكون مسرفاً إذا قلت إنها مشكلات خليقة بأن تهز كيان الأمة العربية هزاً، سواء اليوم أو غداً، فماذا عن العربية والمستقبل؟ هل أعددنا لذلك سياسة لغوية محددة وواضحة؟ ألا يدق زحف اللغات الأجنبية ومحاربتها للعربية فى عقر دارها فى كثير من بلدان الوطن العربى، ناقوس الخطر، الذى لا نكاد نعرف أثره أو مداه على لغتنا فى العشرين عام القادمة مثلاً؟

ثم ماذا عن تدريس العلوم فى كثير من الجامعات العربية بغير اللغة العربية، ونحن نكاد نكون الأمة الوحيدة بين أمم العالم التى تسمح بمثل هذا!!، ثم ماذا عن تعليم العربية فى المدارس والجامعات، بهذه المناهج القائمة على التلقين والحفظ،دون اكتساب المهارات اللغوية مثل مهارات: الاستماع، والكلام والقراءة والكتابة التى يقوم على تنميتها واكتسابها الآن تعليم اللغة وتعلُّمها، ولا أظن أن التغزل فى لغتنا الجميلة!! سيصلح من الأمر، وإنما يصلح ذلك التخطيط اللغوى لتعليم هذه اللغة فى مراحل التعليم المختلفة، سواء فيما قبل الجامعة، أو فى الجامعة.

وهذا يقتضى بالضرورة إعداد المادة اللغوية المنطوقة والمكتوبة، وتحديد المستوى اللغوى من مستويات الفصحى الذى نريد أن نعلمه، ومعنى هذا، أننا فى حاجة إلى إعادة وصف اللغة العربية وتحليلها صوتياً وصرفياً ونحوياً ومعجمياً وأسلوبياً تمهيداً لإعداد المادة اللغوية الملائمة لتعليم العربية لأبنائها.

إن الدولة فى العالم العربى قد تخطط للحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأمنية والعسكرية، وعندنا فى مصر مجلس

أعلى للثقافة ومجلس أعلى للجامعات والآثار والشرطة والجيش، فلماذا لا نخطط لحياتنا اللغوية، وهى لا تقل خطراً عن هذا كله عند الذين يعلمون، ويكون لنا من هذه المجالس العليا، مجلس أعلى للتخطيط اللغوى ينهض بهذا العبء ويضع السياسة اللغوية التى ينبغى أن تسود - فى الحاضر والمستقبل - فى النطق والكتابة والإعلام والإعلان، وغير ذلك من مجالات الحياة اللغوية.

إن عصر التوصيات التى تصدر عن هذا المجمع اللغوى، أو ذاك فى العالم العربى، وتوزع على مؤسسات الدولة، نادراً ما يأخذ بها أحد، وكثيراً ما يتجاهلها الجميع، ومثل هذا لا بد أن يتحول إلى سياسة لغوية مدعمه بسلطان الدولة، وتلك مهمة من مهام المجلس الأعلى للتخطيط اللغوى.

ولهذا كله حرصت فى هذا الكتاب على أن أقدم الأطر النظرية لعلم اللغة، أو بعبارة أخرى علم اللغة النظرى من ناحية وعلم اللغة التطبيقى من ناحية أخرى وطبيعة العلاقة بينهما، يضاف إلى ذلك عدد من الدراسات اللغوية التطبيقية فيما يتصل بعلاقة العربية بعلم اللغة النفسى وعلم اللغة الاجتماعى وعلم المعاجم بشقيه النظرى والتطبيقى والمنهج الذى يجمع هذه الدراسات جميعاً، هو إعادة قراءة التراث اللغوى العربى فى إطار من النظر اللغوى الحديث والمعاصر وتطبيقاته على مشكلات لغوية عربية.

حلمى خليل

الإسكندرية فى: ١٨ أغسطس ١٩٩٩م.

الفصل الأول

اللسانيات النظرية

بلغت الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة[1] درجة من الدقة والضبط والموضوعية والشمول، ما أتاح لها أن تتبوأ مكاناً علياً بين فروع العلم الأخرى، بل لقد أخذت هذه الدراسات زمام المبادرة فى هدم الأسوار التقليدية، التى أقيمت - بلا مبرر علمى واضح - بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وهو ما عبر عنه بصدق، عالم الأنثربولوچيا «ليفى اشتراوس» Lévi - Strauss (ولد ١٩٠٨م) حين قال: «إننا كنا نجد أأنفسنا إزاء علماء اللغة فى وضع حرج، فطوال سنوات عديدة كنا نعمل معهم جنباً إلى جنب، وفجأة يبدو لنا أن اللغوين لم يعودوا معنا، وإنما انتقلوا إلى الجانب الآخر من ذلك الحاجز الذى كان يفصل العلوم الطبيعية عن العلوم الإنسانية والاجتماعية، حيث ظل الناس - لزمن طويل - يعتقدون باستحالة عبور هذا الحاجز، بينما أخذ علماء اللغة، يعملون بتلك الطريقة المنضبطة التى تعودنا - باستسلام - على أنها وقف، على العلوم الطبيعية وحدها[2].

ولم تكتسب علوم اللغة أو اللسانيات الحديثة والمعاصرة هذه الصنفة العلمية، إلا بعد أن أدرك علماء اللغة الفروق الجوهرية بين الدراسة الوصفية للغة، والدراسات التقليدية والمقارنه لها.

والذلك حرص دى سوسير (١٨٥٨م - ١٩١٣م) فى بداية محاضراته

---

(١) نستعمل مصطلح «اللسانيات» مرادفاً لمصطلح «علم اللغة» نظر لشيوع الأول فى كثير من بلدان وطننا العربى، وكلاهما ترجمة لمصطلح Linguistics.

(٢) انظر، فؤاد زكريا، جذور البنائية، ص ٨.

التى غيرت من طبيعة التفكير اللغوى، على أن يوجز تاريخ الدراسات اللغوية فى أوروبا منذ اليونان مروراً بالعصور الوسطى حتى عصره، وذلك ليبين الفروق الجوهرية والمنهجية بين دراسة اللغة تاريخياً والمنهج الوصفى وموضوع علم اللغة وأصوله ومبادئه التى أخذ يبشر بها[1]

ولعلنا نستطيع حصر أصالة ما قدمه دى سوسير، وقامت عليه الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة فيما يأتى:[2]

١ - فرق دى سوسير بدقة بين «الثنائى» الذى كان مترادفاً عند علماء اللغة التقليدين، وهو «اللغة» Language والكلام Speech، أو كما قال: Langue et Parol، على أساس أن «اللغة» فى حقيقتها نظام اجتماعى، مستقل عن الفرد، فى حين أن «الكلام» هو الآداء الفردى للغة، الذى يتحقق من خلال هذا النظام، وأن الصلة بينهما هى عين الصلة بين الجوهرى «اللغة» والعرضى «الكلام».

٢ - اللغة نظام يتألف من مجموعة من العلامات اللغوية Signs linguistic، وهى عبارة صورة صوتية (الدال) تتحد مع تصور ذهنى (المدلول)، ويندرج الدال تحت النظام المادى للغة، لأنه عبارة عن أصوات إنسانية إرادية، بينما يندرج المدلول تحت النظام الذهنى، والعلاقة بين الدال، والمدلول هى علاقة عرفية تتحقق من خلال هذين العنصرين، أى الصوت والمعنى، بحيث لا يحتوى الدال على أية قيمة أو صوره لحقيقة المدلول.

٣ - العلاقة بين الدال والمدلول هى علاقة رمزية، ومن ثم فإن علم اللسانيات Linguistics أو علم اللغة هو جزء من نظام أوسع وأشمل، أو بعبارة أخرى، هو جزء من علم الرموز Semiology، الذى تنبأ بظهور دى سوسير، وقد صدقت نبوءته، وأصبح علم اللغة الآن جزءاً من نظام أوسع هو علم الرموز وذلك منذ عدة عقود.

---

(1) De Saussure, F. Course in general Linguistics P. 1 - 5.
(2) Ibid, P. 7, 15, 65, 91, 101, 140, 232.

٤ - يتألف النظام اللغوى من عناصر داخلية internal، وعلاقات خارجيه external، وهذه العناصر الداخلية لها الصدارة عند التحليل اللغوى. إذ هى تمثل نظام اللغة الداخلى «البنية»، أما العلاقات الخارجية فتتمثل فى دراسة العلاقات القائمة بين البنية اللغوية وما يؤثر فيها، مثل الاجتماع والتاريخ والحضارة وعلم النفس وغير ذلك.

٥ - الدراسة اللغوية، أو التحليل اللغوى، هو النظر فى علاقة كل عنصر من العناصر اللغوية الداخلية بغيره من العناصر الأخرى، التى تكوّن النظام اللغوى، لأن أى عنصر لا قيمة له دون علاقته بالعناصر الأخرى. ومن ثم فإن النظام اللغوى linguistic system لأية لغة يقوم على التشابه من ناحية، والاختلاف من ناحية أخرى.

ولكى يوضح دى سوسير فكرة العناصر الداخلية وعلاقتها ببعضها من ناحية، ثم علاقتها الخارجية من ناحية أخرى، يضرب مثلاً بلعبة «الشطرنج»

فهذه اللعبة قد انتقلت من الشرق إلى الغرب، وهو أمر خارجى، لا يمس نظام اللعبة الداخلى ولا قواعدها، فإذا استبدلنا مثلاً القطع الخشبية بقطع من العاج أو الذهب، فإن هذا التغير لا يمس النظام الداخلى للعبة، ولكن إذا أنقصنا أو زدنا فى عدد القطع، أو لُعبَتْ هذه اللعبة بطريقة تخالف القوانين والقواعد التى وُضعتْ لها، فإن هذا التغير يخل بنظام اللعبة وقواعدها

أما عن قيمة العلاقة بين العناصر اللغوية وبعضها، فإنها أيضاً تشبه قيمة قطع «الشطرنج»، حيث تستمد كل قطعة قيمتها من الموقع الذى تحتله على رقعة «الشطرنج»، وذلك فى مقابل المواقع التى تحتلها القطع الأخرى على الرقعة، مثل ذلك العلاقة بين العناصر أو الوحدات اللغوية فى أى لغة من اللغات. لا تظهر قيمتها إلا فى وجود غيرها من العناصر اللغوية الأخرى

فإذا أخذنا مثلاً «البيدو» فسنجده فى ذاته عبارة عن عنصر من

عناصر اللعبة، وليس ذلك نتيجة للمادة التى صنع منها إذ هو خارج الموقع أو المربع الذى يحتله فى الرقعة لا قيمة له طبقاً لنظام اللعبة وإنما يستمد قيمته من الموقع الذى يشغله ومن علاقته بالقطع الأخرى ومن نظام اللعبة، لأننا نستطيع أن نستبدله إذا فُقد أو تحطم، بأى شئ آخر. قطعة من الحجر مثلاً. شريطة أن نعطى هذا الحجر قيمة «البيدق» داخل اللعبة.

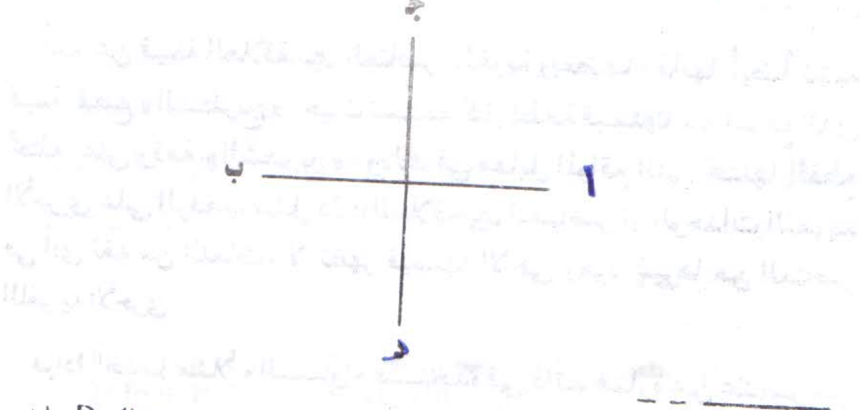
وهذه العلاقة بين قطع «الشطرنج» هى العلاقة نفسها التى تقوم عليها اللغات الإنسانية، من حيث علاقة عناصرها الداخلية بعضها ببعض داخل النظام اللغوى[1]

٦ - اللغة طبقاً لمعيار الزمان، تدرس من ناحيتين:

الأولى : الدراسة الآنية synchronic (الوصفية)

والثانية : الدراسة التعاقبية Diachronic (التاريخية)

حيث تمثل الدراسة الآنية محوراً أفقيا تُحلل فيه العناصر اللغوية وهى فى حالة الثبات Static، أى ليس للزمن دخل فى مثل هذه الدراسة، بينما تمثل الدراسة التعاقبية محوراً رأسياً، لدراسة العناصر اللغوية وهى فى حالة الحركة Dynamic أى طبقاً للتغير الزمنى أو التاريخى للغة، وذلك طبقاً للشكل الآتى



(1) De Saussure op. Cit. P. 22, 88, 110

حيث يمثل المحور الأفقى (أ ب) الدراسة الوصفية أو التابعة، فى حين يمثل المحور الرأسى (جـ د) الدراسة التاريخية، يدل على ذلك السهم الموجود فى نهاية المحور الرأسى.

ويمكن تقسيم هذا المحور بخطوط أفقية توازى المحور الأفقى، حيث ترمز كل مسافة بين خطين أفقيين إلى مرحلة، أو حالة من حالات اللغة تاريخياً، يمكن دراستها دراسة وصفية descreptive.

فكل مرحلة من مراحل حياة اللغة العربية مثلاً، تمثل حالة من حالات هذه اللغة، فيما قبل الإسلام أو فى صدر الإسلام أو العصر الأموى وهكذا، ومعنى هذا أننا لا نستطيع دراسة أى لغة دراسة تاريخية، قبل دراسة كل مرحلة من مراحل حياة هذه اللغة دراسة وصفية، أى أن الدراسة الوصفية لا بد أن تسبق الدراسة التاريخية، لا العكس، كما كان شائعاً فى الدراسات اللغوية فى أوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حتى فرق دى سوسير على النحو السالف الذكر بين الدراسة الوصفية والدراسة التاريخية.

٧ - ضرورة الاستعانة بالرياضيات mathmatics، فى التحليل اللغوى للتعبير عن الحقائق اللغوية بدقة ووضوح.

بناءً على هذه المبادئ والأصول، استطاع دى سوسير أن يحدد موضوع علم اللغة ودراسة اللغة بقوله فى عبارة جامعة:

«إن موضوع علم اللغة الصحيح والفريد، هو دراسة اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها»(١)

وهو يقصد بذلك، أن عالم اللغة يدرس اللغة كما هى، أو كما تظهر، فليس له أن يغير من طبيعتها، أو يدرس جوانب منها دون جوانب أخرى، لأنه يستحسن هذا الجانب أو ذاك، أى إنه يدرس اللغة بغرض الدراسة نفسها، يدرسها دراسة موضوعية تسعى إلى الكشف عن حقيقتها،

---

(1) De Saussure. op. Cit. P 232

فليس من موضوع دراسته أن يحقق أغراضاً تعليمية أو أية أغراض عملية أو تطبيقية، كما إنه لا يدرس اللغة بهدف ترقيتها أو تطويرها أو تصحيح جوانب منها . أو تعديل جوانب أخرى.

ومعنى هذا أن عمل عالم اللغة linguist يقف عند حدود الوصف والتحليل والتفسير بطريقة علمية موضوعية.

بهذه المبادى والأصول، أخذ علم اللغة أو اللسانيات تشق طريقها من حيث هى علم مثل بقية العلوم الأخرى، فالمنهج العلمى واحد، وإن اختلفت طبيعة اللغة الإنسانية عن موضوع العلوم الطبيعية أو غيرها كما سنرى فيما بعد

غير أن هذه الأصول والمبادئ التى أرساها دى سوسير. لم تقف عند هذه الحدود. وإنما نشأت مدارس لغوية أخرى بعضها طور من هذه الأصول وأفاد منها، وبعض المدارس الأخرى غيرت بعضها، ولعل من أبرز المدارس اللغوية التى انطلقت من الأصول والمبادئ التى وضعها دى سوسير وطورتها، مدرسة براج Praug school، التى وضعت نظرية كاملة فى التحليل الفنولوچى Phonology

وقد قام بهذا العمل عالمان من أكبر علماء هذه المدرسة وهما نيكولاى تروبتسكوى N TrubetsKoy (١٨٩م - ١٩٣٨م)، ورومان ياكبسون R. Jakobson(١٨٩٦م - ١٩٨٢م) اللذان وضعا أصول علم اللغة البنيوى structural linguistics انطلاقاً من التحليل الفنولوچى للغه خاصة عند تروبتسكوى، الذى أقام تصوره للفونيم Phoneme[1] على أساس التفرقة التى وضعها دى سوسير بين اللغة 'Langue' .والكلام "Panole" . حيث نجد أن الفونيم ينتمى إلى مفهوم «اللغة» بالمعنى الديسوسيرى، الذى أشرنا إليه من قبل. أما الأصوات اللغوية فتنتمى إلى «الكلام». أى أن مدرسة براج، فرقت بين علم الأصوات Phonetics

---

(١) انظر كتاب مقدمة لدراسة علم اللغة ص ٦٦ ٧٤

وانظر Robins A short history of linguistics PP 204 205

والفنولوجيا Phonology على أساس أن علم الأصوات هو العلم الذى يصف أصوات اللغة ويحللها وهى معزولة أو مجردة بعيداً عن غيرها من الأصوات، أى بغض النظر عن وظيفتها اللغوية، ودورها فى المعنى أما الفنولوجيا فهو العلم الذى يعالج الظواهر الصوتية بالنظر إلى وظيفتها داخل البنية اللغوية، وبناء على ذلك حدد «تروبتسكوى» مفهوم الفونيم Phoneme، بأنه عبارة عن النماذج الصوتية التى تميز الحدث الكلامى Speech event، المعين عن غيره.

وبناءً على ذلك، فإن كل «فونيم» يؤدى وظيفتين، إحداهما إيجابية حين يساعد على تحديد معنى الكلمة التى تحتوى عليه، وأخرى سلبية حين يحتفظ بالفرق بين معنى كلمة وأخرى(1).

ومعنى هذا مثلاً أن [ن] هى فونيم/ ن / تشترك مع الفونيمات الأخرى فى كلمة مثل (نام) لتحديد معناها، وهى الوظيفة الإيجابية للفونيم، أما الوظيفة السلبية أو الثانوية، فتتمثل فى حفظ هذه الكلمة مختلفة من حيث المعنى عن كلمات مثل: (قام) و(صام)، وتتضح الوظيفة الإيجابية، إذا ما حذفنا فونيماً من كلمة ما واستبدلنا به فونيما آخر، فسنجد المعنى، قد تغير، مثال ذلك: إذا حذفنا فونيم / ص / من كلمة (صام) واستبدلناه بفونيم/ ق/ فستصبح الكلمة (قام) بدلا من (صام).

ومعنى هذا أن الفونيمات، من حيث هى أصوات لها سمات خاصة قادرة على التمييز بين الكلمات فى معظم اللغات، سواء من ناحية الاستبدال أو من ناحية ترتيب موقعها فى الكلمة إذا تغير هذا الموقع ويتضح لنا ذلك من التقابل بين الكلمتين: act و cat فى اللغة الانجليزية، ويشبه هذا إلى حد كبير فكرة التقاليب فى معجم «العين» للخليل بن

---

(1) O, connor, phonetics, PP.. 66 77
وباللغة العربية انظر كتابنا مقدمة لدراسة علم اللغة ص ٦٦ - ٧٧.

أحمد (ت ١٧٥هـ)[١] هذا هو مفهوم الفونيم ووظيفته اللغويه وقيمته في التحليل اللغوى عند مدرسة براج.

وقد اثبتت الدراسات اللغوية المعاصرة، خاصة فى مجال علم اللغة التطبيقى أو اللسانيات التطبيقية Applied linguistics . كما سنرى فيما بعد، أن هذه النظرية قد استطاعت أن تحلَّ كثيراً من المشكلات العلمية والعملية خاصة فى تعلم اللغات وتعليمها، كما ساعدت على تحديد أخطاء النطق والاتجاه الذى ينبغى السير فيه لعلاج مثل هذه الأخطاء

أما على مستوى علم اللغة النظرى Theoritical linguistics ، فقد كشف التحليل الفنولوچى عن النظام الذى تنطوى عليه وظيفة الصوت داخل البنية اللغوى والنظام اللغوى، وهى حطوة هامة حددت معنى البنية تحديداً وظيفياً وتجريدياً فى آن

كما استطاعت مدرسه براج أيضاً، أن تطور الدراسات الفنولوچية وخاصة فيما اطلقت عليه «الملامح المميزة» distenctive features للفونيم التى يتداولها علماء اللغة، وغير علماء اللغة من علماء الأدب ونقاده وهم يقصدون بالملامح المميزة: الخصائص الصوتية التى تميز فونيما عن فونيم آخر، أو بعبارة أخرى الملامح النطقية والسمعية التى تحدد كل صوت من أصوات أى لغة. مثل موضع النطق وصفته من حيث الجهر Voiced أو الهمس Voicless أو الاحتكاك fracative أو الانفجار Plosive أو غير ذلك من الملامح الصوتية[٢]

بل نجد أن تقسيم أصوات اللغة إلى صوائت Vowels وصوامت Consonants مثلاً. ليس مبنياً على أساس فسيولوچى فقط من حيث اندفاع الهواء من أعضاء النطق دون اعتراض مع الصوائت واعتراضه فى موضع معين من جهاز النطق مع الصوامت. وإنما أصبح مبنياً على خصائص سمعية كما اشرنا من قبل. وكل ذلك نتألف منه الملامح المميزة

---

(١) اجع كتاب مقدمه مدرسه التراث المعجمى لعربى ص ١٣٨
(٢) جع مقدمه مدرسه علم للغه ص ٧٣

لكل من الصوائت والصوامت من حيث موضع النطق وصفاته، بل من حيث طول الصوت وتنغيمه فإذا تساوى مثلاً صائت وصامت فى الطول والتنغيم Intonation فسنجد أن الصائت أشد بروزاً من الصامت، والصوامت المجهوره أشد بروزاً من الصوامت المهموسه، وهكذا.

ولعل دقة هذه الملامح المميزة لكل فونيم من فونيمات أى لغة، واحتياجها إلى تحديد دقيق، لعل ذلك هو ما جعل علماء «مدرسة براج» يرون ضرورة الاستعانة بالأجهزة والآلات فى الدراسات الصوتية والفنسولوجية، فيما يُعرف الآن بعلم الأصوات التجريبى Experimantal Phometics، أو علم اللغة الآلى Instrumentul Linguistics كما سنرى، كما يقوم الحاسب الآلى (الحاسوب) Coputar الآن بدور حيوى، فى الدراسات اللغوية المعاصرة وخاصة فى التحليل اللغوى وصناعة المعجم.

وإذا كانت مدرسة براج قد أسهمت على النحو الذى أشرنا إليه فى أرساء أصول النظرية اللغوية الحديثة فإن هذه المدرسة قد وضعت برنامجاً مستقبلياً للدراسات اللغوية، صدر عام ١٩٢٩م، وهو يُعَدُّ لوناً جديداً من النظر اللغوى، وأهداف النظرية اللغوية، حيث وجه هذا البرنامج أنظار علماء اللغة إلى ميادين من الدرس اللغوى لم تظهر آثارها إلا فى العقود السادس والسابع والثامن من هذا القرن، ويمكن أن نلخص هذا البرنامج فيما يأتى:[١]

أولاً: لا بد لعلماء اللغة من دراسة الوظيفة الحقيقية للغة وهى الاتصال Communication، كيف يتم؟، ولمن يوجه؟، وفى أى مناسبة؟، لأن اللغة فى المقام الأول هى نظام للاتصال.

ثانياً: اللغة ظاهرة طبيعية ذات واقع مادى يتصل بعوامل خارجة عنها فى البيئة الاجتماعية، بعض هذه العوامل يتصل بالسامع، وبعضها يتصل بالموضوع الذى يدور حوله الكلام أو الاتصال.

---

(١) انظر Ivic, milka Trends in Linguistics PP 142 143.

ولذلك من الضرورى أن نفرق سواء على المستوى النظرى أو التطبيقى بين مستويات الاستعمال اللغوى مثل: لغة الثقافة، ولغة الأعمال الأدبية ولغة الصحافة، ولغة الدوريات العلمية، ولغة العامة..الخ.

ثالثاً: تتصل اللغة بكثير من المظاهر العقلية والنفسية للشخصية الإنسانية، ومن ثم فإن الدرس اللغوى ينبغى أن يهتم بالعلاقة بين البنية اللغوية، والأفكار والعواطف التى توصلها تلك البنية.

رابعاً: تختلف اللغة المنطوقة Spoken language عن اللغة المكتوبة written lauguage، ولكل منهما خصائصها اللغوية التى تميز هذه العلاقة بين النطق والكتابة، وتحتاج هذه العلاقة إلى دراسات علمية تكشف عن حقيقتها.

خامساً: الدراسة الوصفية descriptive للغة، ينبغى أن تكون الهدف الأول لعلماء اللغة، لأنها تتصل بالحقائق اللغوية الواقعية اتصالاً مباشراً، غير أن هذا لا يعنى أن نستبعد من البحث اللغوى الدراسة التاريخية historical، وإنما ينبغى أن تكون الدراسة التاريخية فى ضوء الوصفية دائماً، وهى تؤدى إلى دراسة وصفية أخرى.. وهكذا، لأن النظام اللغوى الكامل لا بد أن يكون تاريخياً، والدراسة الوصفية هى الطريق إلى الدراسة التاريخية وعلى الدراسة التاريخية أن تستبعد من منهجها تفسير الكلمات المهجورة، وتهتم أولاً بالنظام اللغوى.

سادساً: إن البحث الفنولوجى، يجب أن يتجه أولاً إلى دراسة التقابلات الفونيمية، لأنها ذات دلالة ومعنى على المستوى المورفولوجى Morphology.

هذا هو البرنامج الذى أعلنته مدرسة براج، ولعلنا قد لاحظنا ما انطوى عليه من آراء ونظرات مستقبلية، والحقيقة أن هذا البرنامج أو البيان، قد أثر فى الفكر اللغوى أكثر من أى نظرية لغوية، إذا احتوى على العديد من الأفكار والمبادئ التى وجهت التفكير اللغوى الى نوع من الدراسات اللغوية لم تظهر آثارها إلا مع مطلع العقد السادس من هذا القرن فالمبدأ

القائل بأن اللغة تظهر فى مستويات متعددة أو بعبارة أخرى التنوع variety فى استخدام اللغة، قد فتح آفاقاً جديدة تمثلت فى ظهور علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics، والإشارة إلى الجانب النفسى للشخصية المستعملة للغة ساعد على ظهور علم اللغة النفسى Pchicolinguistics وهما من فروع علم اللغة التطبيقى بل لقد بدأت الدراسات الاسلوبية أو الخطوات الأولى فى علم الأسلوب stylestics، على يد «ياكبسون» وهو من أعضاء هذه المدرسة البارزين، وقد بدأ هذا اللون من الدراسة الأسلوبية قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة، ثم واصل هذه الدراسة بعد هجرته إليها.

ويقدم لنا «جوناثان كالر» فى كتابه «البوطيقا البنيويسية»[1] عرضاً لتصور «ياكبسون» لمفهوم الشعر، ومنهج الدراسة الأسلوبية له، وذلك من خلال دراسته، أى دراسة ياكبسون، لأحدى قصائد الشاعر الفرنسى «بود لير» (١٨٢١م - ١٨٦٧م) "Baudelaire"، حيث رأى أن دراسة الشعر هى جزء من دراسات علم اللغة وعرفها بأنها الدراسة اللغوية للوظيفة الشعرية[2] وكأنما يرى أن الشعر إحدى الوظائف التى تقوم بها اللغة فى مقابل النثر الفنى أو حتى الكلام، أو بعبارة أخرى هو لون من التنوع اللغوى فى استخدام اللغة.

وبناء على ذلك أقام «ياكبسون» تحليله اللغوى لأسلوب قصيدة «بودلير» على مبدأ التوازى فى بناء الجمل فى القصيدة، وطرق المجاز فيها، ولكى يحقق ذلك، قسّم القصيدة إلى مقطوعات، حيث بين فى هذا التقسيم، كيف أن التوزيع المتناظر للعناصر اللغوية مثل الأسماء والأفعال والصفات والحروف، وغير ذلك، ينظم هذه المقطوعات فى صورة مجموعات متنوعة، تتميز كل مجموعة منها بخصائص لغوية، من حيث توزيع الأسماء والضمائر والأفعال والصفات، وذلك لكى يمهد لاستخدام

---

(١) انظر عرضاً لهذا الكتاب فى مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثانى ١٩٨١، ص ص ٢٤٦ ٢٥

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٦

هذه المعايير اللغوية وتوزيعها . فى عزل بيت، أو عدة أبيات مركزية من القصيدة، وهذه الأبيات المركزية، تمتاز عن سائر أبيات القصيدة، لأن الشعر المُحكم الصّنع يتطلب مركزاً يدور حوله، ومن ثم استخدم التقابلات الفنولوجية فى عزل هذه الأبيات المركزية وتحديدها.

ثم انتقل بعد ذلك إلى القافية من حيث دلالتها على المعنى، لأن القافية عنده، ما هى إلا صورة من صور التكرار الفونيمى، لا يجوز النظر إليها من زاوية «تردد الصوت» فحسب، بل لأنها تتضمن علاقة معنوية بين الوحدات أو الكلمات المقفاه.

وبشكل عام يرى «ياكبسون» أن الدراسة الأسلوبية للشعر تقوم على علاقات التشابه أو عدم التشابه فى الصوت بمالها من صلة بالمعنى وهكذا كانت فكرة التقابلات الفونيمية، ملهمة لكثير من مناهج التحليل الأدبى، ترى ذلك واضحاً الآن، حينما يتحدث علماء الأدب ونقاده عن التناظر والتقابل، فى بنية العمل الأدبى سواء كان شعراً أم نثراً وهى معايير لغوية مستقاه من التحليل اللغوى.

وبذلك أصبحت المفاهيم الفنولوچية من ركائز التحليل البِنيوى للغة مهما تعارضت المدارس والنظريات اللغوية أو اتفقت، وكأنما نظرية الفوتيم قد قُدَتْ من معدن نفيس لا يصدأ أبداً.

على هذه الصورة دفعت مدرسة براج بعلم اللغة النظرى خطوات حاسمة وذات تأثير واضح فى الفكر اللغوى الحديث والمعاصر، بل لقد بشرت هذه المدرسة وتنبأت بظهور علوم لغوية، أصبح أكثرها يمثل اليوم فروعاً من علم اللغة التطبيقى أو اللسانيات التطبيقية، مثل علم اللغة الاجتماعى، وعلم اللغة النفسى، وعلم الأسلوب، كما سنرى فيما بعد.

غير أن علم اللغة النظرى لم يقف عند حدود هاتين المدرستين أعنى مدرسة دى سوسير ومدرسة براج، وإنْ كانت هاتان المدرستان أعظم أثراً وأخلد ذكراً من أى مدرسة لغوية أخرى، إذ هما معاً وجهتا التفكير اللغوى الوجهه التى مازالت اثارها بقية فى هذا الفكر حتى اليوم، ومع

ذلك فلن نستطيع أن نبخس المدارس اللغوية الأخرى حقها فى دفع مسيرة علم اللغة من خلال النظريات التى وضعتها وأذاعتها، حيث قامت هذه النظريات غالباً على اختلاف فى النظر إلى طبيعة اللغة الإنسانية ووظيفتها من ناحية، ووصف اللغة من ناحية أخرى.

من هذه المدارس، مدرسة لم يُكتب لها الذيوع أو الانتشار الذى حظيت به مدارس لغوية أخرى، وهى مدرسة «كوبنهاجن» التى أسسها علم اللغة الدنماركى «هلمسليف» Hielmslev (ولد ١٨٩٩م) ومن أشهر علمائها «أتو يسبرسن» Otto Jespersen (١٨٦٠م - ١٩٤٣م)[١].

وقد قامت هذه المدرسة على أصول ومبادئ، المدرستين السابقتين أى مدرسة دى سوسير أو مدرسة «چينيف» كما أطلق عليها بعض مؤرخى الفكر اللغوى، ثم مدرسة براج، وقد أطلق «هلمسليف» على نظريته أسم «الجلوسيماطيقا» Glossmatics، وهو اسم مشتق من الكلمة اليونانية "glossa" التى تعنى «اللسان» أو «اللغة»

وقد أسسها على أصول رياضية mathematical صورية احتاج فى التعبير عنها إلى مصلطحات جديدة غير المصطلحات المتداولة المعروفة، وكانت هذه المصطلحات من الغرابة والغموض بحيث كانت سبباً فى الحدً من انتشار هذه النظرية.

وقد انطلق «هلمسليف» فى نظريته من أصلين هما:

١ - أن اللغة ليست مادة Substanc، وإنما هى صورة أو شكل Form.

٢ - أن جميع اللغات تشترك فى كونها تعبيراً expression ثم محتوى Content.[٢]

---

(١) وهو صاحب كتاب «اللغة بين الفرد والمجتمع» الذى ترجمة عام ١٩٥٤ عبد الرحمن أيوب وقد أشار إلى هذه الترجمة وعلق عليها أستاذنا الدكتور محمود السعران انظر كتابه: «اللغة والمجتمع» ص ١٦

(٢) انظر Ivic, milka, OP. cit, P. 178

وانظر أيضاً Todorov, Ency. Dict. of sciences of Lang.P 20

غير أن بنية اللغة عنده هى عبارة عن نظام أو شكل فريد قائم بذاته، ولذلك فهى تتطلب أدوات خاصة لتحليلها . ومن ثم فلا بد من وضع نظرية صورية رياضية تصدق على جميع اللغات، وتكون هذه النظرية بمثابة علم الجبر فى الرياضيات.

ومعنى هذا أن مهمة عالم اللغة عند «هلمسليف» تنصب على الصورة أو الشكل، إذ هو مناط الخلاف بين اللغات، فى حين أن الدلالات أو المعانى أمر مشترك بينها

وقد ترتب على هذا الفهم لطبيعة اللغة أن جعل دراسة العلاقة بين الوحدات اللغوية، تأتى فى المرتبة الأولى قبل دراسة هذه الوحدات فى ذاتها .

وكان يرى أن كل وحدة من وحدات اللغة، مهما صَغُرتْ، لا يمكن معرفة طبيعتها إلا فى وجود الوحدات الأخرى، أى بعبارة أخرى، إن كل عنصر من عناصر اللغة المنطوقة spoken أو المكتوبة written ، لا يزيد عن كونه نقطة فى شبكة من العلاقات.

فمثلاً نحن نعرف أن الفرق بين الصوت الصامت Consonant والصائت Vowel ، يكمن فى أنَّ الصائت قد يقوم أو يستقل فى مقطع syllable من المقاطع، بينما الصامت لا يمكن له ذلك فى بعض اللغات.

وفى بعض اللغات قد نجد أن الصفة قد تتبع الموصوف، فى الإعراب والإفراد والتثنية والجمع والتأنيث والتذكير - الخ، كما فى اللغة العربية ولكن «الجلوسيماطيقا » لا تكتفى بمثل هذ العلاقات التى تتصل بوحدة معينة أو عنصر معين، وإنما حاولت أن تبحث عن القانون العام الذى يحكم مثل هذه العلاقات. على اختلاف بين وحدات اللغة من حيث طبيعتها أو بنيتها

فبدلاً من القول بأن حرف الجر - مثلاً - يختص بالأسماء، تقول: إن ظهور «حرف الجر» فى جملة ما لا بد أن يصاحبه ظهور «الاسم». وبدلاً

من أن تقول: إن الصفة تتبع الموصوف، تقول: إن ظهور «الصفة» تؤدى إلى ظهور «الموصوف»، وإن ظهور أى «صامت» فى مقطع ما، لابدَّ من ظهور «الصائت».

وقد صاغت هذه النظرية مثل هذه العلاقات وغيرها من العلاقات بين الوحدات اللغوية، فى صورة منطقية رياضية مثال ذلك: إن ظهور العنصر أو الوحدة (س) فى تركيب ما يؤدى إلى ظهور العنصر (ص)، أو أن ظهور العنصر (ص) فى تركيب ما، يؤدى إلى ظهور العنصر (س) فى التركيب نفسه.

ومعنى هذا أن هذه العناصر اللغوية ليست قابلة للتحليل اللغوى لأنها مستقلة، وإنما هى تقبل ذلك، من حيث هى عناصر ذات علاقات محددة، مع عناصر لغوية أخرى، داخل بنية معينة، فى لغة معينة.

والمتأمل لهذه النظرية، سيلاحظ أنها محاولة لإنشاء بناء منطقى رياضى للغة، يستند إلى جهاز من التعريفات والمصطلحات كما سيلاحظ أنها تنطلق من فكرة دى سوسير فى العلاقة اللغوية على الرغم من أنها تتحدث عن التعبير والمحتوى، بدلاً من الدال والمدلول، ولكنها تختلف، من حيث المزج بين اللسانيات والمنطق الرياضى بصور تجريدية، لأن البنية اللغوية فى هذه النظرية، ما هى إلا كيان صورى مستقل، يتمثل فى مجموعة من العلاقات الداخلية، ومن هنا فإن بنيوية هلمسليف، تأخذ شكلاً ثابتاً لا متغيراً. فهو يُعلى من شأن العلاقات اللغوية التى تأخذ شكلاً ثابتاً، أكثر من تلك التى تتغير.

وإذا كان بعض علماء اللغة يرون، إن اللغة ما هى إلا تحليل خاص للواقع، بحيث يصبح كل وصف لأى لغة من اللغات إنما هو وصف بطريقة خاصة فى تنظيم العالم الخارج عن اللغة، إلا أن «هلمسليف» يؤكد عكس ذلك، إذ يرى أنه إذا كان من شأن اللغة أن تشيع ضرباً من النظام فى الأشياء، فإن ذلك يرجع إلى أنها تسقط نظامها الخاص على الأشياء، وبالرغم من الدقة التى اتسمت به هذه النظرية فى التحليل

اللغوى الرياضى للغة الإنسانية، إلا أن بعض علماء اللغة يأخذون عليها أنها لم تعتمد إلا على عدد ضئيل من التطبيقات اللغوية،فضلاً عن أنها لم تتجاوز مرحلة التصنيف للعناصر اللغوية، ومن ثم بقيت هذه النظرية فى عُرف مؤرخى الفكر اللغوى،مجرد وجهة نظر بنيوية تصنيفية.

ومع ذلك، فلن نستطيع تجاهل أثر هذه النظرية، حينما ربطت بين التحليل الغوى والمنطق الرياضى أو الرياضيات بشكل عام وأثر ذلك فى نظرية تشومسكى كما سنرى فيما بعد.

وقبل أن نترك أوروبا إلى علم اللغة أو اللسانيات فى الولايات المتحدة الأمريكية، لا بد لنا من الوقوف أمام نظرية لغوية أوروبية أخرى، هى نظرية «فيرث» .Firth, J.R (١٨٩٠م - ١٩٦٠م) التى تكونت منها مدرسة لغوية فى بريطانيا أطلق عليها «المدرسة اللغوية الاجتماعية»، وهى مدرسة أثرت فى التفكير اللغوى العربى الحديث تأثيراً واضحاً، إذ تتلمذ على يد «فيرث» عدد من أساتذة اللغة العربية فى مصر[1]

أما نظرية «فيرث» فقد كانت محصلة للدراسات اللغوية التى بدأت فى بريطانيا منذ نهاية القرن الثامن عشر، عندما كشف السير وليم جونز (١٧٤٦م - ١٧٩٤م) علاقة اللغة السنسكرتيه باللغتين اليونانية واللاتينية بالإضافة إلى مؤثرات الفكر اللغوى فى أوروبا وخاصة نظرية الفونيم كما صاغتها مدرسة براج، كما كان نمو الامبراطوريه البريطانية وتوسعها الاستعمارى عبر البحار، من العوامل التى ساعدت على نمو الدراسات اللغوية فى بريطانيا، غير أن هذه الدراسات ظلت ردحاً من الزمن، لا تهتم سوى بالجوانب العملية، والتحليلية للغة، دون وضع نظريات لغوية.

ولكن فى عام ١٩٤٤م، شاركت بريطانيا لأول مرة، فى وضع نظرية لغوية على يد «ڤيرث». الذى كان يعرف أن اهتمام علماء اللغة فى

---

(١) منهم أستاذنا محمد السعران ود إبراهيم انيس. د كمال بشر ود عبد الرحمن أيوب ود تمام حسان ود محمد أحمد ابو الفرج

بريطانيا لا يعدو وضع المعاجم والدراسات الصوتية واللهجية، وكان لفيرث اهتمام خاص باللغات الشرقية، فقد عاش فترة من الزمن فى الهند، وتأثر بجهود علماء اللغة الهنود القدماء، ووصفهم للغة السنسكريتية، وبخاصة من الناحية الصوتية.

وكل ذلك أهله لوضع نظرية لغوية، قامت عليها مدرسة لغوية مستقلة فى تاريخ الفكر اللغوى فى بريطانيا، وكان حجر الزاوية فى هذه النظرية هو فكرة السياق Cotext[1]

وبالرغم من أن علماء اللغة قديماً والفلاسفة مثل إفلاطون وأرسطو، وعلماء العربية على وجه الخصوص قد أدركوا أهمية السياق ودوره فى الحدث اللغوي أو الكلام وأشاروا إلى ذلك فى دراساتهم اللغوية والبلاغية، كما أشار إليها علماء أصول الفقه ومفسّروا القرآن الكريم[2] فإن الفضل فى إعادة الحياة إلى هذه الفكرة يعود إلى «ڤيرث»، الذى صاغ منها نظرية لغوية قد تلتقى فى بعض جوانبها، مع آراء القدماء حول أهمية السياق ولكنها - بلاشك - تختلف من حيث المنهج والتحليل والأصول النظرية والمصطلحات.

وقد تأثر «فيرث» فى وضعه لهذه النظرية بعالم الانثربولوچيا البولندى مالينوفسكى Malinowski, B. (١٨٨٤م - ١٩٤٢م) الذى صادف العديد من الصعاب فى ترجمة بعض نصوص من آداب بعض الشعوب البدائية، ووجد من الضرورى وضع الكلمات فى سياقها الاجتماعى الذى استخدمت أو نُطقت فيه.

وقد رأى «ڤيرث» أن فكرة السياق الاجتماعى Contexl of situation هذه التى قال بها مالينوفسكى، يمكن أن تمتد وتتسع فى إطار نظرى تجريدى عام لدراسة المعنى meaning. ومن ثم وضع أصول نظريته التى أصبح السياق فيها يمثل حقلاً من العلاقات Field of relation اللغوية وغير اللغوية؛ الداخلية والخارجية.

---

(١) انظر Robins, Op. Cit, P. 134, P. 213.

(٢) راجع طاهر حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، بيروت ١٩٩٨م.

وكان يرى أن عالم اللغة الذي يريد أن يصل الى المعنى الدقيق للحدث اللغوي أو الكلامي، أن يبدأ أولاً بالكشف عن العلاقات بين الوحدات اللغوية المكونة له، من أصغر وحدة صوتية وهي الفونيم إلى أكبر الوحدات اللغوية مثل الكلمة أو الجملة، وهذا التحليل يقوم عنده على أركان ثلاثة هي:

١ - إن كل تحليل لغوي لا بد أن يعتمد على المقام Confext of situatıon، مع ملاحظة ما يتصل بهذا المقام من علاقات أو ظروف وملابسات، وقت الكلام الفعلي مثل:

(أ) شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما الثقافي، وشخصيات من يشهد الكلام ودورهم فيه

(ب) العوامل والظواهر الاجتماعية والمناحية، وعلاقتها باللغة والسلوك اللغوي وقت الكلام

(جـ) أثر الكلام في المشاركين فيه، مثل: الاقتناع أو الاعتراض أو الألم أو السرور أو غير ذلك.

ومعنى هذا أن من أهم خصائص المقام عند فيرث، هو إبراز الدور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلم، وسائر المشتركين في الكلام

٢ - ضرورة تحديد بيئة الكلام، لأن هذا التحديد يضمن عدم الخلط، بين لغة وأخرى، أو بين لهجة وأخرى، لأن هذا الاختلاف، يترتب عليه بالضرورة، تحديد البيئة الاجتماعية أو الثقافية، التي تحيط باللغة المراد دراستها، كما يجب أن تكون الدراسة مقصورة على مستوى لغوي واحد كلغة المثقفين أو العوام، أو لغة النثر، أو لغة الشعر

وهذا المبدأ سنجد له أثراً في علم اللغة الاجتماعي وعلم الأسلوب من علوم اللغة التطبيقية، كما سنرى فيما بعد

٣ - يجب تحليل الكلام الى عناصره ووحداته المكونة له للكشف عما بينهما من علاقات داخلية لكي نصل الى المعنى الذي نتصل اتصالاً

بمستويات Levels التحليل المختلفة: الصوتية والفنولوچية والمورفولوچية والنحوية، مع ملاحظة أن هذه المستويات، ترتبط فيما بينها برباط وثيق لكى تصل فى النهاية عبر كل مرحلة أو مستوى إلى المعنى اللغوى للكلام.

وبناء على ذلك، فإن مفهوم المعنى meaning عند ڤيرث، ليس شيئاً فى الذهن، أو العقل، كما أنه ليس علاقة متبادلة بين اللفظ والصورة الذهنية، كما قال دى سوسير، وإنما هو مجموعة من العلاقات والخصائص اللغوية التى تستطيع التعرف عليها فى موقف معين يحدده لنا المقام.

ومعنى هذا أن مفهوم السياق Context عند ڤيرث ينقسم إلى شقين:

الأول : السياق اللغوى أو المقال Linguisric context، ويتمثل فى العلاقات الصوتية والفنولوچية والمورفولوچية والنحوية والدلالية.

الثانى : سيق الحال أوالمقام Context of Situation ،ويمثله العالم الخارج عن الحدث اللغوى، كما تتمثل فى الظروف والملابسات الاجتماعية النفسية والثقافية للمتكلم أو المشاركين فى الكلام.

وفى إطار التحليل اللغوى وظّف «ڤيرث» مفهوم «احتمال الوقوع» Co - occurrence ومفهوم التلازم Collecation.

أما مفهوم «احتمال الوقوع» فهو يقصد به، استبدال كلمة (ولد) فى جملة مثل: «ولد نحيل» بكلمة أخرى مثل (بلد) فتصبح الجملة: «بلد نحيل»، وهو احتمال لا يقع فى اللغة العربية.

وأما مفهوم التلازم، فهو يدل على تلازم وقوع كلمة مع أخرى مثل الليل والنهار، والحر والصيف، والمطر والشتاء، وغير ذلك، وقد حاول «ڤيرث» أن يفسر اختلاف المعنى، على أنه اختلاف فى الوقوع الاحتمالى أو التلازمى، فى سياقات متعددة[١].

ومعنى هذا أن نظرية السياق تستخدم طرق التحليل التى توصل إليها علم اللغة البنيوى فى أوروبا ،ومن ثم عُدَّتْ نظرية« ڤيرث »هذه نظرية بنيوية.

---

(١) انظر Lyons, John, Semantics, Vol. 2 PP 609 612

فإذا تركنا أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فسنجد أن الدراسات اللغوية فيها قد بدأت بصورة مختلفة عن تلك التى بدأت بها أوروبا، ومن ثم كان لعلم اللغة أو اللسانيات فى الولايات المتحدة طابعاً مختلفاً يتمثل فى الانطلاق من الواقع اللغوى الذى أملته طبيعة اللغات التى وجدها علماء اللغة الأمريكيون فى هذه القارة الجديدة، ولكنها تلتقى مع تلك التى بدأت بها أوروبا من أن اللغة بنية structure، وأن هذه البنية لكى تُدرس لا بد أن تُحلَّل إلى مكوناتها، وهو ما يؤكد أن البحث اللغوى فى الولايات المتحدة، لم يكن منبت الصلة عن الدراسات اللغوية فى أوروبا.

فالرواد الأوائل لعلم اللغة الأمريكى، وغيرهم من علماء اللغة الأمريكيين مثل: فرانز بواز F. Boas (١٨٥٨م - ١٩٤٨م)، وإدوارد سابير E. Sapir (١٨٨٤م - ١٩٣٣م)، وليونارد بلومفيلد L. Bloom-field (١٨٨٧م - ١٩٤٩م) ثم نعوم تشومسكى N. Chomsky (ولد ١٩٢٨م) عالم اللغة المعاصر، كانوا جميعاً على صلة بالتراث اللغوى الأوروبى، منذ القرن التاسع عشر، حينما كان الاتجاه التاريخى المقارن، هو المهيمن على التفكير اللغوى آنذاك[١].

وقد بدأت تلك الصلة على يد عالم اللغة الأمريكى «وتنى» Whitney (١٨٢٧م - ١٨٩٤م)، الذى ألف كتاباً عن «حياة اللغة ونموها» Life and growth of Language عام ١٨٧٥م، وقد أشار إليه دى سوسير فى مقدمة محاضراته، فضلاً عن «بواز» و«سابير» اللذان ولدا فى أوروبا.

أما «بلومفيلد» فقد أشار فى كتابه «اللغة» Language، إلى دى سوسير والمنهج الوصفى، وذلك فى المقدمة التاريخية التى وضعها فى صدر كتابه هذا عن تاريخ الفكر اللغوى عند الهنود واليونان والرومان والعرب، ثم فى العصور الوسطى فى أوروبا حتى عصر دى سوسير[٢]

---

(١) راجع كتابنا، مقدمة لدراسة فقه اللغة، ص ٤١ وما بعدها

(٢) انظر Bloomfield, Language, PP. 3 19.

وانظر أيضاً. Robins, OP Cit, PP 207

أما عالم اللغة الأمريكى المعاصر نعوم تشومسكى N. Chomsky فهو لم يتأثر بالفكر اللغوى الأوروبى فحسب، بل تأثر أيضاً بالفكر الفلسفى لأوروبا خاصة عند ديكارت (١٥٩٦م - ١٦٥٠م)، وذلك واضح من كتاب، تشومسكى، علم اللغة الديكارتى Cartesian Linguishics، كما تأثر أيضاً بأفكار العالم الألمانى «وليم فون همبولدت W. von Humboldt (١٧٦٧م - ١٨٣٥م) الذى كان من أكبر علماء القرن التاسع عشر»، ويَعُدُّه بعض مؤرخى الفكر اللغوى، المؤسس الحقيقى لعلم اللغة العام، أو اللسانيات العامة، من حيث هو علم يقوم بدراسة الظواهر اللغوية وفحصها، فى ضوء مادة لغوية مختلفة ومتنوعة، قد جُمعت من لغات حية[1].

وتظهر أصالة ما قدمه «همبولدت» فى ميدان الدراسات اللغوية من منهجه فى دراسة اللغات الإنسانية، وآرائه النظرية حولها، تلك الآراء التى لم تكن منسجمة البتة، مع التيار التاريخى المقارن الذى كان فاشياً طوال القرن التاسع عشر، ولم تنكشف جدة هذه الآراء وأصالتها إلا مع مطلع النصف الثانى من القرن العشرين على يد تشومسكى[2]

وقد كان «همبولدت» من مخضرمى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومن ثم جمع بين النزعات الفلسفية والتاريخية المقارنة وحاول التوفيق بينها، ففى آرائه عن ماهية اللغة تبدو لنا مذاهب الفلاسفة الذين اهتموا بماهية الكلام واللغة وعلاقتهما بالفكر والثقافة والحضارة والإنسان وتطوره، وغير ذلك من المشكلات النظرية التى حاول هذا العالم، أن يضع لها حلولاً عن طريق النظر العقلى والتأمل الفلسفى[3]

---

(١) راجع Milka, Ivic, OP. Cit. PP. 48 - 50.

(٢) راجع ترجمتنا لكتاب جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية ص ٢٣٣- ص ٢٥٢.

(٣) انظر عبد الرحمن الحاج صالح، مجلة اللسانيات، المجلد الثانى، العدد الأول الجزائر، ١٩٧٢، ص ٢٣ - ص ٢٥.

وانظر أيضاً، نظرية تشومسكى اللغوية المرجع السابق ص ٢٣٣ وما بعدها.

و Robins, OP. Cit, PP. 174 - 157.

و Milka Ivic, OP. Cit, PP. 48 - 49.

ومع ذلك فقد كان من المؤمنين بضرورة البحث الاستقرائى للغة فى فترة زمنية محددة، أى وهى فى حالة السكون أو الآنيه synchronic، كما قال دى سوسير.

ومن ثم عكف «همبولدت» على التحليل اللغوى الخالص، دون أن يشغل نفسه كثيراً بالدراسات التاريخية المقارنة، أو علاقة القرابة بين اللغات، بل لم ير فى عائلة اللغات الهندية الأوروبية، ما يستحق الاهتمام، أكثر من غيرها من لغات العائلات اللغوية الأخرى.

ويمكن أن نرصد أبرز ما أسهم به هذا العالم من آراء حول ماهية اللغة وتحليلها ودراستها فيما يلى :

١ - اللغة ظاهرة ديناميكية، ومظهرها الخارجى ما هو إلا الجانب السطحى منها.

٢ - هناك علاقة متبادلة بين اللغة و الفكر؛ فاللغة فى حقيقتها نشاط ذهنى، وظيفتها الأساسية مساعدة الذهن على حصر المعانى والتعبير عنها.

٣ - المعانى لا نهاية لها، ومن ثم فإن اللغة تستخدم وسائل محدودة فى التعبير عن أشياء غير محدودة، وهو ما أطلق عليه تشومسكى وغيره من علماء اللغة المعاصرين، الجانب الإبداعى Creative من اللغة واستغلها فى علم اللغة النفسى كما سنرى فيما بعد.

٤ - يمتلك الإنسان ملكه فطرية innate Properties فُطر عليها، دون سائر الكائنات الحية الأخرى، تجعله قادراً على انتاج الكلام وفهمه، وهى قدرة تختلف عن تلك التى نلاحظها فى مهارة النطق والكتابة، لأنها قدرة عقلية فطرية، وهذه أيضاً إحدى المقولات أو الأصول التى استقاها تشومسكى من همبولدت، وأقام عليها نظريته، فى علم اللغة النفسى، كما سنرى أيضاً.

٥ - اللغة نظام عضوى، يتألف من بنية سطحية surface structure وصورة باطنية، تختلف عن الصورة الظاهرة فى الكلام، ومن ثم فإن

دراسة اللغة أو تحليلها ينبغى أن تبدأ من البنية الداخلية Inner Form، وهذه أيضاً إحدى دعائم نظرية تشومسكى.

٦ - ليست اللغة صورة مطابقة للواقع، ولذلك فإن لكل شعب من الشعوب،نظرة خاصة إلى الواقع تظهر فى لغته،أو فى استعماله للغة،وهذه النظرة الخاصة من خلال اللغة،هى التى تدل على شخصية كل شعب.

وقد احتلت مشكلة العلاقة بين اللغة ودلالتها على عقلية أمة من الأمم، مكاناً علياً فى نظرية همبولدت، لأن اللغة عنده، ما هى إلا فيض Ema-nation خاص بروح أمة معينة،وأى مرحلة من مراحل تطور أى لغة، تتصل اتصالاً وثيقاً بعقلية الأمة صاحبة هذه اللغة،ويتمثل ذلك فى ثقافتها وحضارتها ونظرتها العام إلى الأشياء والأفكار، ومن هنا فإن تاريخ أى لغة لا بد أن يدرس فى ضوء التاريخ الثقافى والحضارى لهذه الأمة.

وقد أثرت أراء همبولدت هذه على علماء عصره، وبعد عصره، فوجهت علماء اللغة منذ عصره إلى دراسة جوانب هامة وحيوية من اللغة، مثل علاقة اللغة بالمجتمع والثقافة والحضارة والظواهر النفسية والعقلية، ومن هؤلاء العلماء فى عصره «ستنثال» Stenthal (١٨٢٣م - ١٨٩٩م)، و«وليم ڤوندت» W. wuudt (١٩٣٢م - ١٩٢٠م) اللذان وضعا أسس علم اللغة النفسى، ومن الذين تأثروا من علماء اللغة بعد عصر «همبولدت» نجد إدوارد سابير ونعوم تشومسكى، كما سنرى.

كما كانت هجرة بعض علماء اللغة فى أوروبا إلى الولايات المتحدة، رافداً آخر استمدت منه الفكر اللغوى الأمريكى الكثير، ويأتى على رأس هؤلاء المهاجرين، رومان ياكبسون Jakobson, R (١٨٩٦م - ١٩٨٢م) أحد الأعضاء البارزين فى مدرسة براج، وكان نعوم تشومسكى أحد تلاميذه، كما سنرى أيضاً فيما بعد.

أما عالم اللغة الأمريكى إدوارد سابير (١٨٨٤م - ١٩٣٣م) فقد ولد فى أوروبا كما أشرنا من قبل - وهو رائد البنيوية فى الولايات المتحدة الأمريكية، معلم أجيال من علماء اللغة الأمريكيين، وتلميذ من

تلاميذ «فرانز بواز» (١٨٥٨م - ١٩٤٨م) من رواد الدراسات اللغوية في الولايات المتحدة.

وكان «سابير» واسع الثقافة، له اهتمامات علمية متنوعة، وقد انطلق في دراسته للغة من فكرة «النماذج اللغوية» Linguistic Patterns التى لا تبعد كثيراً عن التفرقة التى وضعها دى سوسير، بين اللغة والكلام، ويقصد سابير «بالنماذج اللغوية»، أن كل إنسان يحمل فى داخله الملامح الأساسية لنظام لغته، أى النماذج الفعلية التى تقدمها اللغة فى عملية الاتصال، وهى نماذج ثابتة، وذلك فى مقابل الاستخدام الفعلى للغة، المتمثل فى المادة اللغوية المنطوقة.

وفكرة النماذج اللغوية هذه، لا تبعد كثيراً عن «البنية الداخلية» التى أشار إليها همبولدت ثم أفاد منها تشومسكى فيما أطلق عليه القدرة اللغوية Competence، فى مقابل الآداء اللغوى Preformanc.

غير أن «سابير» بحكم ثقافته الواسعة، أرجع معرفة هذه النماذج وفهمها إلى الحياة الثقافية والاجتماعية، إذ يستعمل مصطلح «الثقافة» Culture ليدل به على مجموعة التصورات والمفاهيم والعادات والسلوك، التى يتألف منها تصور شعب من الشعوب عن العالم الذى يحيط به، ولذلك فإن اللغة عنده، هى جزء أساسى من هذه الثقافة، بل هى إحدى مكوناتها، فهى وسيلة الاتصال الإنسانية غير الغريزية للتعبير عن العواطف والأفكار والرغبات، وفق نظام من الأصوات الإنسانية الاعتباطية arbitrary[1]

ومن ثم، فالعلاقة بين اللغة والثقافة عند «سابير»، هى علاقة فاعلة ومتفاعلة فى آن، وقد أدى تصوره هذا، للعلاقة بين اللغة والمجتمع، إلى تطور الدراسات الانثروبولوچية.

كما أسهم تصوره هذا، للعلاقة بين اللغة والثقافة من ناحية واللغة

---

(١) انظر Sapir, language, P. 8, P. 16

والمجتمع من ناحية أخرى، فى أرساء بعض مبادئ علم اللغة الاجتماعى ومفاهيمه.

كما انفرد سابير بتصور للفونيم، يختلف عن ذلك التصور الذى وضعته مدرسة براج. فهو يرى أن «الفونيم» ما هو إلا وحدة نفسية معقدة لها ارتباطات متعددة، بعضها يتصل بالصوت اللغوى النموذجى، وبعضها يتصل بالصوت اللغوى الفعلى، الذى هو محاكاة لهذا النموذج النفسى الذى لا يتحقق عادة فى الكلام العادى.(1)

ولكى يتعرف على طبيعة «الفونيم» يرى أن المعيار التوزيعى distributional، هو المعيار الحاسم الذى يمكننا من التعرف على الفونيم، وهو يقصد بالمعيار التوزيعى، المواضع التى يظهر فيها فونيم معين مع الفونيمات الأخرى، التى تشترك فى نظام لغوى واحد، وسرعان ما أصبحت فكرة التوزيع هذه، أصلاً من أصول علم اللغة الأمريكى.

وبصورة عامة كان سابير إنسانياً فى نظرته إلى اللغة، وهو ما يُتوقع من عالم مثله، نظر لتنوع ثقافته، ولهذا اهتم كثيراً بإبراز الجانب الحضارى والثقافى والاجتماعى للغة الإنسانية.

أما بلومفيلد (١٨٨٧م - ١٩٤٩م) فقد استطاع أن يكوّن لنفسه مدرسة لغوية واضحة ومستقلة فى تاريخ الفكر اللغوى الإنسانى بعامة والفكر اللغوى الأمريكى خاصة، هى المدرسة السلوكية، أو مدرسة ييل yale وهو اسم الجامعة التى كان يعمل بها أستاذاً للدراسات اللغوية، وقد تلقى بلومفيلد دراسته اللغوية، وفق المنهج التقليدى، وركز أبحاثه حول علم اللغة التاريخى ، ولكنه ظل مخلصاً لعلوم اللغة أكثر من سابير، الذى حلق باللغة فى آفاق انثربولوچية واجتماعية ونفسية وثقافية، ولذلك فإن أصول البحث اللغوى عند بلومفيلد، أكثر وضوحاً وأبقى أثراً فى تاريخ الفكر اللغوى الأمريكى، كما كان على اتصال بعلم اللغة فى أوروبا ، يتابع تطوراته عن كثب.

---

(1) Sapir, op. Cit., P. 55.

وقد التزم «بلومفيلد» بالمنهج البنيوى الوصفى، ولكن بطريقة خاصة، أصبحت علماً عليه،وعلى مدرسته اللغوية،وكان يفهم مصطلح «العلمية» Scientificness على أنه يتضمن رفض أى مادة data غير قابلة للملاحظة المباشرة، أو بالأحرى غير قابلة للقياس المادى، وكان متأثراً بذلك فى علم النفس السلوكى behaviourism وخاصة واطسون B. watson (١٨٧٨م - ١٩٥٨م) الذى رأى أن علم النفس ليس فى حاجة إلى التسليم بوجود العقل، أو أى شئ آخر، لا يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة أو قياسه، إذا ما أردنا أن نفسر النشاط والقدرات الخاصة التى يتمتع بها البشر، لا التى وصفها علماء النفس التقليديون، بأنها ذهنية أو عقلية، لأن سلوك أى كائن عند السلوكين ابتداءً من الأميبا وإنتهاءً بالكائن البشرى، لا يمكن تفسيره عندهم إلا فى ضوء المثيرات Stimulises والاستجابات responses، التى تحدث فى البيئة المحيطة بالكائن الحى[1].

وبناء على ذلك رأى «بلومفيلد» أن اللغة سلوك، بل هى قمة العمليات البيواجتماعية biososcial، بل هى المسؤولة عن تنظيم المجتمع الإنسانى بأكمله[2].

ولكى يوضح فهمه لوظيفة اللغة على هذا النحو، يأتى بمثاله المعروف المشهور عن چال وچيل والتفاحة[3]ويرى أن أحداث هذه القصة تصلح لأن تكون موضوعاً للدراسة من جوانب مختلفة، لكن الذى يدرس اللغة، يستطيع أن يميز الحدث الكلامى Act of Speech عن سواه من الوقائع التى يطلق عليها «الأحداث العملية» Practical events، ومعنى هذا أننا إذا نظرنا إلى هذه القصة، من وجهة النظر اللغوية، وجدناها تتألف من مراحل ثلاثة، طبقاً لزمن وقوع أحداثها، وهذه المراحل هى:

---

(١) راجع ودورث، روبرت، مدارس علم النفس المعاصر، ترجمة، كمال دسوقى، ص ١٢١، ص ١٣٦.

(2) Boolmfield, op. Cit, P. 24.
Ibid, PP. 22 - 27.

(٣) وانظر كتابنا، مقدمة لدراسة علم اللغة ص ص ١٥٠ - ١٥١.

١ - أحداث عملية سابقة على الحدث الكلامى.

٢ - الحدث الكلامى.

٣ - أحداث عملية لاحقة للحدث الكلامى.

فإذا نظرنا إلى الأحداث العملية التى تسبق الكلام، وجدناها تتصل بالفتاة «چيل» التى كانت جائعة، ومعنى الجوع عند بلومفيلد يُفهم من أحداث فسيولوچية، مثل تقلص عضلات البطن، وتدفق السائل المعوى، غير ذلك من المظاهر الحسية المادية للجوع.

عندما رأت «چيل» التفاحة، ومعنى الرؤيا عند بلومفيلد أيضاً عبارة عن سقوط شعاع من ضوء الشمس، ينعكس من التفاحة إلى عينيى الفتاة، ومن ثم تكلمت مع «جاك»، الذى لا بد أن تكون لها به علاقة ما، أخوها أو زوجها أو صديقها، وهى علاقة ذات أثر فى الحدث الكلامى.

وكل هذه الأحداث التى تسبق كلام «جيل»، يطلق عليها بلومفيلد «مثير المتكلم» Speaker's stimulus، أما الأحداث التى تلى كلامها فهى تتصل بالسامع «چاك»، وتتمثل فى إحضار التفاحة وإعطاؤها لها، وهذه الأحداث يطلق عليها بلومفيلد استجابة السامع Hearer's response[1]

أما الكلام، وهو المرحلة الثانية من مراحل هذه القصة، فهو مناط اهتمام عالم اللغة، وهو عبارة عن محصلة لظواهر فسيولوچية وفيزيائية ومن ثم ينبغى الاستعانة بالعلوم الطبيعية فى دراسة الكلام، لأن أعضاء النطق أو جهاز النطق فى هذا الحدث، يقوم بحركات فسيولوچية معينة، لكى يُصدر أصواتاً هى استجابة لمثير معين، إذ كانت «چيل» وحدها، فإن الاستجابة ستختلف، فإما أن تحضر التفاحة بنفسها وتأكلها، وإما أن تبقى جائعة، وهى فى هذا تشبه الحيوان الجائع، الذى يَشُم رائحة الطعام، ورؤية التفاحة عند «چيل» أو شم الطعام عند الحيوان، كلها عبارة عن مثيرات مختلفة، ومعنى هذا أن الاستجابة عند الإنسان والحيوان واحدة، وهى محاولة الحصول على الطعام.

---

(1) Ibid, P. 23.

ومعنى هذا أيضاً أن اللغة عند «بلومفيلد» ومن تبعه من السلوكيين ليست إلا نوعاً من الاستجابات الصوتية لحدث معين، فالإنسان يسمع كلاماً معيناً، أو يرى شيئاً، أو يشعر بشعور ما، فيتولد عن ذلك استجابة كلامية، دون أن ترتبط هذه الاستجابة بأى صورة من صور التفكير العقلى، والإنسان فى هذا يشبه الحيوان.

ولذلك رفض «بلومفيلد» تلك المفاهيم والمصطلحات العقلية التى رأى «ديكارت» و «همبولدت» و«سابير» أنها ذات صلة وثيقة باللغة وتفسر جوانب هامة منها.

وقد رفض تشومسكى كل هذا الذى جاء به «بلومفيلد» ونادى بالأصول العقلية التى قال بها هؤلاء الفلاسفة والعلماء كما سنرى فيما بعد.

وبناء على هذا الفهم لطبيعة اللغة ووظيفتها عند «بلومفيلد» ومن اتبعه،شاع فى تاريخ الفكر اللغوى، أن هذه المدرسة، رفضت دراسة المعنى أو البحث فى الدلالة، وأنها ركزت فى تحليلها للغة على الجانب المادى فقط، كما يتمثل فى الصوت والبنية، التى يتحقق فيها توزيع الأصوات اللغوية على شكل فونيمات ومورفيمات، لأن ذلك يمثل المادة المناسبة للبحث الموضوعى المضبوط، دون المعنى، الذى قد يفتح مجالات للأحكام الذاتية الانطباعية[١].

والواقع أن «بلومفيلد» لم يرفض دراسة المعنى،بل لقد أشار إلى أهمية العلاقة بين الصوت والمعنى، غير أنه يذهب إلى أن اقحام الجانب الدلالى أو الدراسة الدلالية Semantics، قد يعوق الوصول إلى القوانين العامة التى تحكم السلوك اللغوى عند البشر ولذلك رأى أننا إذا أردنا أن نعرف المعنى معرفة علمية دقيقة، فلا بد أن نكون على علم دقيق بكل شئ فى عالم المتكلم، يضاف إلى ذلك أنه كان يرى أن تحليل المعنى لا بد أن يقوم على أسس مادية حسية، مثل المبنى، ومن ثم انتهى إلى أن دراسة المعنى وتحليله تحتاج إلى لون من المعرفة لم تصل إليه الإنسانية بعد[٢].

---

(1) Bloomfield, op. Cit, P. 27, P. 74.
(2) Ibid. `PP. 84 - 85, P. 140.

وبذلك أصبح بلومفيلد نبى الدعوة إلى المذهب الشكلى الآلى فى دراسة اللغة، ونبذ العقلانية، أو بعبارة أخرى الاستعاضة عن التعريفات العقلية والدلالية للعناصر أو الوحدات اللغوية التى كان يدور حولها الفكر اللغوى التقليدى، بدراسة سلوك هذه العناصر داخل البنية اللغوية، وذلك من خلال المواضع والمواقع التى تحتلها فى الكلام.

فهذه الوحدات، هى وحدات محدودة، غير أنها ذات قدرات توزيعية غير محدودة، ومن ثم أصبحت التوزيعية distrbutionalism، هى المنهج الذى اعتمد عليه بلومفيلد فى وصف اللغة الإنسانية ودراستها، وعلى هذا المنهج قامت مدرسته اللغوية.(١)

ويرتكز منهج التوزيع على مبدأ الإحلال والإبدال substituation حينما نستبدل وحده لغوية، محل وحدة لغوية أخرى فى بيئة لغوية أكبر، مثل فونيم فى كلمة، أو كلمة فى جملة.

مثال ذلك: استبدال الفونيم / ق/ فى كلمة مثل: (قام) بفونيم /ن/ فى كللمة مثل (نام)، أو إحلال كلمة (رجل) محل كلمة (فرس) فى جملة مثل: رأيت فرسا، ومعنى هذا أن الفونيمين /ق/ و /ن/ ينتمان إلى طبقة لغوية واحدة، هى الفونيمات ومثل ذلك تنتمى كلمتا (رجل) و(فرس) إلى طبقة الأسماء.

وتحاول التوزيعية بهذا المنهج، الخلاص من المعايير التقليدية، التى اعتُمدَ عليها فى تحديد أقسام الكلام Parts of Speech، مثل المعايير الدلالَية أو المنطقية العقلية.

وذلك مثل قول بعض علماء العربية القدماء، إن الاسم هو الكلمة الدالة على معنى فى نفسها غير مقترنة بزمن، وإن اقترنت بزمان، فهى الفعل وإن لم تدل على معنى فى نفسها، بل فى غيرها فهى الحرف.(٢)

---

(1) Milka Ivic, Op. Cit, P. 225.

(١٢) راجع شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ١/ ١٥.

وواضح أن هذه التعريفات أو الحدود، لأقسام الكلام في العربية، ما هي إلا تعريفات عقلية، أو على الأقل تعريفات لا تستخدم معايير لغوية، كما أنها لا تتصف بالموضوعية أو الشمول، فهناك كلمات في العربية لا ينطبق عليها تعريف الاسم، ولكنها تعامل أحياناً معاملة الاسم مثل: كيف وأين وعند وحيث، فضلاً عن أسماء الإشارة والأسماء الموصولة، والضمائر.

وهناك أيضاً كلمات لا ينطبق عليها تعريف الفعل، ولكنها تعامل معاملة الفعل مثل: اسم الفاعل، واسم المفعول، والمصدر وغير ذلك، وكذلك الحرف الذي اختلف النحاه في تعريفه.

غير أننا نستطيع أن نفهم لماذا صنع النحاه ذلك، إذا نظرنا إلى صنيع النحاة في ضوء المبدأ التوزيعي دون التعريفات أو الحدود التي وضعوها لكل جزء من أجزاء الكلام.

فأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر، وكيف وأين وحيث وغيرها، الحقت بالأسماء لأنها تحل محلها وتوزع في المواضع التي تحتلها الأسماء، ويؤكد ذلك حينما حددوا العلامات التي يُعرف بها الاسم أو الفعل أو الحرف، وكأنهم لاحظوا نوعاً من التلازم في التوزيع وحلول بعض الأدوات قبل الأسماء مثل: حروف الجر وأدوات النداء ودخول الألف واللام وغير ذلك، فكل من يقبل ذلك يصح انتماؤه إلى طبقة الأسماء، ومثل ذلك في الأفعال والحروف.[1]

وكل هذه معايير توزيعية واضحة،وكلها أيضاً وحدات تدخل تحت مفهوم المورفيم Morpheme سواء عند البنيويين عامة، أو عند بومفيلد خاصة، ولذلك حرص على تحديد مفهوم المورفيم وأنواعه من حيث هو عنصر لغوى له أهمية واضحة في سلوك العناصر اللغوية، ولكي يحل أيضاً مشكلة تعقد الوحدات اللغوية في مستوياتها المختلفة مثل: الكلمة والجملة.

فالمورفيم عند هذه المدرسة،أعني مدرسة بلومفيلد، هو عبارة عن فونيم

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٧ وما بعدها.

أو عدة فونيمات داخل بنية معينة، هذا إذا تجاهلنا المعنى، أما إذا اخذنا المعنى في الحسبان، فإن مفهومه يختلف، فهو عبارة عن أصغر وحدة لغوية تحمل معنى أو وظيفة نحوية أو صرفية، وينقسم إلى أنواع ثلاثة هي: المورفيم الحر free morpheme، والمورفيم المقيد bound morpheme، والمورفيم الصغرى Zero morpheme(١)

وفكرة المورفيم هي فكرة توزيعية قائمة على تحديد العناصر اللغوية طبقاً لسلوكها ووظائفها النحوية والصرفية والدلالية، وقد ترتب على هذا المفهوم لطبيعة المورفيم وأشكاله وأنواعة وسلوكه في بيان الوظائف الصرفية والنحوية، أن اختلف مفهوم أقسام الكلام عند هذه المدرسة، ومن ثم أيضاً اختلفت نظرتهم للقيم التوزيعية والوظيفية لهذه العناصر برصد سلوكها من حيث العلاقات التركيبية التي تدخل فيها ،وبناء على ذلك كان مبدأ التحليل إلى المكونات المباشرة immediate constituents analysis، من المبادئ الأصلية في هذه امدرسة، أو هو المنهج التحليلي الذي اعتمدت عليه هذه المدرسة، ويقوم هذا المنهج على عرض المكونات اللغوية في صورة بيانية، أو ما يسمى بالتحليل الشجري(٢)

وكانت مدرسة بلومفيلد ممثلة في تلاميذه وخاصة تلميذه« زيلج هارس» Zellig Harris (ولد ١٩٠٩) تعيش - مع نهاية العقد الخامس من هذا القرن - في شبه عزلة، حتى وصل رومان ياكبسون مهاجراً إلى الولايات المتحدة عام ١٩٥٠ والتحق بجامعة هارفارد Harvard University وسرعان ما أصبحت هذه الجامعة مركزاً لحركة لغوية بزعامة «ياكبسون» قامت على أصول ومبادئ مدرسة براج، وكان نعوم تشومسكي واحداً من تلاميذ هذه المدرسة التي سميت باسم «مدرسة هارفارد» في مقابل «مدرسة ييل»، التي تزعمها «زيلج هارس» تلميذ بلومفيلد.

وبادئ الأمر، وقعت مصادمات عنيفة بين المدرستين، ولكن ياكبسون

---

(1) Bloomfield, op. Cit, PP. 160 - 167.

وانظر أيضاً كتابنا، مقدمة لدراسة علم اللغة ص ص ٨٧ - ٩٢.

(٢) راجع كتابنا، مقدمة لدراسة اللغة، ص ص ١٢٥ - ١٢٨.

وتلاميذه حاولوا الاستفادة من المنهج التوزيعي في التحليل اللغوى، غير أنهم تمسكوا في الوقت نفسه بمبدأ الملامح المميزة distinctive features، الذى تميزت به مدرسة براج، بينما ظلت مدرسة «ييل» متحيزة كلية للتوزيعية، لا ترضى بغيرها بديلاً، غير أن مبدأ الملامح المميزة استطاع أن يثبت وجوده وقدرته في ميدان التحليل الفنولوچى، وفى مقابل ذلك، برز الاتجاه التوزيعي ممثلاً فى التحليل المورفولوچى.

وكان لنمو *نظرية المعلومات* information theory وتطورها، ودخول الرياضيات في مجال التحليل اللغوى، أكبر الأثر في إزاحة الخلافات الوهمية التي كانت قائمة بين المدرستين وامتزج ذلك كله في نظرية تشومسكى (١)

---

(١) وهو من مواليد فلادلفيا بولاية بنسلفانيا عام ١٩٢٨م، وفى هذه الولاية تلقى دراسته الابتدائية والثانوية، ثم التحق بجامعة بنسلفانيا، حيث درس علم اللغة والرياضيات والفلسفة، ثم حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٥٥، غير أنه قام بمعظم أبحاثه ودراساته لإعداد رسالته فى جامعة هارفرد في الفترة من ١٩٥١م حتى عام ١٩٥٥ ثم عين بعد حصوله على درجة الدكتوراه في معهد ماتشوستس للتكنولوچيا Massachuets Institule of Tecnology، ومنذ ذلك الحين ظل يترقى في حياته العلمية حتى وصل إلى كرسى الأستاذية في علم اللغة واللغات الحية، ومازال يعمل في هذا المعهد حتى اليوم.

وقد بدأ حياته العلمية، قبل أن يحظى بشهرته الواسعة بدراسة مبادئ علم اللغة التاريخى، على يد أبيه الذى كان عالماً فى اللغة العبرية وحصل على درجة الماجستير في هذه اللغة.

ومن أهم الذين أثروا في حياته العلمية أستاذه «زيلج هارس» تلميذ بلومفيلد، وكان «هارس» يعمل أستاذاً في جامعة بنسلفانيا حينما التحق تشومسكى بها، وكان يتعاطف مع آراء أستاذه السياسية.

ويرجع اهتمام تشومسكي بالسياسة، إلى كونه يهودياً ولد في مجتمع يدين بالمسيحية، وقد تكونت آراؤه السياسية مبكراً، فيما يعرف بالمجتمع اليهودى الثورى في مدينة نيويورك، وكعادة الكثير من الأقليات اليهودية، كان يميل إلى نزعات متطرفة، فقد كان فوضوياً، ثم أصبح اشتراكياً، وواضح أنه الآن أصبح لبرالياً Libral.

وقد حظى بشهرته السياسية، من نقده اللاذع للسياسة الأمريكية الخارجية، خاصة إبان تورط الولايات المتحدة في حرب ڤيتنام، وهو يرى أن هذه الحرب من قبيل جرائم الولايات المتحدة في العالم، إذ ليس من حقها أن تملى على الناس كيف يعيشون، وكيف يبنون حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما موقفه من الصراع العربى الإسرائيلي في فلسطين، فقد أصدر كتاباً حول ذلك عنوانه: «السلام في الشرق الأوسط» "Peac in the middle east" عام ١٩٧٤، أى بعد حرب أكتوبر بعام واحد، وفيه تنبأ بضرورة إقامة سلام بين العرب وإسرائيل، وأرجع هذا الصراع العربى الإسرائيلي، إلى أسباب تاريخية خاصة بفلسطين، وأسباب تاريخية أخرى خاصة باليهود، ويرى=

وقد يكون من العسير، في هذا العرض التاريخي لأصول علم اللغة النظري، حصر ما ساهم به تشومسكي من آراء نظرية وتحليلية وتطبيقية، خاصة وأن كثيراً منها ذات طبيعة فلسفية ونفسية ورياضية بالإضافة إلى اللغة.

ولعلنا قد لاحظنا من خلال النظريات والمدارس اللغوية المختلفة التي عرضنا لها من قبل، أن اللسانيات أوعلم اللغة قد اكتسب منذ دي سوسير منهجاً علمياً مستقلاً مثل غيره من العلوم الأخرى، الطبيعية والإنسانية ورغم ذلك، فقد اختلفت النظريات اللغوية وتعددت سواء من ناحية الأطر النظرية أو التحليلية أو المصطلحات، لكنها كان تسعى إلى الدراسة العلمية للغة الإنسانية.

ولعلنا قد لاحظنا أيضاً كيف تأثرت كل مدرسة من المدارس اللغوية التي عرضنا لها بغيرها من النظريات التي سبقتها بصورة أو بأخرى، بل انطلقت بعض هذه المدارس اللغوية، من مبادئ وأصول المدرسة أو المدارس التي سبقتها، فأبقت على بعضها، وعدلت وغيرت من بعضها، ولعل نعوم تشومسكي ونظريته اللغوية من الأمثلة الفريدة في تاريخ الفكر اللغوي الحديث والمعاصر، التي قامت بعملية مزج قوية بين أصول ومبادئ لغوية وآخرى غير لغوية، فلسفية ونفسية فسيولوچية واجتماعية ورياضية ومنطقية بحيث يمكن القول بأن هذه النظرية هي محصلة اطلاع واسع وعميق للفكر الإنساني اللغوي وغير اللغوي.

وقد انطلق تشومسكي من اعتقاده بأن الهدف الأول من دراسة اللغة الإنسانية هو معرفة طبيعة العقل البشري وكيف يعمل، وأن تركيب اللغة

= أن الرأي العام الأوربي والأمريكي عندما يتعاطف مع الوجود الصهيوني في فلسطين، يخلط الأسباب التاريخية الخاصة باليهود في أوروبا، بالأسباب التاريخية التي يراها اليهود في فلسطين، ففي أوروبا عاني اليهود من الاضطهاد النازي وغيره من ألوان الاضطهاد، أما في فلسطين، فَيدعي - بطبيعة الحال - أن لليهود حقاً ووجوداً تاريخياً في فلسطين، ويستند في ذلك إلى التوراة وينتهي إلى أن من حق العرب واليهود العيش معاً في سلام في فلسطين.

وقد أكسبته أراؤه السياسية، شهرة واسعة بين عامة المثقفين في العالم، وربما أكثر من أبحاثه اللغوية ونظريته التحويلية التوليدية.

يتحدد بتركيب العقل الإنسانى وأن وجود خصائص لغوية عامة universel تجمع كل الغات لهو دليل على أن هذا الجانب من الطبيعة البشرية واحد وعام عند جميع البشر، بغض النظر عن الأصل العراقى أو الطبقة الاجتماعية، أو الفروق العقلية أو الشخصية أو الطبيعية، وهو يعزو هذه الآراء إلى الفلاسفة واللغوين العقلانين أمثال ديكات، وهمبولدت، غير أن الجديد فى هذه الآراء يظهر فى الطريقة التى عالج بها تشومسكى هذه الآراء ومزج بينها بحيث بنى أنموذجاً model لغوياً فريداً لدراسة اللغة الإنسانية ووصفها.

ولذلك رأى تشومسكى، أن الأنموذج اللغوى الذى وضعته مدرسة بلومفيلد إنموذجاً يتعامل مع الإنسان كأنه حيوان أو آلة، عندما يقول إن الحدث اللغوى، ما هو إلا إستجابة لمثير، ومن ثم اكتفى بالتحليل اللغوى الآلى أو الشكلى ورصد العناصر اللغوية وسلوكها، وهو بهذا - أى بلومفيلد - أهدر وغفل عن قوى أعمق وأبعد أثراً، وراء انتاج الحدث اللغوى، تتمثل فى العقل من ناحية والقدرة الإبداعية Creativity للغة الإنسانية من ناحية أخرى، أى قدرة اللغة غير المحدودة التى تجعل أبناء اللغة Native Speaker الواحدة، قادرين على انتاج وفهم وتكوين عدد غير محدد من الجمل، لم يسمعوا بها قط من قبل، ولم ينطق بها أحد من قبل[١]

وهذه القدرة الإبداعية، قدرة ينفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات الحية، كما تنفرد بها اللغة الإنسانية عن غيرها من وسائل الاتصال عند الكائنات الحية الأخرى، لأن نظم الاتصال عند هذه الكائنات ليست لها هذه القدرة غير المحدودة التى تملكها اللغة الإنسانية، إذ أن معظم نظم الاتصال لدى هذه الكائنات، ذات قدرات محدودة، أو مغلقة، بمعنى أنها

---

(١) راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب علم اللغة النفسى. اللغة والطفل
وانظر أيضاً ترجمتنا لكتاب چون ليونز «نظريه تشومسكى اللغوية» الإسكندرية دار المعرفة الجامعية. ١٩٨٥م

لا تستطيع أن تنقل إلا عدداً ضئيلاً من الرسائل الغريزية ذات الدلالات الثابتة ، كما لا يستطيع الحيوان أن يُنوع فى بناء هذه الرسائل الغريزية، وهو يشبه فى ذلك، الرسائل البرقية، التى يرسلها الإنسان عن طريق شفرة لها دلالات ثابتة ومحددة ومعروفة سلفاً.

ومن ثم رأى تشومسكى أن استعمال مدرسة بلومفيلد لمصطلحات مثل: الاستجابة والمثير وغيرها من مصطلحات علم النفس السلوكى، وتطبيقها على اللغة، ما هو إلا نوع من الخداع، ومحاولة إضفاء الصبغة العلمية على دراسته للغة، لأن هذه المصطلحات، مصطلحات عامة وفضفاضية إلى حد كبير، وقد تصدق على أى شئ، وهى تتجاهل كلية علمية انتاج الجمل الجديدة التى لم يسمع بها المتكلم قط من قبل، وذلك بناء على أن اللغة عنده، عمل عقلى يرتبط بملكة فطرية Innate Property يختص بها الإنسان دون سائر الكائنات الأخرى.

وصدد هذا ينطلق تشومسكى، من قدرة الطفل فى سن الثالثة أو الرابعة على تكوين جمل صحيحة نحوياً لم يسمع بها قط من قبل، وهذه القدرة لا يمكن تفسيرها آلياً أو سلوكياً، وإنما تتمثل هذه القدرة فى اللغة الإنسانية، التى لا تحدها إرتباطات معينة، أو قوالب ثابتة، نتيجة لمؤثرات خارجة عنها، أو حالات فسيولوچية، ومن ثم فإن اللغة هى صورة للعقل البشرى، بإعتباره أداة صالحة لكى تتعامل وتتلاءم مع كل الحوادث، والاحتمالات.

ومعنى هذا - كما يقول - إن للإنسان قدرة عقلية تُعَدُّ نموذجاً فريداً لا يمكن أن يعزى إلى أشياء خارجة عنه، وأن هذه القدرة تتمثل فى هذا الجانب الخلاق أو الإبداعى من العقل البشرى والتى تعد اللغة الإنسانية من أبرز مظاهره(١)

ولذلك أخذ تشومسكى على بعض علماء اللغة خاصة مدرسة بلومفيلد

---

(١) انظر chomsky, Cartesian linguistics, PP. 3 - 5, PP. 60 - 63.

أنهم لا يلتفتون إلى هذا الجانب العقلى الإبداعى من اللغة، ووقفوا عند سطح الحدث اللغوى، يحللونه ويرصدون سلوك عناصره ووظائفها، ولذلك يَعُدُّ تشومسكى نفسه لغوياً عقلانياً، ويهتم من سبقوه من علماء اللغة بالمادية[1] ومن ثم كانت نظرته إلى اللغة وطبيعتها، مناقضة كلية للآراء أسلافه من علماء اللغة، ويظهر ذلك بوضوح من مفهوم اللغة عنده بأنها: «ملكة فطرية عند المتكلمين بلغة ما، لتكوين وفهم جمل نحوية» أو هى «جهاز توليد جميع الجمل الصحيحة فى لغة ما» وهو مفهوم يختلف تماماً عن التعريفات التى وضعها بعض علماء اللغة من القدماء أو المحدثين على السواء.[2]

والذى يلفت النظر فى هذا المفهوم للغة، أنه موجه بصورة أساسية إلى «الجمل» Sentences، أو التراكيب النحوية syntactic structure، لأنه كان يرى أن موقع النحو أو التركيب من اللغة بمثابة القلب من جسم الإنسان، ولذلك فإن مصطلح قواعد Grammar عنده، لا ينصرف إلى قواعد تركيب الجملة فحسب، وإنما يشمل أيضاً القواعد الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية معاً.

ومعنى هذا أن قواعد اللغة هى عبارة عن جهاز device كاملٍ، له القدرة على توليد generate الجمل الصحيحة نحوياً دون غيرها، ومعنى هذا أيضاً أن القواعد عنده ما هى إلا قواعد الجملة على أساس تجريدى abstract، ومن ثم فلا علاقة له بالصواب أو الخطأ بالمعنى المعيارى للنحو أو الاستعمال الواقعى للغة:

أما معنى «التوليد» generation عنده، فهو بالإضافة إلى دلالته على القدرة على أنتاج جمل جديدة، فإن هذا المصطلح يعنى أيضاً الدقة والوضوح، كما هى فى العلوم الرياضية.

ولكى يتضح لنا معنى «التوليد»، بالدقة الرياضية التى يقصدها تشومسكى، نأخذ مثلاً على ذلك، معادلة رياضية بسيطة مثل.

---

(١) انظر ذلك فى مواضع كثيرة من كتاب: chomsky. Language and Mind

(٢) راجع كتابنا مقدمه لدراسه علم اللغة ص ص ٢ ٢٦

س + ص - ع = ف

ثم نحاول الوصول إلى قيمة(ف) ،عن طريق التعويض بأعداد صحيحة، فسنجد أننا نستطيع توليد عدد من القيم لـ (ف) لا نهاية لها، إذا ما غيرنا فى كل مرة الأعداد التى نعوض بها فى الطرف (س + ص - ع) من هذه المعادلة.

هذه القدرة على التوليد، على هذا النحو من الدقة، هى التى تصورها تشومسكى، وهى التى تفسر أيضاً ما أشار إليه بمصطلح: «القدرة التحتية» underlying competence، التى تتمثل فى «البنية العميقة» Deep structure للكلام.

أما إذا حلّ شخص ما، المعادلة السابقة، وحصل على جواب خاطئ، فذلك مثل من أمثلة التصرف الفردى، وهو ما يشبه ما قد يحدث فى الكلام الفعلى، أو الاستخدام الواقعى للغة، أو ما أطلق عليه: الأداء الفعلى للغة actual linguistic Performance

وهذان المصطلحان: الأداء Performance والقدرة Competence هما حجرا الزاوية فى نظرية تشومسكى،أو نظرية «النحو التحويلى التوليدى» Transformational Generative Grammar (واختصاراً T. G. grammar)
لأن الأداء اللغوى، أى الجمل التى ينطق بها المتكلم فعلاً، تمثل السطح الذى يعكس، ما يجرى فى عمق التركيب من عمليات.

والذى دعاه إلى تجاوز الشكل السطحى للجملة، والنظر إلى التركيب العميق لها، اعتقاده أن هذا الشكل الخارجي، أو تلك الصورة السطحية، يمكن أن تكون خادعة، إذا ما نظرنا إلى المعنى الذى يمكن أن تؤديه بعض الجمل، إذ يمكن أن يكون لجملة ما أكثر من معنى، غير أن تركيبها السطحى لا ينبئ عن ذلك، مثال ذلك جملة مثل:

- ضَرَبْتُ زيداً ضاحكاً، وهى جملة غامضة لأنها تحتمل معنيين هما:

١ - ضربتُ زيداً وأنا أضحك (أى الحال من الفاعل)

٢ - ضربتُ زيداً وهو يضحك (أى الحال من المفعول)

ومعنى هذا، أن التركيب السطحى لمثل هذه الجملة مشتق من تركيبين عميقين مختلفين؛ أحدهما الحال فيها من الضمير فى (ضربت) أى (ضربت ضاحكاً زيداً)، الثانى الحال فيها من الأسم الظاهر (زيد) أى (ضربت زيد يضحك).

أما معنى «توليد جميع الجمل الصحيحة» فيعنى أن قواعد اللغة يجب أن تكون قادرة على توليد جميع الجمل الممكنة فى تلك اللغة، وبما أن عدد الجمل التى يمكن توليدها، عدد غير محدود من الناحية النظرية، كما رأينا فى المعادلة الرياضية السابقة، ونظراً لأن عدد القواعد فى أية لغة عدد محدود، إذن لا بد من وجود نوع من القواعد، التى يمكن تطبيقها المرة تلو المرة، بحيث يمكن توليد جمل إلى ما لا نهاية، وهذه القواعد تشبه عملية التعويض فى المعادلة الرياضية، فكلما عوضنا بقيم عددية جديدة، كانت النتيجة جديدة أيضاً، ولكن بناء المعادلة نفسه، لم يتغير أبداً، وقد أطلق تشومسكى على هذا النوع من القواعد، مصطلح «القواعد التحويلية» Transformational Rules.

وقد أشرت من قبل، أن مدرسة بلومفيلد أو مدرسة التحليل الشكلى، قد استبعدت المعنى من التحليل اللغوى، وكان هذا أحد المآخذ الرئيسية التى سُجلت، على هذه المدرسة، وهو ما فعله تشومسكى أيضاً فى بداية وضع النظرية، حينما أعطى المعنى مكاناً ثانوياً، وكان ذلك أثراً من آثار نظرية بلومفيلد، غير أن تشومسكى وبعض تلاميذه، سرعان ما تداركوا ذلك وأصبح المعنى جزءاً أساسياً من النظرية، وقد وردت الإشارة الأولى إلى المعنى عند تحليل الجمل بمجموعة القواعد التى أطلق عليها «قواعد أركان الجملة» "Grammar Phrase structure" وهذه القواعد قائمة على أساس كيفية اشتقاق الجملة وتكوينها من حيث المبنى والمعنى، وتُطبق هذه القواعد، بما أطلق عليه عملية «إعادة الكتابة» "Rewrite"، وهو يرمز إليها بالسهم (←)،أى أن ما قبل السهم يُعاد كتابته أو تحليله، بما بعده، وذلك لبيان العلاقة القائمة، بين العناصر المكونة للجملة.

مثال ذلك الجملة: (أكل الولد الطعام)

تطبق عليها: قواعد إعادة الكتابة أو التحليل حتى نصل إلى العناصر الأساسية المكونة لهذه الجملة أو السلسلة النهائية لها ممثلة فى المورفيمات بأنواعها المختلفة الحرة والمقيدة والصفرية، والسلسلة النهائية لهذه الجملة هى:

أكل + ال + ولد + ال + طعام.

كما نستطيع بواسطة هذه القواعد أن نُركب أكثر من جملة مثل:

١ - الولدُ أكَلَ الطَّعَامَ.

٢ - الطَّعامُ أكَلَهَ الوَلَدُ.

٣ - أُكِلَ الطَّعَامُ.

٤ - ما أكَلَ الوَلَدُ الطَّعامَ... الخ.

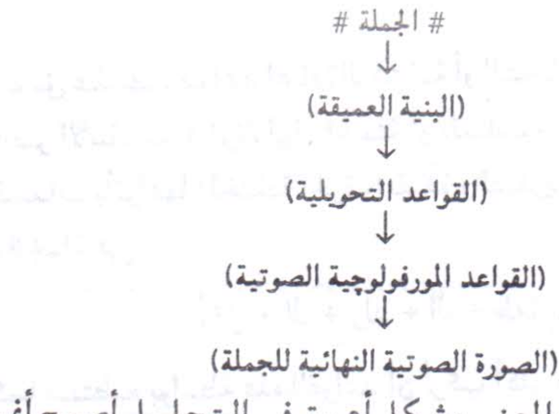
وهى صفة هامة من صفات القواعد اللغوية، أى القدرة على توليد جمال جديدة، بإضافة أو حذف عناصر لغوية، وهذه الإضافات أو المحذوفات أو التقديم والتأخير، أو غير ذلك، تخضع لقواعد التحويل التى نستطيع بواسطتها، تركيب جمل أخرى سطحية، تختلف عن الجمل الأولى كما رأينا فى المثال السابق.

وتُعَدُّ القواعد التحويلية هى الخطوة التالية لتحويل البنية العميقة للجملة إلى أكثر من جملة سطحية، وقد حصر تشومسكى هذه القواعد التحويلية فى عدد محدود من القواعد بعضها يطبق أجبارياً obligatory وبعضها يطبق اختيارياً Optional[1]

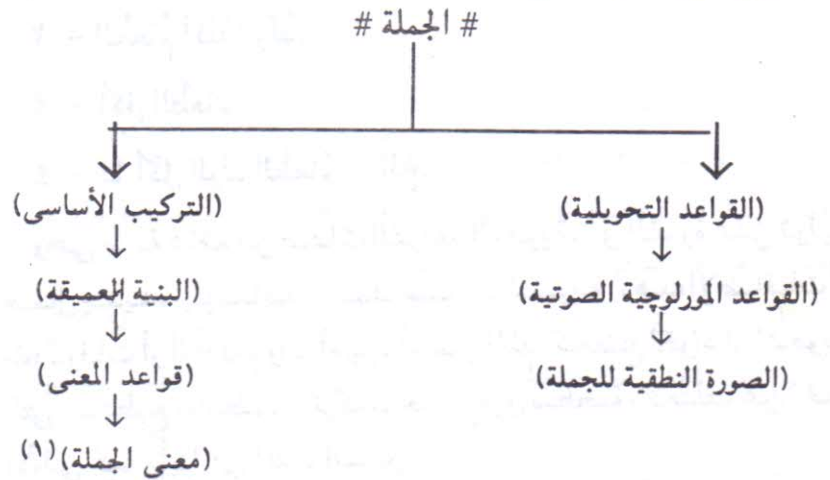
وبشكل عام كانت الصورة العامة لقواعد تحليل الجملة قبل اهتمام تشومسكى بالمعنى على النحو التالى:

---

(١) انظر نظرية تشومسكى اللغوية ص ١٣٥ - ١٣٦.
وانظر أيضاً محمد على الخولى، قواعد تحويلية للغة العربية ص ٣٧ - ٤١.



ولكن بعد إدخال المعنى بشكل أعمق فى التحليل أصبح أنموذج التحليل على النحو التالى:



وهكذا أصبحت العلاقة بين المعنى والبنية العميقة للجملة من جهة الصورة النطقية للجملة أكثر وضوحاً وترابطاً، كما أصبحت العلاقة بين الأنظمة اللغوية، الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية أكثر دقة، وبذلك أصبحت «قواعد اللغة» Grammar عند تشومسكى تعنى فى الواقع العلاقة بين الصوت والمعنى، أو ثنائية التركيب duality of structure .

ولعل أهم ما قدمته هذه المدرسة اللغوية، هو محاولة وضع هذه العلاقة

---

(١) انظر Crystal, Linguistics, PP. 229 - 230
وانظر أيضاً: نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية ص ٣٠٧.

فى صورة أنموذج Model مختلف تماماً عن النماذج الأخرى التى قدمتها المدارس اللغوية سواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة من حيث مزجه بين اللغة الإنسانية من حيث هى أداة فريدة للاتصال وما يرتبط بها من عمليات عقلية ومنطقية وفلسفية، ولعلنا قد لاحظنا من قبل كثيراً من هذه الجوانب التى تطرق إليها علماء اللغة قبل تشومسكى ومنذ دى سوسير، حتى ظهور هذه النظرية واستقرارها، بحيث أصبح من العسير على أى عالم فى اللغة أن يتجاهل هذه النظرية سواء وافق على ما جاء بها أو لم يوافق، حتى قيل إن أية نظرية لغوية لا يمكن أن تتجاهل نظرية تشومسكى، بل إن إنجاز أى نظرية أو مكانتها فى الدراسات اللغوية المعاصرة يتحدد بمدى صلتها بنظرية تشومسكى، قرباً أو بعداً، نقداً أو تعديلاً، ولذلك حظيت هذه النظرية بما لم تحظ به نظرية لغوية أخرى، من اهتمام العلماء الباحثين.

فظهرت نظريات أخرى وثيقة الصلة بها، بحيث أصبحت نظرية تشومسكى أو النظرية التحويلية التوليدية، ذات اتجاهات أو نظريات عدة طرحها عدد من علماء اللغة، بعضهم من تلاميذ تشومسكى وبعضهم من غير تلاميذه، وكان أغلب ما قدموه، إما إضافة أو تعديل للنظرية الأصلية وهو ما أطلق عليه بعض مؤرخى الفكر اللغوى: التطورات المعاصرة للمدارس التشومسكية فى علم اللغة[١].

ولعل التحدى الحقيقى لهذه النظرية،وربما لكثير من النظريات والمدارس اللغوية الحديثة والمعاصرة تتمثل فى «علم لغة النص»، أو «لسانيات النص» Text Linguistics،الذى ظهر فى السبعينيات من هذا القرن ومازالت نظرياته تتطور وتتغير حتى الآن، وقد استقى هذا العلم أصوله ومفاهيمه ومصطلحاته وطرق التحليل فيه من روافده عديدة بعضها من علم اللغة البنيوى Structural linguistics بنظرياته المختلفة التى عرضنا لها فيما سلف، وبعضها من نظرية تشومسكى والتطورات التى طرأت عليها.

---

(١) حول هذه التطورات انظر، جون ليونز، نظرية تشومسكى اللغوية ترجمة حلمى خليل ص ١٦٧ - ص ٢٠٥.

غير أن مما يلفت النظر فى تاريخ هذا العلم، أن البشارة الأولى به جاءت من عالم اللغة الأمريكى زيلج هارس Z. Harris، تلميذ بلومفيلد، وأستاذ تشومسكى، وكان ذلك حينما أشار «هارس» إلى ضرورة تحليل توزيع المورفيمات فى نص ما، طبقاً لعلاقة التعادل أو التكافوء بينها، وأطلق على هذا التحليل مصطلح «تحليل الخطاب» discourse Analysis وكان «هارس» يقصد بذلك أنَّ توزيع المورفيمات فى الجملة داخل نص يتألف من عدد من الجمل[١]، ومبدأ التوزيعية distributionalism مبدأ أصيل من مبادئ التحليل الشكلى فى نظرية بلومفيلد السلوكية كما رأينا من قبل.

ومعنى هذا أن علم لغة النص، أو اللسانيات النص، قد ولدت من تحليل الجملة Sentence، بل من التحليل الشكلى للجملة، التى عرَّفها بلومفيلد - أستاذ هارس -، بأنها الوحدة الكبرى للكلام التى يمكن تحليلها ووصفها، وكان تحليل الجملة ومفهومها وصورها التركيبية، هو مناط الدراسة اللغوية دائماً وأبداً، سواء عند علماء اللغة القدماء أو عند علماء اللغة المحدثتين والمعاصرين قبل ظهور علم لسانيات النص.

ومن هنا تأتى جدة هذا العلم وأصالته، حين تخلى عن الجملة من حيث هي الوحدة الأساسية للتحليل اللغوى، إلى النص Text، وكان أن طرح علماء لسانيات النص تساؤلاً على جانب كبير من الأهمية كما طرح علماء اللغة التقليدون - من قبل - السؤال نفسه عن الجملة، وأختلف الإجابة تعددت والمفاهيم حول الجملة وحدودها ومعاييرها اللغوية والتركيبية والدلالية.

وكان سؤال علماء لسانيات النص من هذا القبيل أيضاً، ما النص؟ وما المعايير التى يكون بها الكلام نصاً أو لا يكون؟

واختلفت الإجابات أيضاً وتعددت وتعارضت وغَمُض بعضُها، وكثرت

---

(٢) انظر De Beaugrand and Dressler, Introducation to Text linguistics, P 21.

المعايير التى تحدد ماهية النص، والنصية Textuality، أى ما يكون به الكلام نصاً.(١)

ولعل من أقرب تعريفات النص والنصية مثالاً، والمعايير المستخدمة فى ذلك،ما طرحه الباحثان «دى بيوجراند» De Beaugrand و«دريسلار» Dresslar، حينما عرّفا النص، بأنه عبارة عن حدث تواصلى "Communicative Occurence". أما المعايير التى لا يكون النص نصاً إلا بها، فهى سبعة معايير مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير، وهى:

١ - السبّك Cohesion ٢ - الحبك Coherence

٣ - القصد intentionality ٤ - القبول acceptability

٥ - الإعلامية informativity ٦ - المقامية Situationality

٧ - التناص intertextuality

ويمكن تصنيف هذه المعايير بالنظر إلى:

أولاً: ما يتصل بالنص فى ذاته text - Centered، ويختص بهما معيارا السبك والحبك.

ثانياً: ما يتصل باستعمال النص، من حيث موقف منشئ النص Producer,s attitude، أو متلقى النص receiver,s attitude، ويختص بهما معيارا القصد والقبول.

ثالثاً: ما يتصل بالمعلومات التى يقدمها النص وسياقه الاجتماعى والثقافى وعلاقته بالنصوص الأخرى المشابه، وهذه يختص بها معايير الإعلام والمقامية والتناص.(٢)

---

(١) حول الاختلاف على تعريف النص ومعاييره، انظر الفصل الثانى من كتاب سعيد حسن البحيرى، علم لغة النص، ص ٩٩ - ص ١١٦.

(٢) انظر De Beaugrand, and Dressler, OP. Cit, PP. 3 - 12.

وانظر أيضاً، سعيد مصلوح، بحث بعنوان «نحو أجر وميه للنص الشعرى؛ دراسة فى قصيدة جاهلية». مجلة فصول، المجلد العاشر الجزء الأول يوليو ١٩٩١ ص ١٥٣ - ص ١٥٥.

وعلماء النص يختلفون حول هذه المعايير، بل هناك نظريات عديدة حول وصف النص وتحليله،من حيث هو نظام يختلف عن نظام الجملة،ومع ذلك فالنص فى النهاية يتألف من الجمل؛ طال النص أو قصر، غير أن الجملة ذات وظيفة جزئية عند علماء النص، وهم يسعون إلى نظام النص كله.

ومعنى هذا أن النص هو وحدة متكاملة لا وجود للجزيئات فيه، إلا بمقدار صلتها بالكل، فالجملة فى النص لا تحلل، أو تفهم فى ذاتها، وإنما من خلال النص بأكمله.

وقد أفاد علماء النص إلى حد كبير من التراث اللغوى القديم والحديث والمعاصر ومن المدارس اللغوية التى عرضنا لها من قبل، من حيث التحليل الصوتى والصرفى والنحوى والدلالى والأسلوبى، ومع ذلك فقد وُضِعَتْ - كما أشرت من قبل - نظريات أو اتجاهات كثيرة فى تحليل النص، اختلفت باختلاف المبادئ ، والأصول والمصطلحات اللغوية التى استخدمتها مدارس علم لغة النص، حيث تتشابك فيها وتتداخل أبعاد أو مستويات غير لغوية.(١)

غير أننا نستطيع القول - بشكل عام - إن نظريات واتجاهات تحليل النص، على اختلاف مناهجها وأصولها، تتناول بصورة أو بأخرى المستويات الآتية:

١ - التحليل النحوى للنص.

٢ - التحليل الدلالى للنص.

٣ - التحليل المقامى للنص.

وغنى عن القول، إن هذه المحاور أو المستويات، متداخلة ومتشابكة بحيث يستطيع محلل النص أن ينتقل من مستوى إلى مستوى آخر، ولكن فى إطار الوحدة الكلية للنص، ويتوقف هذا التدرج فى المستويات عند التحليل،على النظرية التى يطبقها الدارس أو المحلل للنص،ورغم اختلاف

---

(١)حول نظريات تحليل النص،انظر سعيد حسن البحيرى،المرجع السابق ص١٨٥ وما بعدها.

النظريات، فإن التحليل النحوى للنص عند كثير من علماء النص أمر لا يمكن تجاوزه أو إغفاله. فيما اطلق عليه «نحو النص» Text grammar[1]

ولذلك احتل «السبك» Cohesion مكاناً علياً فى علم النص من حيث تحليل النص ورصد مظاهر الوحدة والتماسك فيه من حيث أنواع الجمل وأدوات الربط، والعطف، والتكرار، والفعل، والوصل، والحذف، والضمائر، الظاهر منها والمستتر، وكذا أسماء الإشارة والأسماء الموصولة، والأفعال وأزمنتها وغير ذلك، وكل ذلك يتصل بالعلامات اللغوية للنص، أو ظاهرة النص.

أما من حيث دلالة النص وتفسيره، فإن معيار «الحبك» Coherence يختص بتحليل معنى النص الذى يتجلى فى الترابط الدلالى لمعناه، من حيث المفاهيم، والتصورات التى يطرحها النص، ومدى ترابطها واطرادها فى صورة محكمة، وذلك من خلال الجمل والعبارات التى استخدمها المبدع أو منتج النص، ومن ناحية أخرى يتصل هذا التحليل الدلالى بالمتلقى، من حيث فهمه واستيعابه أو تأويله وتفسيره له.

أما من حيث التحليل المقامى للنص، وقد يطلقون عليه أحياناً التحليل التداولى Pragmatics، فهو يتناول سياقات النص الاجتماعية والثقافية، وكذا علاقته بالنصوص الأخرى، التى تشبهه، والمعلومات التى يقدمها، وتقبل المتلقى لها، والحكم عليها، وغير ذلك، وكل ذلك تستوعبه وتجليه معايير القبول والقصدية والإعلام والتناص.

تلك هى المعالم الكبرى لعلم لغة النص text ling uistics، وقد يطلق عليه أحياناً تحليل الخطاب discourse analysis، وهو علم رحب واسع تتسع مفاهيمه ومصطلحاته وطرق التحليل فيه إلى علوم أخرى، وهو مثال حى على مبدأ «تداخل العلوم» Interdisciplinary مثل بقية العلوم المعاصرة.

---

(١) انظر سعد مصلوح، «من نحو الجملة إلى نحو النص» بحث منشود فى كتاب فى ذكرى الأستاذ عبد السلام هارون الثانية، جامعة الكويت كلية الآداب، ١٩٨٩/ ١٩٩٠م.

فصنع قنبلة ذرية أو استخدام الطاقة الذرية فى الأغراض السليمة، أو صنع سفينة فضاء وإطلاقها، أو تصميم الحاسب الآلى وعمله، كل ذلك يقتضى «فريق عمل» Tem work من العلماء والفنيين، حيث تتضافر جهود عدد من العلماء والمتخصصين فى علوم مختلفة، ولذلك يرى كثير من العلماء، أن أهم ما يميز العلم فى القرن العشرين هو مبدأ «تداخل العلوم» واتصال بعضها ببعض، أو بعبارة أخرى إن أية ظاهرة تستحق الدراسة العلمية، لا بد من النظر إليها من عدة زوايا نظرية وتطبيقية وفلسفية ورياضية واجتماعية واقتصادية وإنسانية.

ولعلنا قد رأينا من خلال هذا العرض العام لعلم اللغة النظرى أو اللسانيات النظرية، أن هذا العلم على مدى أكثر من نصف قرن لم يعد علماً واحداً بل هو «علوم» من ناحية، و«نظريات» كثيرة من ناحية أخرى ومعنى هذا أن ما يطلق عليه، «علم اللغة» أو «اللسانيات» ليس علماً إحادى النظرة والاتجاه، أو أنه يتمتع بنوع من التجانس وهذا غير صحيح، فهناك نظريات لغوية مختلفة ذات أصول متداخلة أحياناً ومتعارضة أحياناً أخرى ولعله مرد ذلك إلى أن اللغة الإنسانية ظاهرة شديدة التعقيد لأنها تتصل بجوانب مادية طبيعية وفسيولوجية واجتماعية ونفسية وعقلية وسلوكية، فضلاً عن اللغة ذاتها، من حيث هى أصوات إنسانية، وكلمات وجمل وعبارات ونصوص منطوقة، أو مكتوبة تتنوع تنوعاً يصعب حصره، ثم الفروق بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة، ولذلك احتاجت هذه الظاهرة الفريدة، إلى تضافر علوم مختلفة، كل علم فيها يحاول النظر إلى اللغة من زاوية ما، طبقاً لوجهة نظر ما، لعله يصل إلى دراستها ووصفها وصفاً علمياً موضوعياً، حتى قيل إن كل هذا التنوع فى العلوم والنظريات التى تدرس اللغة، هى فى الحقيقة للاجابة على سؤال واحد هو: ما اللغة؟!

مع ذلك فإن علم اللغة أو اللسانيات خلال أكثر من نصف قرن قد استقر على «علوم» تدرس جوانب أساسية من اللغة أطلق عليها «علم اللغة العام» general linguistics أو علم اللغة النظرى Theoretical Linguistics، حيث

يطبق علماء اللغة مناهج مختلفة فى دراستها تاريخية ومقارنة ووصفية وتقابلية وتسعى هذه الدراسات إلى وضع أصول عامة لدراسة اللغة الإنسانية.

وهذه «العلوم» تتمثل فيما يأتى:

أولاً: علم الأصوات Phonetics

يدرس الظواهر المختلفة للصوت الإنسانى، وذلك بتحليل ودراسة الخصائص الصوتية المتنوعة التى يتألف منها النظام الصوتى للغة، ودراستها دراسة علمية موضوعية، ثم ما لبث أن اتصل هذا العلم بالعلوم الطبيعية الأخرى، عندما شرع علماء الأصوات فى استخدام الآلات، مثل «الاسبكتروجراف» spectrograph وغيره من الآلات فى تحليل الصوت وقياسه، ومن ثم أصبح علم الأصوات «علوم» منها:

١ - علم الأصوات الفسيولوجى Physiological Phonetics

وهو علم يدرس جهاز النطق الإنسانى، كما يتمثل فى أعضاء النطق ابتداءً من الحجاب مروراً بالرئتين والقصبة الهوائية والحنجرة والوترين الصوتيين، والحلق والتجويف الفموى واللسان والأسنان حتى الشفتين.

٢ - علم الأصوات الأكوستيكى Acoustic Phonetics،

أو علم الأصوات الفيزيائى Physical Phonetics

وهذا العلم يدرس ويحلل انتقال الصوت فى الهواء، من فم المتكلم إلى أذن السامع، من حيث الموجات الصوتية وطولها وترددها والذبذبة والعوامل المؤثرة فى ذلك، وقد استُغلت نتائج هذا العلم فى تخليق الكلام صناعياً Speech synthesis.

٢ - علم الأصوات السمعى Auditory Phonetics

وهو يدرس الجهاز السمعى «الأذن» من حيث تشريحها وما يحدث فيها عند استقبال الكلام وإدراكه وعلاقة ذلك بالمخ، وما يحدث فيه من فك الشفرة الصوتية وإدراك الكلام.

ثم أصبحت دراسة الكلام سواء من حيث انتاجه أو استقباله بما له من صلة بعمل المخ الإنسانى علماً مستقلاً هو علم اللغة الإدراكى أو العصبى Neurological Lingistics.

٤ - علم الأصوات التجريبى Experimeutal Phonetics

ويدرس خصائص الأصوات اللغوية باستخدام الأجهزة والآلات الإلكترونية الحديثة، وقد يطلق على هذا العلم علم الأصوات الآلى Instrumental Phonetics، أو علم الأصوات المعملى Laboratory Phonetics.

ثانياً: علم الفونيمات Phonology

وهو الشق الثانى من علم الأصوات، فإذا كان علم الأصوات يدرس الأصوات فى ذاتها وبغض النظر عن وظيفتها فى الكلام وصلتها بالمعنى، فإن علم الفنولوچيا يدرس وظيفة الأصوات اللغوية وصلتها بالمعنى، من حيث علاقة الصوت بما قبله وبما بعده، والملامح المميزة لكل صوت داخل التركيب، والوحدة التى يستخدمها فى التحليل هى: الفونيم Phoneme الذى قامت عليه نظرية كاملة كما رأينا من قبل، ويرمز له فى التحليل بخطين مائلين//.

ثالثاً: علم الصرف Morphology.

أو بمعنى أدق «علم المورفيمات»، ويدرس أنواع المورفيمات من حيث هى وحدات لها دلالة معنوية أو صرفية أو نحوية، ووظائف كل نوع منها، وقد يدخل فى إطاره «علم الصرف» بالمفهوم التقليدى ويستخدم هذا العلم وحده أساسية فى التحليل هى المورفيم Morpheme، ويرمز له فى التحليل بالقوسين: { }.

رابعاً: علم النحو أو علم النظم Syntax

ويدرس التراكيب اللغوية أو الجمل والعبارات من حيث قوانين نظم الكلمات وأنواع الجمل، والعلاقات التركيبية بين مكونات الجمل، ووضع النظريات المختلفة حول ذلك، ويطلق عليه أحياناً علم القواعد Grammar

بعد إضافة علم الصرف إليه ويمثل علماً محورياً وأساسياً من علوم اللغة، أو كما يُقال هو قلب علم اللغة.

خامساً: علم الدلالة Semantics

وهو علم يدرس الطبيعة الرمزية للعلامة اللغوية أو الكلمة ويحلل الدلالة في المفردات والتراكيب، وتطور الدلالة وتغيرها وتنوعها والعلاقات الدلالية بين الكلمات مثل الترادف والمشترك اللفظى والتضاد وفى تحليل الدلالة يستخدم أحياناً وحده دلالية هى السيميم Sememe وقد انبثق من هذا العلم فروع أخرى مثل:

(أ) علم المفردات Vocabulary

وهو علم يدرس حركية الثروة اللفظية، كما تتمثل فى المفردات من حيث مقدارها وتنوعها، وعدد الكلمات التى تستخدم فى مجال معين، والكلمات المقترضة بين اللغات، والكلمات النشطة التى يستخدمها المتكلم بلغة معينة، والكلمات الخاملة، وغير ذلك مما يتصل بالمفردات.

(ب) علم المعاجم النظرى Lexicology

وهو يدرس الدلالة المعجمية للكلمات من حيث طبيعتها وكيف تتكون وتتطور ومحور اهتمامه الكلمة كما يفهمها علماء المعاجم، ولذلك فهو يتداخل أحياناً مع علم الدلالة، وقد أصبحت لهذا العلم الآن أصول نظرية تفرقه عن علم الدلالة فيما يطلق عليه« نظرية المعجم »أو« نظرية المفردات ».

تلك هى فروع علم اللغة الأساسية التى يتفق معظم علماء اللغة على أنها تمثل أساسيات هذا العلم ومنطلقاته الأولى التى لا بد أن تأخذ فى الحسبان عند الدراسة النظرية، أو حتى فى وضع إية نظرية لغوية تتسم بالموضوعية والتعميم.

غير أن التطور الحديث والمعاصر لدراسة اللغة، وانطلاقاً من هذه الأصول النظرية، ظهرت علوم لغوية تُعَدُّ من علوم اللغة النظرية مثل:

١ - علم اللغة الرياضى Mathematical Linguistics

وهو علم يقوم بتحليل المادة الغوية، باستخدام أساليب العلوم الرياضية والإحصائية، ومن الفروع المتصلة بهذا العلم نجد:

(أ) علم اللغة الجبرى Algebraic Linguistics

(ب) علم اللغة الحسابى Computational Linguistics

(جـ) علم اللغة الكمّى Quantitative Linguistics

(د) علم اللغة الإحصائى Statistical Linguistics

ومعظم هذه العلوم تستخدم الآن «الحاسوب» أو الحاسب الآلى فى التحليل والتصنيف والعدّ.

٢ - علم الجرافيمات (الكتابة) Graphemics

ويدرس هذا العلم اللغة المكتوبة، من حيث نظم الكتابة فى اللغات المختلفة، والقواعد المستخدمة فى التعبير الخطى عن الكلام المنطوق وذلك لبيان الفروق بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، وهو يستخدم وحده فى التحليل يطلق عليها «الجرافيم» Grapheme، وهى وحدة تقابل الفونيم Phoneme على مستوى اللغة المنطوقة.

٣ - علم الحركة الجسمية Kinemics

وهو علم يدرس الحركات الجسمية المصاحبة للكلام، من حيث وضعها وترتيبها، وقد تسد مسد الكلام أحياناً، ولها دلالات محددة لدى جماعات لغوية معينة، وهذه الحركات قد تكون بالرأس أو اليد أو العين، أو غير ذلك من أعضاء الجسم، وأحياناً تكون بالجسم كله، وهى تتوزع حسب المواقف المختلفة، ويستخدم هذا العلم وحده تحليلية، يُطلق عليها «الكينيم» Kineme وهى تدل على الحركة المجردة من حركات الجسم، ويستعين هذا العلم بالرسم والتصوير لتحديد الحركات المصاحبة للكلام.

أما من حيث دراسة اللغة من وجهة نظر منهجية معينة فهناك علوم لغوية تُصنف من علم اللغة النظرى طبقاً للمنهج الذى تستخدمه فى دراسة اللغة وهى:

١ - علم اللغة التاريخى Historical Linguistics

ويدرس مظاهر التغير اللغوى فى فترات زمنية متعاقبة Diachronic على المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ومعنى هذا أن

هناك علم الأصوات التاريخى، وعلم الصرف التاريخى، وعلم النحو التاريخى، وعلم الدلالة التاريخى، وأهم ما يسفر عنه هذا العلم من نتائج يتمثل فى القوانين العامة التى تحكم التغير اللغوى على هذه المستويات المختلفة، وكل ذلك بالنظر إلى لغة معينة، أو عدة لغات.

٢ - علم اللغة المقارن Comparative Linguistics

ويختص بدراسة الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ودراسة مقارنة بين عدد من اللغات، التى تنتمى إلى أصل واحد، أو عائلة لغوية واحدة، ومعنى هذا أيضاً أن هناك فروعاً لهذا العلم على المستويات اللغوية المختلفة، الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، إذ من النادر الآن، أن يدرس عالم واحد كل هذه الظواهر دفعة واحدة وإنما الشائع التخصص فى دراسة مستوى من هذه المستويات، وبناء على هذه الدراسات المقارنة، يمكن استخلاص بعض أوجه الشبه بين اللغات المنحدرة من أصل واحد، أو بناء اللغة الأم.

٣ - علم اللغة الوصفى Descriptive Linguistics

ويدرس اللغة كما هى مستعملة فى زمان معين ومكان محدد synchronic، أى يدرس حالة من حالات اللغة وهى ثابتة static، وذلك على المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، أو على مستوى واحد منها، وهو بهذا المعنى يقابل علم اللغة التاريخى، وهى التفرقة التى وضعها دى سوسير، وأشرنا إليها من قبل.

٤ - علم اللغة التقابلى contrastive Linguistics

ويدرس أوجه الشبه، أو الاختلاف بين لغتين أو لهجتين مختلفتين مثل العربية أو الانجليزية، أو اللهجة اللبنانية واللهجة المصرية أو السورية وذلك على المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية.

٥ - علم اللهجات Dialectology

وهو علم يدرس خصائص اللهجات فى اللغة الواحدة، كما تظهر فى الفروق الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وخصائص كل لهجة.

ومن أحدث علوم اللغة ما يسمى:

علم اللغة الشمولى **Universal Linguistics**

وهو يدرس اللغات المختلفة؛ صوتياً وصرفياً ونحوياً ودلالياً، للوصول إلى القواعد والأصول العامة التى تشترك فيها اللغات الإنسانية، بغض النظر عن القواعد الخاصة التى تنفرد بها كل لغة، أو كل مجموعة أو عائلة لغوية.

ومعنى وجود هذه الفروع المختلفة لما يسمى بعلم اللغة النظرى أو اللسانيات النظرية أن هناك بالضرورة علم لغة تطبيقى Applied Linguis-tics، وهذا صحيح بشكل عام، غير أن التفرقة الحاسمة بين ما هو نظرى، وما هو تطبيقى فى دراسة اللغة، أمر قد يحيط به بعض الشك، لوجود مصطلح «علم» فى علوم اللغة التطبيقية، وهو ما سنخصص له الفصل الثانى من هذا الكتاب.

مصادر ومراجع الفصل الأول

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

١- الكتب

حلمى خليل (د). مقدمة لدراسة علم اللغة. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م

مقدمة لدراسة فقه اللغة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣م

سعيد حسن البحيرى (د). علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ط. أولى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م

طاهر حمودة (د). دراسة المعنى عند الأصوليين بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٨م.

ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله شرح ابن عقيل على الألفية، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد مصر، مطبعة السعادة، ط. خامسة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م.

ليونز، جون نظرية تشومسكى اللغوية، ترجمة وتعليق حلمى خليل الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م

محمود السعران (د).علم اللغة مقدمة للقارئ العربى الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٦٢.

اللغة والمجتمع: رأى ومنهج الإسكندرية، دار المعارف، ط. ثانية ١٩٦٣.

٢- الدوريات

سعد مصلوح (د) من نحو الجملة إلى نحو النص.
بحث منشور فى الكتاب التذكارى للأستاذ عبد السلام هارون جامعة الكويت - كلية الآداب، ٨٩ / ١٩٩٠.

سعد مصلوح (د) نحو أجروميه للنص الشعرى.مجلة فصول، المجلد العاشر، الجزء الأول يوليو ١٩٩١م

عبد الرحمن الحاج صالح مدخل إلى علم اللسان ، مجلة اللسانيات، الجزائر، المجلد الأول العدد الأول ،١٩٧١م المجلد الثانى العدد الأول، ١٩٧٢م

ثانيا : المراجع الأجنبية :

Beaugrand and Dressle Introducation To Text Linguistics Longman, London, 1981.

Bloomfield, L. Language, London, 1950.

Chomsky, N. cartesian linguistics New York, 1960.

Chomsky, N. Langage and Mind New York, 1972.

Crystal, D Linguistics Penguin Books, London, 1974.

De Saussre, F. Coures in General Linguistics. Peter owen, London, 1974.

Ducrot and Todrov. Encyclpedic Dict. of sciences of Language Translated by Catherine Porter Blackwell, Oxford, 1981.

Firth, J. R. Paper in Linguistics Oxford Univ. Press, London, 1957.

Ivie, Milka. Trends in Linguistics. Mouton, Paris, 1970.

Lyons, John. Semantics. Cambridg Univ. Press Tow vols, 1977.

O'connor, J. D. Phonetics. Pelican Books, London, 1973.

Robins, R. H. A short History of Linguistics Longman, London, 1967.

Sapir, E. Language New York, 1949.

Trubetzkoy, N. S. Principals of Phonology. California Univ. Press, 1969.

الفصل الثاني

اللسانيات التطبيقية

يدل مصطلح «علم» على مجموعة من الإجراءات والأساليب، التي يعتمد عليها أي عالم أو باحث لدراسة ظاهرة ما، وبعض هذه الإجراءات والأساليب «حسي»، وبعضها «عقلي».

وتتمثل الإجراءات والأساليب الحسية في الملاحظات المباشرة التي يقوم بها أحد العلماء أو الباحثين حول ظاهرة ما، أو في التجارب التي يقوم بها للتحقق من الفروض التي أقامها بناءً على هذه الملاحظات والتجارب.

أما الجانب العقلي فيتمثل في القوانين التي يستنبطها من هذه الملاحظات والتجارب، بحيث تكوّن قواعد عامة تحكم وتفسر حقيقة الظاهرة موضوع الدراسة،وما يرتبط بها، أو يتفرع عنها من ظواهر أخرى.

ولعل هذا الجانب العقلي من مفهوم «العلم» يأتي في المرتبة الأولى قبل الإجراءات والأساليب الحسية، رغم أهميتها، خاصة في عصرنا هذا، إذ يستخدم العلماء الآن آلات وأجهزة علمية متطورة في إجراء التجارب ورصد الملاحظات بدقة متناهية، يُعزى إليها الطفرة العلمية التي حدثت في العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن.

أما الجانب العقلي، فيتمثل في عمليتي التجريد والتعميم، وهاتان الكلمتان تشيران، في الحقيقة، إلى لب المنهج العلمي في دراسة ظاهرة ما، والتجريد كما هو ظاهر من المعنى المباشر للكلمة هو خلع الصفات الجزئية التي تتصف بها الأشياء والظواهر.

فمثلاً هذا القلم الذي أكتب به الآن، هو قلمي الخاص، الذي أستطيع أن أميزه عن سائر الأقلام الأخرى، بعلامات خاصة وفردية أعرفها، فهو

من هذه الناحية، شئ محدد ومعلوم له فرديته وخصوصيته، ولكن قلمى هذا، ليس أول الأقلام، ولا آخر الأقلام بل هناك أقلام غيره كثيرة، كانت وكائنة وسوف تكون، وهى إن اختلفت ألوانها، وأحجامها وطرائق صنعها، فيها جانب عام تشترك فيه، وإلا فما يصح لنا أن نطلق عليها اسم واحد هو «القلم».

فإذا بلغنا الدرجة التى نطلق عليها هذا الأسم العام، رغم أوجه الأختلاف التى تميز بعضها، فلا بد أن نكون عندئذ قد طرحنا بعقولنا عدداً كبيراً من أصفاتها الجزئية، التى كانت تختلف فيها، ويتميز بها قلم عن قلم آخر؛ طرحنامثلاً، صفات اللون والحجم وطريقة الصنع، فى الوقت الذى نظرنا إلى المهمة أو الوظيفة التى يؤديها القلم، وهى المهمة التى تشترك فيها جميع الأقلام وهى الكتابة.

وبذلك نكون قد أبتعدنا عن الواقع الحسى، لأن هذا الواقع ليس فيه إلا الأفراد المختلفة التى ندركها بحواسنا من خلال هذه الصفات الجزئية الفردية، أما فكرة «الكتابة» التى تشترك فيها جميع الأقلام فقد أدركناها بالعقل لا الحواس وهى فكرة عامة.

هذا هو مفهوم التجريد والتعميم، الذى إذا ما دخلنا مجال التفكير العلمى كان شرطاً فى كل فكرة علمية، فالمعرفة الجزئية وحدها لا تكوّن علمًا، لأن المعرفة الجزئية، المعزولة عن سواها، لا تكون من قبل القوانين العلمية العامة، التى تشملها وتشمل غيرها من بنات جنسها.

ولعلنا قد لاحظنا كلمتى «المعرفة» و«العلم» حينما قلت أن المعرفة الجزئية وحدها لا تكوّن علماً، مما يبين لك أن المعرفة بالأشياء والظواهر، أوسع من العلم الخاص بها، فليس كل ما نعرفه هو من قبيل العلم والعلوم.(١)

ففى مجال اللغة مثلاً، قد نعرف خصائص معينة تميز لغة عن لغة،

---

(١) راجع، زكى نجيب محمود، أسس التفكير العلمى.

كالخصائص التى تميز اللغة العربية عن اللغة الانجليزية ولكن هذا ليس هو المقصود بالعلمية فى علم اللغة أو اللسانيات Linguistics، وكذلك فى سائر العلوم الأخرى، لأن العلم يجرد المعارف الجزئية من خصائصها الفردية، ليصل إلى فكرة عامة تشملها جميعاً، كأن تبحث مثلاً عن طبيعة العلاقة،أو القوانين العامة التى تحكم العلاقات التركيبية أو الدلالية أو غيرها من العلاقات فى اللغة الإنسانية، وهنا تصبح الفكرة علمية، مادامت قد استندت إلى ركائز من معارف جزئية أدركناها إدراكاً صحيحاً ،مثل معرفة الخصائص الفريدة لكل لغة من اللغات.

والفكرة المجردة عن اللغات لا تصدق على لغة واحدة، وإنما تصدق على مجموعة من اللغات، وأقول « مجموعة » ولا أقول « كل » ، لأن الاستقراء الناقص هو الذى تثبت به القوانين العلمية، أما الاستقراء الكامل لجميع اللغات فمستحيل.

ومعنى هذا أن الدراسة العلمية للغة، ليست هى المعرفة بخصائص لغة معينة، أى ليست دراسة للغة فردية، وإنما هى دراسة الظاهرة الإنسانية، المعروفة فى المجتمعات البشرية باسم اللغة، بغض النظر عن كونها لغة قوم بعينهم، لها خصائصها الفردية التى تميزها عن سائر اللغات.

وواضح أن الهدف من وراء هذه الدراسة العلمية للغة، هى الوصول إلى القوانين العامة التى تجرى عليها اللغات، وتصدُق عليها جميعاً، بغض النظر عن خصائصها الفردية، التى تميزها عن غيرها ، فنقول هذه لغة عربية، أو إنجليزية، أو فرنسية، أو غير ذلك.

هذه الدراسة العلمية هى دراسة وصفية فى ضوء نظرية لغوية معينة، وهى لا تسعى مثلاً إلى أهداف عملية أو تطبيقية مثل تعليم اللغة أو تطويرها أو تعديل جوانب منها ، أو تحليل الأخطاء التى يقع فيها المتكلم أو الكاتب، أو غير ذلك من أهداف تربوية أو عملية أو معيارية وإنما هذه الدراسة العلمية -كما قال دى سوسير-، وأشرنا إليه تفصيلاً فى الفصل الأول من هذا الكتاب، هى دراسة اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها.

هذا هو الفرق الحاسم بين الدراسات اللغوية التقليدية والدراسات اللغوية الحديثة والمعاصرة، وغنى عن القول إن أغلب الدراسات اللغوية التقليدية، كانت دراسات تصب اهتمامها على دراسة لغة معينة، لأهداف غير الدراسة فى ذاتها أحياناً،مثل تعليم اللغة،أو معرفة الصواب والخطأ، أو لفهم نص دينى، إلى غير ذلك من الأهداف العملية المعيارية التى استبعدتها النظرية اللغوية الحديثة والمعاصرة من دراسة اللغة، أو بمعنى أدق استبعدها علم اللغة النظرى من اهتمامه،كما رأينا فى الفصل الأول.

غير أنه من الحق أن نقول أيضاً إنه لولا هذه الدراسات التقليدية للغات بعينها، التى قام بها علماء اللغة التقليديون، فى الشرق والغرب على السواء، ما استطاع علم اللغة الحديث أن يضع أسس الدراسة العلمية للغة، فهو - بلا شك - مدين لجهود هؤلاء العلماء الذين توافروا على دراسة لغاتهم بهمة لا تعرف الكلل، وبشغف منقطع النظير، كما فعل علماء العربية القدماء.

ولذلك فإن علماء اللغة الآن، يكادون يجمعون على أن المقصود بعلم اللغة أو اللسانيات Linguistics هو «الدراسة العلمية للغة» بالمعنى الذى أشرنا إليه هنا[1]

وهذه الصفة للعلم بعامة وعلم اللغة أو اللسانيات خاصة، لا تصدق على ما أُطلق عليه - منذ منتصف هذا القرن حوالى ١٩٥٠ - علم اللغة التطبيقى Applied linguistics، إذ لا تنطبق عليه صفات العلم بالمفهوم الذى أشرنا إليه، وإنما تنطبق هذه الصفات، على علم اللغة النظرى Theoretical linguistics، أو علم اللغة العام Genral Linguistics كما عرضنا له فى الفصل الأول من هذا الكتاب.

يضاف إلى ذلك، أن الدراسة العلمية للغة، غالباً ما تنتهى إلى وضع نظرية لغوية Linguistic Theory حول اللغة،وقد رأينا،كيف تعددت النظريات اللغوية، واختلفت، غير أنها جميعاً نظريات علمية، لأنها تتصف بصفة

---

(١) راجع crystal, D, Linguistics, P. 11.

العموم والتجريد ،إذ أن نتائجها لا تخص لغة بعينها من اللغات الإنسانية، وإنما يقع الاختلاف بين النظريات اللغوية، طبقاً لوجهة النظر التى ينظر بها عالم اللغة، ومن ثمَّ تختلف النظرية وطرق التحليل والمصطلحات.

وعلم اللغة التطبيقى، أو اللسانيات التطبيقية ليست كذلك، إذ ليس له نظرية معينة تصف اللغة أو تحللها، ولعل ذلك يبدو واضحاً من كلمة «تطبيق» Applid التى تقابل مصطلح «نظرية» Theory فى علم اللغة النظرى، ومعنى هذا أن كلمة «تطبيقى» توحى إلى أن هذا العلم لا يسعى إلى دراسة اللغة فى ذاتها، ومن أجل ذاتها، وإنما يسعى إلى أهداف عملية نفعية، شأنه فى ذلك شأن جميع العلوم التطبيقية التى تتوجه إلى أهداف خارج الحدود الحقيقية للعلوم، وهو ما يصدق على علم اللغة التطبيقى، حتى إن بعض علماء اللغة يرفضون انتماء هذا العلم إلى ميدانهم، بل يسخر بعضهم من كونه علماً، ويراه بعضهم، ميداناً غائماً، وغير دقيق. بل يستنكرون التسمية نفسها.

وفى مقابل هذا، يرى بعض علماء اللغة، أن علم اللغة التطبيقى، هو علم «مستقل» فى ذاته، له إطاره المعرفى الخاص، وله منهج ينبع من «داخله»، ومن ثمَّ فهو فى حاجة إلى نظرية مستقلة عن العلوم الآخرى غير أن الاتجاه الغالب بين علماء اللغة، يرى أن علم اللغة التطبيقى هو علم «وسيط» يمثل «جسراً» يربط العلوم التى تعالج النشاط اللغوى الإنسانى مثل علوم اللغة والنفس والاجتماع والتربية، ومعنى هذا أن هذا العلم يستندَ فى الحقيقة إلى الأسس العلمية النظرية لهذه العلوم[(١)]

فإذا صحَّ ذلك، فإن علم اللغة التطبيقى يمتاز - فقط - بأساليب وإجراءات عملية، لحل مشكلات معينة، ذات صلة باللغة، وقد يدل على ذلك، أن علم اللغة النفسى Psycholinguistics مثلاً، يُعَدُّ من علوم علم اللغة التطبيقى، كما سنرى فيما بعد - غير أن هذا العلم، أعنى علم اللغة النفسى، له - بلاشك - أصول نظرية من علم النفس Psychology

---

(١) راجع، عبده الراجحى، علم اللغة التطبيقى وتعليم اللغة العربية، ص ١١- ١٢.

وعلم اللغة Linguistics ولذلك ظهر مصطلح «علم اللغة النفسى التطبيقى» Applied Psycholinguistics، للإشارة إلى الجانب التطبيقى منه فحسب[1] ويؤكد ذلك أن كثيراً من معاجم «مصطلحات علم اللغة»، تعرّف مصطلح «علم اللغة التطبيقى» بأنه عبارة عن: استخدام منهج النظريات اللغوية ونتائجها، فى حل بعض المشكلات ذات الصلة باللغة، وذلك فى ميادين غير لغوية، وحقل هذا العلم حقل شديد الأتساع extremely wide! يضم؛ تعليم اللغات الأجنبية، وتعليم اللغة الوطنية native language، وأمراض الكلام، والترجمة، وفن صناعة المعاجم، والأسلوبية وتعليم القراءة وغير ذلك[2]

فى حين تُعرف بعض المعاجم الأخرى، هذا العلم بقولها:

«علم اللغة التطبيقى»، مصطلح جامع collective term، يدل على تطبيقات متنوعة لعلوم اللغة، فى ميادين عملية، ويستغل العلوم اللغوية فى حل مشكلات عملية Practical ذات صلة باللغة، مثل: تعليم اللغة، واكتسابها، سواء كانت اللغة الأم، أو لغة أجنبية، ولذلك فإن بعض علماء اللغة لا يستخدمون هذا المصطلح إلا فى الإشارة إلى الجانب التعليمى Pedagogical فقط.

ومن فروع علم اللغة التطبيقى الأخرى، فن صناعة المعاجم والترجمة وأمراض الكلام وعلاجها، وتتسع دائرته أحياناً فيضم، علم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة النفسى وعلم اللغة البيولوچى، وعلم الأسلوب وعلم اللغة الحسابى ونظرية المعلومات»[3]

ومعنى هذا أننا أمام «علم» ليس له موضوع محدد أو «نظرية» محددة، وإنما هو «تطبيق» لما توصل إليه علم اللغة النظرى أو اللسانيات النظرية من نتائج وأساليب فى تحليل اللغة ودراستها على ميدان غير لغوى

---

(١) راجع، رمزى منير البعلبكى، معجم المصطلحات اللغوية، ص ٢٨٨.

(٢) انظر crystal, D. An Encyclopedic dictionary of lang, and langs., P. 24.

(٣) انظر Hartman and stork, dictionary of Lang. and Ling., P. 17.

non - linguistics ومعنى هذا أيضاً أن علم اللغة التطبيقى بهذا المعنى، ما هو إلا وسيلة لغاية معينة أكثر منه غاية فى ذاته، بعكس علم اللغة النظرى،الذى يدرس اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها ،ولذلك تعددت موضوعات وفروع علم اللغة التطبيقى، بتعدد مجالات التطبيق وتنوعها.

ومما يدل على أن هذا العلم ليس إلا وسيلة لغاية معينة أن مصطلح «علم اللغة التطبيقى» عند بداية ظهوره، كان يستعمل مرادفاً لتعليم اللغات الأجنبية، ثم لتعليم اللغات الوطنية native languages.

وصدد هذا، نجد أن معلم أية لغة، قد لا يستطيع أن يعلم هذه اللغة، دون أن يعرف - أولاً - بعض الحقائق العلمية حول اللغة الإنسانية بشكل عام، واللغة التى يعلمها خاصة، وذلك فى إطار نظرية أو نظريات لغوية معينة.

ولاشك أن علم اللغة النظرى، هو المصدر الذى يستطيع أن يمده بهذه الحقائق العلمية، على الأقل من النواحى الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية،ناهيك عن علاقة اللغة باللهجة وأثر ذلك فى تعلم اللغة الأجنبية، أو اللغة الوطنية الفصحى وغير ذلك من الحقائق العلمية حول اللغة.

وانطلاقاً من هذه الحقائق العلمية حول اللغة، وفى إطار نظرية لغوية معينة، يبدأ علم اللغة التطبيقى فى وضع الأساليب والإجراءات التى يستطيع بها أن يحول، هذه الحقائق العلمية المجردة إلى استراتيجية تتمثل فى «مقرر تعليمى» من حيث المعلم وإعداده والهدف من هذا المقرر، واختيار المادة اللغوية وطرق تدريبها ،والأستعانة بمعامل اللغات وغير ذلك من الطرق والأساليب التى يختص بها علم اللغة التطبيقى فى مجال تعليم اللغة[١]

غير أن هذا العلم ما لبث أن أتسعت دائرته وتعددت فروعه ومجالاته، انطلاقاً من بعض المشكلات التى أثار بعضها علماء اللغة فى دراستهم

---

(١) راجع عبده الراجحى، المرجع السابق ص ٦١ وما بعدها.
وانظر أيضاً، براون هـ. دوجلاس، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ترجمة عبده الراجحى وعلى على أحمد شعبان، ص ٢٢٢ - ٢٢٤، وفى مواضع أخرى من الكتاب.

العلمية أو النظرية للغة كما رأينا فى الفصل الأول، مثل علاقة اللغة بالمجتمع، وعلاقة اللغة بالفكر والعقل والنفس، وعلاقة اللغة بالجغرافيا وتوزيع اللهجات، وعلاقة اللغة بالترجمة وتنوع أساليب الكلام ومشكلات النطق وأمراض الكلام وغير ذلك من المشكلات اللغوية التى أصبحت خلال نصف قرن تقريباً «علوم» فى إطار علم اللغة التطبيقى أو فروعاً منه، ومن أبرز فروع هذا العلم نجد:

١ - علم اللغة التعليمى Pedagogical Linguistics

وقد يستخدم مصطلح «علم اللغة التطبيقى» Applied Linguistics للدلالة على هذا العلم،دون الفروع الأخرى لعلم اللغة التطبيقى،كما رأينا من قبل، وقد يطلق عليه أحياناً، علم تعليم اللغة Languge didactics، أو علم اللغة التربوى Educational Linguistics.

ويُعَدُّ بشكل عام الآن، فرعاً من فروع علم اللغة التطبيقى، أو من أهم فروعه، وهو يهتم بالطرق والوسائل التى تساعد الطالب والمعلم على تعلُّم اللغة وتعليمها، وذلك بالإستفادة من نتائج علم اللغة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية.

فهو يضع البرامج والخطط التى تؤهل معلم اللغة للقيام بواجبه على الوجه الأكمل، فى تعليم المهارات اللغوية Languages skills مثل: النطق والقراءة والاستماع والكتابة، وغالباً ما ينطلق هذا العلم من بعض النظريات اللغوية مثل النظرية السلوكية أو التحويلية التوليدية أو غيرها من النظريات اللغوية، كما يقوم بوضع «المقرر التعليمى» وتصميمه، من حيث اختيار المادة اللغوية من المفردات والتراكيب ومستويات المقرر وطرق التعليم.

ويتصل بذلك ما يسمى بالنحو التعليمى Pedagogical grammar وهو ما يقابل النحو الوصفى descriptive grammar فى النظرية اللغوية، ويهتم النحو التعليمى بالجانب الاستعمالى أو الوظيفى من قواعد اللغة، كما يُصمم لخدمة لغة معينة، ويستخدم معايير خاصة فى اختيار المفردات،

والتراكيب، مثل درجة الشيوع فى الاستعمال، فضلاً عن بعض المعايير النفسية من حيث قابلية التعلم أو التذكر أو غير ذلك.

كما يهتم علم اللغة التعليمى بطرق تعلم التنوع فى أساليب اللغة، سواء بالنظر إلى اللغة الوطنية أو الأجنبية، وكذلك استخدام اللغة فى النصوص الأدبية أو العلمية، بل حتى لغة الحوار بين المعلم والتلاميذ وصفوة القول إن هذا العلم يصمم ويضع البرامج والطرق التى تساعد على تعلم اللغة واستخدامها من حيث هى وسيلة اتصال.

٢ - علم اللغة النفسى Psycholin guistics

ويهتم هذا العلم بالسلوك اللغوى Language behavior، وخاصة من حيث اكتساب اللغة Language acquisition، أو استخدامها، وهذا العلم هو نتاج جهود علماء النفس وعلماء اللغة فى محاولة الوصول إلى نظرية علمية حول اكتساب اللغة والقدرة اللغوية عند الإنسان وخاصة عند الأطفال ويرجع الفضل فى إرساء نظرية لغوية حول ذلك إلى النظرية التحويلية التوليدية، خاصة بما أثارته من مشكلات لغوية نفسية تتعلق بالذاكرة memory وإدراك الكلام واستقباله وفك شفرته، واستدعاء المفردات، ودرجة الترابط بينها وعيوب النطق والكلام وغير ذلك من مشكلات لغوية نفسية، ولعل من أهم إنجازات هذا العلم هو دراسة اكتساب الطفل للغة من حيث وجود ملكة فطرية تساعد الطفل على اكتساب اللغة، وبذلك أطاحت هذه الملكة الفطرية بفكرة التقليد، التى كانت مسيطرة على علماء النفس واللغة معاً قبل ظهورها[١]

٣ - علم اللغة الاجتماعى sociolinguistics

وهو يدرس اللغة من حيث هى حدث لغوى اجتماعى، وبناء على ذلك يقوم هذا العلم بدراسة «التنوع اللغوى» فى استخدام اللغة فى مجتمع ما أو عدة مجتمعات تتكلم لغة واحدة، أو ما يسمى باللهجات الاجتماعية

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى الفصل الثالث من هذا الكتاب حول علم اللغة النفسى واكتساب اللغة عند الأطفال.

أو اللهجات الطبقية social dialects، من حيث خصائصها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، كما يدرس أيضاً مشكلات الأزدواج اللغوى diglossia، أو تعدد المستويات اللغوية مثل: الفصحى والعامية وطبيعة العلاقة بينهما، ولغة الإذاعة والصحافة، ولغة الدين والسياسة، ولغة التعليم، والعلاقة بين اللغة والثقافة.

وبصورة عامة فإن هذا العلم يدرس التأثير المتبادل بين اللغة والمجتمع، وقد يطلق عليه بعض علماء الاجتماع، علم الاجتماع اللغوى sociology of language، غير أن هناك فرقاً فى تناول علم اللغة وعلم الاجتماع لهذه العلاقة بين اللغة والمجتمع[1].

٤ - علم اللغة الجغرافى Geolinguistics

وهو علم يدرس اللغات واللهجات ويُصنفها، طبقاً للمواقع الجغرافية لكل لهجة أو لغة، بالنظر إلى خصائصها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التى تفرق لغة عن لغة أو لهجة عن لهجة أو ما يسمى باللهجات الإقليمية Regional dialects، فى بلد واحد، أو عدة بلدان تتكلم لغة واحدة، وهو يستند فى ذلك إلى علم اللهجات النظرى dialectology وغالباً ما تنتهى هذه الدراسة فى علم اللغة الجغرافى إلى وضع الأطالس اللغوية، حيث توزع التنوعات اللغوية وفق رموز خاصة على خرائط جغرافية، توضح موقعها وخصائصها اللغوية ويتم ذلك على المستوى الأفقى، فى مقابل المستوى الرأسى الذى يدرسه علم اللغة الاجتماعى.

٥ - علم الأسلوب Sylistics.

وهو يدرس مظاهر التنوع والاختلاف فى استخدام اللغة، وهو بهذا قد يلتقى مع جوانب من علم اللغة الاجتماعى، غير أن هذا العلم يوجه جل اهتمامه إلى مستوى الاستخدام الفنى والجمالى للغة، كما تتمثل فى لغة الشعر والنثر وهو فى هذا كله يطبق نتائج علم اللغة النظرى الصوتية،

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب حول علم اللغة الاجتماعى عن الجاحظ، وعربية الأندلس.

والصرفية والنحوية والدلالية ويستخدم مصطلحاته أيضاً مثل الفونيم والمورفيم وغير ذلك وقد رأينا من قبل، كيف كانت مدرسة براج رائدة هذا اللون من الدراسة الأسلوبية، وبشكل عام فإن الدراسات البلاغية والنقدية التقليدية تُعَدُّ من مصادر هذا العلم، وإن رأى بعض علماء اللغة أن علم الأسلوب هو البديل العلمى عن علم البلاغة التقليدى.

وغالباً ما تقوم هذه الدراسة على اللغة المكتوبة كما تتمثل فى لغة كاتب أو شاعر، حيث تحاول مثل هذه الدراسة رصد «الملامح المميزة» للغة هذا الكاتب أو ذاك الشاعر، كما يدرس أيضاً اللغة المنطوقة، كما تتمثل فى الخطابة أو الإذاعة أو لغة الإعلان المكتوبة والمسموعة أيضاً، وقد يستخدم أحياناً الطرق الإحصائية فى حصر الصيغ أو المفردات التى تميز مستوى لغوى عن آخر، وحينئذ يطلق عليه علم الأسلوب الإحصائى، ويطلق عليه أحياناً الأسلوبية أو علم الأساليب.

٦ - فن صناعة المعجم Lexicography

وهو يدرس فن صناعة المعجم، من حيث الجمع، والوضع، أى من حيث جمع المادة اللغوية للمعجم بالنظر إلى نوعه وحجمه والهدف من تأليفه، وترتيب المداخل وإعداد الشروح والتعريفات، والصور والنماذج المصاحبة لذلك، وغير ذلك من العمليات الفنية الخاصة بتأليف المعاجم، حتى يتم اخراج المعجم فى صورته النهائية من حيث اختيار نوع الورق والتجليد والاخراج، ويستقى أصوله من علم المعاجم النظرى Lexicology ومن نظرية المعجم.

وفى الآونة الأخيرة أصبح استخدام الحاسب الآلى أو الحاسوب فى جمع المادة اللغوية وترتيبها وسيلة حاسمة فى فن صناعة المعاجم، حيث أخذ فرع جديد من علم المعاجم يتخلق، يطلق عليه مصطلح «علم المعاجم الحسابى» Computational Lexicography [١]

---

(١) حول فن صناعة المعجم وعلم المعاجم العربية انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب.

٧ - التخطيط اللغوى Language Planning

ويطلق عليه أحياناً مصطلح الهندسة اللغوية Language Engineering، ويسعى هذا العلم إلى حلّ مشكلات الاتصال اللغوى على مستوى الدولة أو الوطن وذلك بتقديم، خطط علمية واضحة ومحددة الأهداف للتصدى للمشكلات اللغوية، واقتراح الحلول العلمية والعملية لذلك، وفق برنامج زمنى محدد، وذلك من خلال الدراسات اللغوية ذات الصلة مثل: اللهجات العامية وعلاقتها بالفصحى، ومستويات الفصحى التى نريد لها السيادة فى حياتنا الثقافية والتعليمية والمستوى اللغوى الذى ينبغى على الحكام والوزراء والقادة استعماله، أو الذى ينبغى على وسائل الإعلام والإعلان، المرئية والمسموعة والمكتوبة الالتزام به، ولغة الدين والسياسة، وتعليم اللغة القومية والمستويات اللغوية التى ينبغى أن تُعلم، وأنواع المعاجم التى نحتاج إليها، ولغة الترجمة وما ينبغى أن يترجم، ووضع ضوابط للكتابة الصحيحة التى ينبغى الالتزام بها، واللغات الأجنبية وحدود استعمالها فى التعليم أو غيره، وإحلال اللغة القومية محل اللغات الأجنبية فى التعليم وغير ذلك من مشكلات الحياة اللغوية - وعادة ما يقوم بهذا مجلس على مستوى الوطن أو الدولة يطلق عليه مجلس التخطيط اللغوى، وهو مجلس مدعم بسلطان الدولة ترعى تنفيذ خططه ومتبعتها، ويشترك فى هذا المجلس المجامع اللغوية وغيرها من المؤسسات المعنية باللغة مثل الجامعات والمعاهد.

ومن الواضح أن هذا التخطيط للغة فى مجتمع ما، يعتمد على حصيلة ونتائج الدراسات اللغوية العلمية؛ النظرية والتطبيقية من علم اللغة وعلم اللغة التعليمى وعلم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة الجغرافى وغيرها، وكل هذا يأخذ فى النهاية صورة برامج وخطط قابلة للتنفيذ.

ومن الغريب أننا فى الوطن العربى قد نخطط أحياناً لحياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، ولا نخطط مطلقاً لحياتنا اللغوية وهى قد تكون أشد خطراً، وما التلوث اللغوى الذى نسمعه ونراه الآن، خاصه فى لغة الإعلام، والإعلان، إلا محصلة لتجاهل

الأخذ بالتخطيط العلمى لحياتنا اللغوية، ومن الغريب أيضاً أننا نقوم بحملات إعلامية فى الصحف، والإذاعة المرئية والمسموعة حول «المياه» ومرض «الإيدز» مثلاً، ولا نقوم بحملة إعلامية واحدة حول تلوث اللغة وأمراضها، ولعل السبب فى ذلك أننا لا ندرى على وجه الدقة ما الذى ينبغى أن نقوله للمواطن العربى صدد هذا، أو ما الذى ينبغى أن يستعمله وينطق به أو يكتبه وما لا ينبغى، وإن فعل بغضهم ذلك، وقف عند حدود، المرفوع، والمنصوب والمجرور، وغفل عن حقيقة العلاقة الحيوية بين المجتمع واللغة والثقافة.

إن حديث الدوائر السياسية فى العالم العربى وإسرائيل عن السلام، ما هو إلا تأجيل للمواجهة المحتومة بيننا وبينهم، وسوف تبدأ هذه المواجهة إن قُدِّر لهذا السلام أن يصل إلى مداه، بحرب أشد فتكاً وعنتاً من القتال المسلح، حرب لغوية وثقافية وحضارية، ويؤكد ذلك ويدعمه ما قاله بالأمس القريب كبيرهم «شمعون بيريز» فى كتابه: (الشرق الأوسط الجديد ص ٣٥) من أن القوة الحقيقية فى القرن القادم، لن تكون فى ميادين الحرب والقتال أو فى معسكرات الجيش، وإنما ستكون فى حرم الجامعات والمعاهد العليا.

ومن الناحية اللغوية الخالصة، فإن اللغتين العربية والعبرية - كما نعلم - من عائلة لغوية واحدة، وكل منهما لغة ذات دين، فهل خططنا لهذا الصراع اللغوى والثقافى المحتوم؟!!

إن لإسرائيل تاريخاً فى التخطيط اللغوى فمنذ أن خططوا للإستيلاء على أرض فلسطين، كان لهم هدفان لا ثالث لهما وهما: الأرض واللغة، كانت اللغة العبرية قد ماتت منذ أكثر من ألف عام، وأصبحت مجرد لغة دينية بعيدة عن الحياة، لا تستخدم إلا فى الصلوات، وقراءة التوراه، وكانت الأوضاع اللغوية مع بداية موجات هجرة بنى إسرائيل إلى أرض فلسطين حوالى عام ١٨٨٥م وبعدها حتى قبيل إعلان الدولة، على النحو التالى:

١ - أصحاب الأرض وأهلها من الفلسطينين وكانوا يتكلمون العربية الفصحى لغة الدين والثقافة والعلم، واللهجة العامية الفلسطينية لغة الحياة اليومية، شأنهم فى ذلك شأن أى مواطن عربى فى دول الأمة العربية.

٢ - اليهود المهاجرون من دول الوطن العربى، وكانوا يتكلمون اللهجات العربية العامية التى اكتسبوها منذ طفولتهم فى بلدان الوطن العربى التى ولدوا وعاشوا فيها، وكان بعضهم يجيد العربية الفصحى لدرجة أن أحدهم، «حاييم نحوم أفندى» رأس الجالية اليهودية فى مصر كان عضواً فى إحدى لجان مجمع اللغة العربية بمصر عند إنشائه عام ١٩٣٢م.

٣ - اليهود الإشكناز وهم المهاجرون من روسيا وبلدان شرق أوروبا كانوا يتكلمون لهجة تسمى «اليديش» وهى لهجة هجينPidgin من اللغة العبرية القديمة وبعض لغات شرق أوروبا.

٤ - اليهود المهاجرون من دول غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وكانوا يتكلمون اللغات الأوروبية الحديثة، الفرنسية والانجليزية والألمانية.

وكانت الجامعة العبرية فى القدس، قد أنشئت، تحت سمع وبصر الإنتداب البريطانى على فلسطين وبرعاتيه، وكانت هذه الجامعة هى مجلس التخطيط الذى وضعت فيه خطط إعادة الحياة للغة العبرية وكانت خطة الإحياء على النحو التالى:

١ - قامت دراسات لغوية علمية لما يسمى باللغة العبرية الأساسية وهو مستوى لغوى يتألف من عدد محدود من المفردات والقواعد مختارة بدقة، بحيث يستطيع المهاجر اليهودى، أن يجيد هذه اللغة فى فترة زمنية قصيرة، ومن ثم يستطيع استخدامها فى الحياة اليومية.

٢ - تدريب عدد من المدرسين على تعليم هذا المستوى اللغوى من خلال مهارات النطق والكتابة والحديث.

ثم فتحوا عدداً كبيراً من الفصول الدراسية، وبدأ تعليم المهاجرين يستوى فى ذلك الرجال والنساء الشيوخ والشباب والأطفال دون استثناء، بحيث لا نجرح أحدهم إلى المجتمع، دون أن يتمكن من استخدام هذا المستوى اللغوى، بل أنشأوا فى بعض مستعمراتهم (الكيبوتس) فصول لتعلم هذه اللغة، حيث يعمل المهاجرون فى الزراعة صباحاً ويتعلمون اللغة مساءً.

وبعد أجيال المهاجرين الأول، نشأ جيل من اليهود على أرض فلسطين، لا يسمع ولا يتكلم سوى العبرية، وأصبحت العبرية هى لغة الحياة والعلم والسياسة والمجتمع فى إسرائيل منذ إعلان قيام الدولة عام ١٩٤٨ ولغتها الرسمية هى العبرية.

وبجانب هذا التخطيط لإحياء اللغة العبرية، كان هناك تخطيط آخر لإزاحة اللغة العربية وثقافتها من مناطق كثيرة فى فلسطين، بل نشأ جيل من أبناء العرب فى هذه المناطق من أصحاب الأزدواج اللغوى يستخدمون فيه اللغة الرسمية العبرية بجوار لغتهم القومية العربية.

وهذا الصراع بين العربية والعبرية مما ينبغى إذا ما أُخذ بالتخطيط اللغوى فى الوطن العربى أن يوُضع فى الحسبان، حفاظاً على العربية وثقافتها وحضارتها، إذ أن مستقبل الثقافة العربية سيظل أبداً مرتبطاً باللغة العربية وجوداً وعدماً.

وفى الفصول القادمة من هذا الكتاب سنرى دراسات تطبيقية أو دراسات فى فروع من علم اللغة التطبيقى ويتمثل ذلك فى ثلاثة فروع هى علم اللغة النفسى وعلم اللغة الاجتماعى وعلم المعاجم وفن صناعة المعجم. مطبقة على اللغة العربية أو جوانب من التراث اللغوى للعربية.

مصادر ومراجع الفصل الثانى

أولاً: المصادر والمراجع العربية والمترجمة

براون، هـ. دوجلاس. أسس تعلُّم اللغة وتعليمها، ترجمة عبده الراجحى وعلى على أحمد شعبان. بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٤م.

رمزى منير البعلبكى (د). معجم المصطلحات اللغوية - بيروت، دار العلم للملايين، ط. أولى ١٩٩٠م.

زكى نجيب محمود (د) أسس التفكير العلمى. القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧م.

عبده الراجحى (د) علم اللغة التطبيقى وتعليم اللغة العربية - الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٢م.

فؤاد زكريا (د) التفكير العلمى. الكويت، سلسلة عالم المعرفة رقم (٣) مارس ١٩٧٨م.

مارتينيه، أندريه وظيفة الألسن وديناميتها، ترجمة نادر سراج بيروت، دار المنتخب العربى، ط. أولى، ١٩٩٦م.

ميشال زكريا (د) قضايا ألسنية تطبيقية. بيروت، دار العلم للملايين، ط. أولى، ١٩٩٣م.

نايف خرما (د) وعلى حجاج (د) اللغات الأجنبية: تعليمها وتعلُّمها. الكويت، سلسلة علم المعرفة، رقم (١٢٦) يونيو ١٩٨٨م.

ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية:

Crystal, D. An Eneyclopedic Dictionary of Language and Languages. Penguin Books, 1994.

Crystal, D.

The cambridge Encyclopedia of Language cam bridge University Press, 1991.

Ducrot and Todorv. Encyclopedic Dictionary of Sciences of Language Translated by: Catherine Porter. Black well, Oxford, 1981.

Hartman and stork. Dictionary of Language and Linguistics Applied sciene Publishers, London, 1973.

الفصل الثالث

اللغة والطفل
دراسات في علم اللغة النفسي

مقدمة

تذكر الروايات التاريخية أن ابنة أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) قالت له يوماً يا أبت ما أحسنُ السماءِ، قال: أي بنية نجومها، قالت إني لم أرد أي شئ فيها أحسن وإنما تعجبت من حسنها، قال: إذن فقولي ما أحسنَ السماءَ[1].

وفي رواية أخرى أنها قالت له: يا أبت ما أشدُّ الحرِ وكان ذلك في يوم شديد الحر فقال لها إذا كانت الصعقاء (الشمس) من فوقك والرمضاء من تحتك،، قالت: إنما أردت أن الحر شديد فقال لها: فقولي إذن ما أشدَّ الحرَّ[2].

والروايتان على اختلاف ألفاظهما واتفاق معناهما لا تشيران إلى خطأ في الإعراب وقعت فيه ابنة أول رجل فكر في وضع اللبنات الأولى في صرح النحو العربي فحسب وإنما تشيران إلى حقيقتين هامتين:

الأولى: إن كل مجتمع يحرص على تنشئة أبنائه وفق نظام لغوي معين.

الثانية: الطريق التي يكتسب بها الفرد هذا النظام اللغوي.

وهذان الأمران، أعني النظام اللغوي وطريقة اكتسابه يحددان بدورهما السلوك اللغوي للفرد في مجتمعه، ومن ثم السلوك الاجتماعي ذاته، فاللغة هنا هي الوسيلة التي تصبغ الفرد بالصبغة الاجتماعية، وكلما

---

(١) السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص ١٤.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

ازداد الفرد توغلاً فى عضويته فى المجتمع، يزداد دور اللغة أهمية لا فى حياته الاجتماعية فحسب، بل فى سلوكه وإحساسه وتفكيره، بل إن عضويته الفعالة فى مجتمعه تعتمد اعتماداً مباشراً على قدرته على الاتصال بأفراد مجتمعه، وقدرته على الاتصال بدورها تعد عاملاً أساسياً فى نموه باعتباره فرداً يعيش فى جماعة بشرية ولغوية معينة، ولذلك فإن أى إهمال أو تجاوز فى استعمال اللغة فى مجتمع يعتز بلغته يؤدى إلى آثار اجتماعية وخيمة، تبدأ بالأستهجان، وقد تنتهى إلى الهزء والسخرية[1].

ولعل أول ما يهدينا السبيل لفهم هذه الوظيفة الاجتماعية للغة هو دراسة السلوك اللغوى بعامة وعند الأطفال خاصة، كيف يكتسب الطفل لغة الجماعة التى يولد ويعيش فيها؟ هل يستعملها دفعة واحدة أم يتعلمها على مراحل متدرجة؟ وما الظروف والملابسات التى يتعلم فيها الطفل اللغة؟ هل يتعلمها بملكة فطرية كما يقول نعوم تشومسكى[2] أم يتعلمها ويكتسبها بعون كما رأينا فيما ذكرته الروايات عن أبى الأسود الدؤلى وابنته؟ وإذا كان يتعلمها بفطرة وعون معاً، فما حقيقة هذه الملكة الفطرية، وما دور ذلك العون؟ أثمة مدة واحدة يستغرقها الأطفال جميعاً فى تعلم اللغة؟ أم أن هذه المدة تتفاوت من لغة إلى لغة ومن طفل إلى طفل آخر؟ وهذه الملكة الفطرية، هل هى لتعلم أى لغة، أم لتعلم واكتساب لغة المجتمع الذى يولد فيه الطفل خاصة، وهل تختلف هذه الملكة باختلاف اللغات؟ أم هى واحدة عند بنى الإنسان؟

عشرات الأسئلة التى شغلت علماء اللغة وعلماء النفس، ويبدو أنها شغلت أيضاً فيمن شغلت أستاذنا المرحوم خلف الله أحمد، بل يبدو أنها ألحت عليه إلحاحاً شديداً حتى إن أول كتاب أصدره بعد عودته من البعثة

---

(١) انظر فى ذلك ما كتبه الجاحظ فى البيان والتبيين ١/ ٧١ - ٧٤.
وانظر أيضاً كتابنا التعريف بعلم اللغة ص ٧٣.

(٢) انظر هذا البحث القسم الخامس.

إلي انجلترا، كان موضوعه: «الطفل من المهد إلى الرشد»، وفى هذا الكتاب (صدر عام ١٩٣٩م) نجد اهتماماً واضحاً بقضية اكتساب اللغة عند الأطفال، ثم يعود مرة أخرى فى عام ١٩٧٠ ليكتب عن الطفل واللغة القومية[١].

وفى هذين البحثين نراه يعتمد على النتائج التى توصل إليها علماء النفس فى النصف الأول من هذا القرن فى دراسة هذا الجانب من جوانب الدرس اللغوى، وهو جانب كما سنرى فى البحث يهتم به علم اللغة أو اللسانيات Linguistics بل يختص به فرع من فروع هذا العلم هو علم اللغة النفسى Psycholinguistics.

ويرجع اهتمام الأستاذ خلف الله - رحمه الله - بعلم النفس وصلته باللغة والأدب إلى ظروف النشأة والبيئة والدراسة - كما يقول -[٢] التى أتاحت له اتصالاً وثيقاً بفرعين من فروع الدراسات الإنسانية بينهما قربى ونسب، أحدهما أدبى لغوى فى دار العلوم، أتاح له ممارسة عملية لفنون الأدب من شعر ومقال وخطابة[٣]. أما الثانى فهو نفسى فلسفى فى جامعة لندن مما أتاح له أيضاً احتكاكاً واسعاً بالدراسات النفسية، ومن ثم تفتحت له من هذا المزاج الثقافى نافذة جديدة فى الدرس اللغوى والأدبى.

وبعد عودته من البعثة عام ١٩٣٧م، عين فى هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة القاهرة فأسند إليه بالأشتراك مع المرحوم الأستاذ أحمد أمين التخطيط لميدان جديد فى الدراسات العليا بكلية الآداب جعل عنوانه «صلة علم النفس بالأدب»، ولم يقف عند حدود التدريس فى الجامعة، بل عرض جوانب من هذه الدراسة فى مقالات نشرت تباعاً فى مجلة الثقافة (القديمة) وقد أثارت تلك المقالات فى حينها نقاشاً ومراجعة

---

(١) انظر، بحوث ودراسات فى العروبة وآدابها، ص ٢٥٣ - ٢٦٣.

(٢) انظر سيرته الذاتية (مخطوط) ص ٤٦ وما بعدها.

وانظر أيضاً مقدمة كتابه من الوجهة النفسية ص ٥ وما بعدها.

(٣) انظر تفاصيل حياته الجامعية ونشاطه الأدبى والاجتماعى والسياسى فى سيرته الذاتية (مخطوط) ص ١٢ وما بعدها.

من الكاتب الناقد المرحوم الدكتور محمد مندور [١].

كما ترجم فى عام ١٩٤٧ بالاشتراك مع الدكتور رياض عسكر كتاب، «كيف يعمل العقل» تأليف عدد من أساتذة علم النفس فى الجامعات الإنكليزية، وفى نفس العام أيضاً شارك فى العدد التذكارى لشوقى حافظ الذى أخرجته مجلة الكتاب، بالقاهرة ببحث عنوانه: «أضواء من علم النفس على شعر شوقى حافظ» [٢].

وفى عام ١٩٤٨ قدم إلى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى باريس وكان ممثلاً لجامعة الإسكندرية فيه، بحثاً بالإنكليزية عن «الاتجاه النفسى فى دراسة أسرار البلاغة عند عبد القاهر الجرجانى» Abd Al Qahir's theory in his "Secrets of Eloquence", a Psychological Approach. [٣].

ثم جمع أطراف هذه الفكرة التى شغل بها منذ أن كان طالباً فى انجلترا، أعنى الصلة بين الأدب وعلم النفس فى كتابه الرائد «من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده» حاول أن يعرض فيه عرضاً علمياً تلك الفكرة ويؤصلها فى الدراسات العربية قديماً وحديثاً ويستشهد لها من الدراسات النفسية والأدبية المعاصرة مفيداً فى ذلك من مادة بحوثه التى أشرنا إليها من قبل، فأخرج الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٤٧، ثم أتيح له خلال الرحلة التى انقضت منذ ظهور تلك الطبعة أن يعاود النظر فى الفكرة التى تضمنها الكتاب فاستقام له - كما يقول - موقف أدنى إلى الوضوح والأطمئنان فى قضية الصلة بين الأدب ونقده وعلم النفس [٤] ومن ثم أعاد طبع الكتاب مرة أخرى عام ١٩٧٠.

وفى هذا الكتاب نجد دعوة واضحة لتطبيق مناهج العلم من حيث

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى كتاب من الوجهة النفسية ص ٢٠٨ - ٢١٠.

(٢) انظر، بحوث ودراسات فى العروبة وآدابها ص ١٩٨ - ٢١٦.

وانظر أيضاً من الوجهة النفسية ص ١٨٢ وما بعدها.

(3) Journal of Near Eaetern Studies Vol 14 No. 3 1955.

(٤) من الوجهة النفسية ص ٢٤٨ - ٢٥٢.

الدقة والموضوعية والتحليل العلمى على دراسة الأدب ونقده، ويكاد اهتمام الأستاذ خلف الله - رحمه الله - يخلص فى هذا الكتاب للجوانب الأدبية والنقدية دون اللغة، إلا من إشارات سريعة، ومن ثم فليس بغريب أن يشتهر بين الباحثين والدارسين بهذا الكتاب وبدعوته إلى الأستفادة من الدراسات النفسية فى دراسة الأدب ونقده فى حين لا يعرف بين الباحثين وخاصة دارسى اللغة بدراسته الرائدة عن علاقة اللغة بعلم النفس وخاصة فيما كتبه عن تعريف اللغة ووظيفتها وطرق اكتسابها عند الطفل وعلى الرغم من قلة ما كتبه حول ذلك إذا ما قيس بما كتبه عن الأدب ونقده، إلا أن هذا القليل يكشف عن إحاطة وتتبع لما كتبه العلماء والباحثون من نظريات وآراء حول طبيعة الصلة بين اللغة وعلم النفس، وخاصة فيما يتصل باكتساب الطفل اللغة، بحيث لا أكون مغالياً أو مسرفاً إذا ما قلت إن ما كتبه فى هذه الفترة المبكرة يجعله بحق رائداً من رواد هذا اللون من الدرس اللغوى لا فى مصر وحدها، بل فى العالم العربى، ولأنه كان يشعر بأنه يفتح مجالاً جديداً من الدراسة نراه يقول بين يدى بحثه عن الطفل:

«إن هذه البحوث قامت على لغات تختلف فى أسسها وطرق اشتقاقها وأساليب استعمالها عن لغتنا العربية، إلا أنه لا يغيب عنك أن العلم يبحث فى الغالب عن القوانين العامة وأن الحياة الإنسانية على الرغم من اختلاف الألسنة والألوان تتبع سنناً إلهية واحدة، يتجلى لك أثرها فى تشابه الظواهر النفسية والعقلية عند الكثير من الناس... لهذا كان علينا أن ننير أذهاننا بالأضواء المنعكسة من مصادر النور فى الغرب حتى إذا ازدهرت البحوث العلمية فى بلدنا وتوفر عدد من الأساتذة وطلاب البحث على دراسة الطفل العربى فى جميع مظاهر حياته وعلى الأخص فى أهمها - لغته - حولنا أبصارنا تجاه الأفق الشرقى وبنينا طرق تعليم لغتنا القومية على أساس قويم من الدرس والتجربة»(١).

---

(١) الطفل من المهد إلى الرشد ص ١٥ - ١٦.

وقد أثمرت دعوته تلك فظهرت فيما بعد دراسات وبحوث خصت لغة الطفل بالدراسة والبحث والتحليل سواء من علماء النفس أو من علماء اللغة(٢).

وهذا البحث هو حلقة فى هذه السلسلة التى بدأها الأستاذ خلف الله -رحمه الله-غير أننا نحاول عرض آرائه ودراستها فى هذا المجال فى ضوء ما انتهت إليه الدراسات اللغوية الحديثة والمعاصرة فى أمر الصلة بين اللغة وعلم النفس من ناحية ودراسة السلوك اللغوى عند الطفل من ناحية أخرى.

ولكى يتحقق ذلك قسمت هذا البحث إلى مقدمة وخمسة أقسام ثم خاتمة أجملت فيها أهم النتائج أما المقدمة فقد خلصت لعرض اهتمام الأستاذ خلف الله - رحمه الله - منذ وقت مبكر من حياته بأمر الصلة بين علم النفس والدراسات اللغوية والأدبية باعتبار أن ما كتبه حول اكتساب الطفل اللغة كان البداية فيما اشتهر وعرف به بعد ذلك من اهتمام بالتفسير النفسى للأدب ونقده ومعنى هذا أن اهتمامه الأول كان اهتماماً لغوياً ثم تحول إلى الأدب ونقده على عكس الشائع المشهور عنه.

---

(١) انظر على سبيل المثال:

١ - د. عبد العزيز القوصى، اللغة والفكر (١٩٤٦).

٢ - ترجمة د. أحمد عزت راجع لكتاب «جان بياجيه»Jean Piaget(١٩٥٤)، اللغة والفكر عند الطفل (١٩٥٤)م، وهو الكتاب الذى استحوذ على انتباه الباحثين فى هذا الميدان منذ ظهوره ومازالت بعض آرائه تتردد فى الدراسات المعاصرة حتى اليوم (انظر:
(Brown, The Development of Language in Children P. 127).

٣ - صالح الشماع، اللغة عند الطفل من الميلاد حتى السادسة (١٩٥٥) وهى الدراسة التى حصل بها على درجة الماجستير فى الآداب.

٤ - د. على عبد الواحد وافى، نشأة اللغة عند الإنسان والطفل (١٩٤٧)، بالإضافة إلى إشارات كثيرة إلى لغة الطفل فى كتابيه علم اللغة(١٩٤٤) واللغة والمجتمع(١٩٤٦م).

٥ - د. محمود السعران، اللغة والمجتمع (ط. أولى ١٩٥٧)، (ط. ثانية ١٩٦٣) وفيها فصل طويل حول اكتساب الطفل اللغة بالإضافة إلى إشارات أخرى فى كتابه علم اللغة(١٩٦٢).

٦ - ترجمة د. تمام حسان لكتاب م . لويس M. Lewis اللغة فى المجتمع (١٩٥٩) فيه فصول عن الطفل واللغة والمجتمع.

هذا غير إشارات أخرى كثيرة فى الكتب التى صدرت عن علم اللغة وعلم النفس وعلم الاجتماع ورغم هذا كله مازلنا نفتقر إلى دراسة متكاملة عن اللغة والطفل العربى منذ أن دعا الأستاذ خلف الله - رحمه الله - للقيام به منذ أكثر من نصف قرن.

وأما القسم الأول من هذا البحث فقد تناول بالدراسة مصطلحين من المصطلحات الأساسية التى تتناول هذا اللون من الدراسات اللغوية، الأول وكان يطلق على الدراسات التى تتناول اللغة كظاهرة إنسانية وتدرسها من الوجهة النفسية سواء كان ذلك عند الإنسان أو الطفل وهو مايسمي باسم علم التنفس اللغوى Psychological Linguistics وكان يطلق عليه أحياناً علم نفس اللغةPsychology of Language وأما المصطلح الثانى فهو أحدث من هذين المصطلحين أى ظهر بعدهما وهو فرع من فروع علم اللغة الآن وأعنى بذلك مصطلح Psycholinguistics ويفترق عنهما منهجاً ودلالة.

أما القسم الثانى من هذا البحث فقد خصصته لدراسة طرق ومناهج دراسة اللغة عند الطفل سواء الطرق التى نادى بها علماء اللغة أم علماء النفس.

وفى القسم الثالث تناولت تعريف اللغة ووظيفتها عند اللغويين وعلماء النفس أيضاً وخاصة فيما كتبوه عن مفهوم اللغة عند الطفل، وفى القسم الرابع تناولت المراحل التى أجمع عليها أيضاً علماء اللغة وعلماء النفس لكسب الطفل اللغة. أما القسم الخامس والأخير فقد أفردته لظاهرة التقليد ودورها فى اكتساب الطفل اللغة نظراً لاختلاف العلماء والدارسين حول ذلك.

وفى جميع هذه الأقسام أعتمدت أولاً على ما كتبه الأستاذ خلف الله - رحمه الله - الذى تناول هذه الجوانب جميعاً غير أننى حاولت أن أضع ذلك فى إطار النتائج والدراسات اللغوية الحديثة والمعاصرة باعتبار أن هذه الدراسة الآن تعد من الدراسات اللغوية وليست فرعاً من فروع علم النفس كما قد يتبادر إلى الذهن من المصطلحات التى تستعمل هى فى الدراسة. ثم ختمت البحث ببيان أهم النتائج التى توصلت إليها.

فإذا كنت قد استطعت أن ألقى الضوء على جهد الأستاذ خلف الله - رحمه الله - فى هذا الميدان فهى تحية عرفان وتقدير من تلميذ لأستاذ يستحق كل التقدير والعرفان بما قدمه وبذله من جهد طوال حياته لخدمة اللغة العربية وآدابها بما كتبه من بحوث ودراسات.

١ - عِلم النفس اللغوى وعِلم اللغة النفسىَ

ويسمى الأول Psychological Linguistics وقد يسمى أحياناً Psychology of Language أما الثانى فهو Psycholinguistics، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذين المجالين من مجالات الدراسة اللغوية بمالها من صلة بعلم النفس، أو علم النفس بماله من صلة باللغة، مجالان لا يختلفان، والواقع أن بينهما فرقاً تاريخياً وموضوعياً.

أما من الناحية التاريخية فالأول أسبق ظهوراً من الثانى، إذ ظهر مع نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالى للدلالة على دراسة العلاقة بين علم النفس واللغة، وظلت تلك العلاقة تدرس فى إطار ما سمى بعلم النفس اللغوى أو علم نفس اللغة إلى أن ظهر المصطلح الثانى وأعنى به علم اللغة النفسى Psycholinguistics مع بداية النصف الثانى من القرن الحالى.

أما من الناحية الموضوعية فالأمر يحتاج إلى شئ من التفصيل ولنبدأ أولاً بتحديد الأستاذ خلف الله - رحمه الله - للمجالات التى يبحث فيها - كما يقول - علم نفس اللغة، وهى عنده ثلاثة مجالات:

١ - نشأة الكلام وترقيته عند الطفل.

٢ - اللغة من حيث كونها نظام كتابة وقراءة.

٣ - عيوب الكلام وأمراضه[١].

ولكن قبل أن يعرض آراء العلماء والباحثين فى ذلك يشير إلى أهمية هذه الدراسات النفسية وصلتها باللغة العربية، يقول: «إن مصر قامت بنصيبها فى البحوث اللغوية وإن دراسات فقه اللغة العربية التى خلدها علماء العرب وشُغل بها منذ القرن الماضى مستشرقو الغرب، قد وجدت فى مصر الحديثة من العلماء من حمل رايتها وأعلى بنايتها، فإذا

---

(١) الطفل من المهد إلى الرشد ص ١٧.

انضمت إلى جهودهم المشكورة ناحية البحث النفسانى التى نحن بصددها الآن وتعاون فرع فقه اللغة وفرع نشأتها عند الطفل،أخذت المسائل بعضها بيد بعض وأثبتت النتائج على أساس موفق من التجربة والبرهان»[١].

وفقه اللغة الذى يشير إليه أستاذنا - رحمه الله - هو الدراسات علم اللغوية التى أخذت طريقها من الغرب إلى مصر على أيدى المستشرقين، وكانت تسمى حينئذ فقه اللغة على الرغم من الفرق الكبير بين علم اللغة وفقه اللغة فى منهج الدراسة وطريقة البحث[٢].

وكانت الدراسات اللغوية فى الغرب قد بدأت - كما نعلم - مختلطة بالمنطق والفلسفة عند اليونان ثم استقل كل فرع منها بمضوعات خاصة، ومع ذلك فمازالت الدراسات الفلسفية والمنطقية ترى أن اهتمامها باللغة لا يقل عن اهتمام علماء اللغة أنفسهم[٣] على الرغم من استقلال الدراسات اللغوية فيما يعرف الآن باسم علم اللغةLinguistics الذى وضع أسسه العلمية وخلصه من المباحث الفلسفية المنطقية عالم اللغة السويسرى فرديناند دى سوسير[٤].

أما فيما يتصل بعلاقة علم النفس باللغة، فقد استقل علم النفس بموضوعات خاصة عن الدراسات الفلسفية أيضاً يتصل معظمها بالسلوك الإنسانى، ومن ثم عرّفه بعض علماء النفس بأنه «العلم الذى يدرس القوانين العامة للسلوك الإنسانى»[٥] ومن بين الموضوعات الكبرى التى يدرسها، موضوعات مثل التعلم والدوافع والإدراك وكلها تتصل بموضوعات أخرى مثل، التخيل والتفكير والحكم والاستدلال، ومن ثم

---

(١) المرجع السابق ص ١٨.

(٢) انظر، براجشتراسر، التطور النحوى للغة العربية، ص ٢٠٦ - ٢٠٧. وانظر أيضاً، التعريف بعلم اللغة، ص ٢٠ - ٢٧.

(٣) راجع، مقال د. عبد الرحمن بدوى، اللغة والمنطق فى الدراسات الحالية، مجلة عالم الفكر، العدد الأول، المجلد الثانى ١٩٧١ ص ٦٥ وما بعدها.

(٤) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

(٥) انظر، د. سيد غنيم، الفكر واللغة عند الطفل، مجلة عالم الفكر، العدد الأول - المجلد الثانى ١٩٧١ ص ٩٤.

وجد علماء النفس أنفسهم أمام مشكلة السلوك اللغوى بماله من صلة بهذه الموضوعات جميعاً، وبعبارة أخرى وجد علماء النفس أنهم لا بد لهم من اهتمام خاص بموضوع اللغة باعتبارها من الأمور الهامة التى يحتاجون إليها فى دراسة مثل هذه الموضوعات، ولذلك أصبحت دراسة السلوك اللغوى موضوعاً هاماً من موضوعات علم النفس، بل لقد أصبح هذا اللون من الدراسة يمثل فرعاً جديداً من فروع علم النفس يسمى علم نفس اللغة Psychology of language[1].

وقد بدأت هذه الدراسة خطواتها الأولى من خلال المدرسة الإنكليزية التجريبية وعلى رأسها جيمس مل وابنه جون ستيوارت مل والتى رأت أن العمليات العقلية تتم بناء على نوع من الترابط، أى أن الأفكار البسيطة والمدركات المباشرة تترابط فيما بينها بنوع من الكيمياء العقلية بحيث تكوّن فى النهاية أفكاراً أكثر تعقيداً، وقد أثرت تلك المقولة على نظرتهم للغة حيث قالوا إن الأفكار المعقدة تشبه ترابط الكلمات فى تراكيب بنائية وهذه التراكيب تكشف عن ارتباطات بين الأفكار الأدنى مستوى التى تمثلها وتعبر عنها الكلمات فى اللغة[2].

وكانت هذه المدرسة الإنكليزية التى يمثلها الترابطيون الإنكليز تهتم أساساً بتفسير العمليات العقلية عن طريق تداعى الأفكار - وهى لا تستند فى ذلك إلى معرفة عميقة وواسعة باللغة وإنما كانت تعتمد فى ذلك على المعرفة اللغوية التى كانت شائعة فى عصرهم، كالمعرفة بطرق الإسناد اللغوى والصفات والصيغ الصرفية وطرق الاشتقاق وغير ذلك مما كان متداولاً بين علماء فقه اللغة Philologists فى ذلك الوقت.

أما فى ألمانيا فقد كان ولهام فونت Wilhelm Vundt هو أول من أسس معملاً لعلم النفس عام ١٨٧٩م وأول عالم نفسى يكتب المقالات الطوال

---

(١) انظر: Hartmann and Stork, Dict. of Lang. and Ling. P. 189.
وانظر أيضاً د. سيد غنيم. المرجع السابق نفس الصفحة.
(٢) د. سيد غنيم المرجع السابق ص ٩٥

حول سيكولوچية اللغة وهى مقالات لم تلق ما هى جديرة به من الاهتمام، رغم أنها تحتوى على مناقشات تفصيلية وتفسيرات هامة لجوانب معينة من السلوك اللغوى مثل تركيب الكلمة ورمزيتها وإدراك الكلام حيث كشف هذا العالم عن طريق ملاحظات استبطانية عما أسماه التفكير بدون صورة Imagless Thought وهو نوع من السلوك الذاتى الذى يلاحظ فى عملية التفكير ولا يمكن إدراجه تحت موضوعات علم النفس المعروفة آنذاك مثل الإدراك والشعور، وقد أثارت هذه الفكرة نقاشاً حاداً بين علماء عصره ولكن نتائج هذه المناقشات عادت بالنفع على علم النفس إذ توصل العلماء إلى وجود نزعات معينة واتجاهات شعورية واستعدادات خاصة تلعب دوراً فى التفكير الإنسانى عامة وفى السلوك اللغوى بخاصة[١].

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد بلغ اهتمام علماء النفس باللغة مع بداية القرن الحالى شأواً بعيداً وظهر عدد من مجلة علم النفس الأمريكى عام ١٩٣٠ خصص بالكامل لدراسة المشكلات المختلفة فى علم النفس اللغوى Psychological Linguistics وخاصة فيما يتصل بمفهوم اللغة والكلام، وفيه تنبأ بعضهم بلقاء وشيك بين علماء اللغة وعلماء النفس[٢] وتلك كانت نبوءة صادقة تحققت على يد عالم اللغة الأمريكى نعوم تشومسكى Neom Chomsky كما سنرى ذلك فيما بعد، كما تحققت بصورة مباشرة فى دراسة عالم اللغة الأمريكى بلومفيلد Bloomfield الذى بدأ أعماله الأولى بميل إلى الاتجاه العقلى Mentalistic Approach ولكن بمجئ عام ١٩٢٦ هجر هذا الاتجاه ومال نحو مبادئ ويس Weiss عالم النفس السلوكى ومن ثم شكل بلومفيلد ما يعرف فى تاريخ الفكر اللغوى باسم المدرسة السلوكية Behaviourism[٣].

---

(١) د. سيد غنيم، المرجع السابق ص ٩٦.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

وانظر أيضاً: Hartmann and Stork, OP. Cit P. 189.

(3) Lyond, John, Semantics, Vol.1 PP. 123 - 125.

وانظر أيضاً الفصل الأول من هذا الكتاب

ويرى واطسن Watson أحد زعماء هذه المدرسة من علماء النفس أن السلوك الإنسانى ما هو إلا سلوك ديناميكي وأن العقل ليس موضوعاً مناسباً لدراسة علم النفس لأن أى ملاحظات على العقل إنما تعد ملاحظات ذاتية، ومن ثم فهى لا تشغل جزءاً من المعرفة يمكن التحقق منها وإثباتها، واقتراح بدلاً من ذلك دراسة السلوك الظاهرى الصريح فقط والعلاقة بين المثيرStimulus والاستجابةResponse أما الشعور ومحتوياته، فقد نظر إليها على أنها ظواهر ثانوية[١] وفسرت اللغة فى ضوء هذا المذهب السلوكى تفسيراً بسيطاً للغاية فهى عبارة عن مجموعة من ردود الأفعال المشروطة.

وقد أثرت هذه النظرة على بلومفيلد وخاصة بما كتبه عالم النفس السلوكى بول ويس Paul Weiss فى كتابه «الأصول النظرية للسلوك الإنسانى»[٢] A Theoretical Basis of Human Bahaviour حيث يرى أن السلوك الإنسانى يوصف أكمل وصف وأدقه عن طريق النظر إلى الظواهر الفسيولوچية وغيرها من الظواهر المادية التى تصحب سلوك الأفراد. ولما كانت اللغة ظاهرة إنسانية تندرج تحت مظاهر السلوك الإنسانى الأخرى، فإن ما يصدق على دراسة السلوك الإنسانى، يصدق أيضاً على دراسة اللغة، ولذلك ينبغى عند السلوكين شرح ألفاظ مثل: الإرادة والشعور والفكرة والإنفعال، وغيرها عن طريق حالة فسيولوچية أو فيزيائية أو كليهما.

ولذلك نجد آثار ذلك كله فى دراسات بلومفيلد اللغوية ممثلة فى مصطلحات نفسية خالصة مثل: المثير والاستجابة والشرط والاستجابة البديلة وغير ذلك وخاصة فى دراسته للمعنى Semantics حيث يرى أن معنى الرؤية مثلاً ينبغى أن تعرف عن طريق أحداث عملية فسيولوچية وفيزيائية مرتبطة بها، ومعنى الجوع فى قولى «أنا جائع» يعرف عن طريق التقلص العضلى وما يحدث فى المعدة من إفرازات، وما قد يصحب

---

(١) انظر د. سيد غنيم. المرجع السابق ص ٩٦
وانظر أيضاً Lyons. Semantics Vol 1 PP 123 125
(٢) د. السعران. علم اللغه ص ٣٣١

ذلك من عطش، ومثل ذلك أيضاً يرى بلومفيلد أن الأفكار والتصورات ينبغي أن يعاد وصفها بمثل هذه الطريقة بل حتى الحب والكره وما إليها ينبغي وصفها بمثل هذا الطريق والمثال الذى أورده عن جاك وجيل والتفاحة لكي يدلل على صحة نظرته تلك مثال معروف مشهور بين الباحثين فى علم اللغة[١].

غير أن هذا اللقاء بين علماء اللغة وعلماء النفس لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما سار كل منهما فى اتجاه، فعكف علماء اللغة على دراسة مشكلات لغوية خالصة تتصل بالتحليل اللغوى صوتياً وصرفياً ونحوياً ودلالياً، حول ذلك مدارس ومذاهب متعددة ومختلفة[٢] ومع ذلك فقد بقيت مشكلات لغوية لا يستطيع علماء اللغة لها حلاً دون الأقتراب من مشاكل نفسية بل واجتماعية أيضاً.

فالكلام ليس مجرد أصوات معينة تصدرها أعضاء النطق، إن هذه الأصوات توجه إلى أذن سامع أو مستقبل Receiver حيث تقوم فى ذهنه عمليات عقلية متعددة لكى تتحول هذه الأصوات إلى دلالات، بل إن المتكلم أو المرسل Sender نفسه قبل أن يشرع فى الكلام، وأثناء عملية التكلم وبعدها أيضاً خاصة إذا كان ينتظر إجابة مثلاً تقوم فى نفسه عمليات عقلية ونفسية بل إن الكلمات ذاتها وما يتعلق بها من حيث تكوينها وسمعها مرتبطة بسلسلة من العمليات النفسية والعقلية يختص بدراستها اليوم ما يسمى بعلم الأصوات النفسى Psychological Phonetics وقد يسمى أحياناً بعلم الأصوات السمعى Auditory Phonetics ويسميه البعض Psychoacoustics[٣].

وفى مجال أمراض الكلام Speech Pathology وعلاجها Speech Thearapy

---

(١) انظر: Lyons, Semantics, Vol. 1, PP. 126 - 127.
وانظر أيضاً د. السعران، علم اللغة ص ٣٣٣. الفصل الأول من هذا الكتاب
(٢) راجع:
Robins, R. H. A Short History of Linguistics PP. 210 - 220.
(٣) انظر: Hartmann and Stork, OP. cit. P. 3, P. 24, P. 189.
وانظر أيضاً د. [illegible] صلوح، دراسة السمع والكلام ص ٢٨٣.

نجد تعاوناً وثيقاً بين علماء اللغة وعلماء النفس، على أساس أن الاضطراب قد يصيب قدرة الإنسان على النطق أو الفهم أو كليهما معاً[١] بل إن تحديد ماهية اللغة وحقيقتها ونشأتها دفع أمام علماء اللغة مشكلات نفسية واجتماعية أثرت فى الدراسات اللغوية ذاتها مثل دراسة اكتساب الطفل اللغة وكانت من قبل مدخلاً لمعرفة نشأة اللغة عند الإنسان[٢] ولكنها تحولت فيما بعد لفرع هام من فروع علم اللغة التطبيقى Applid Linguistics[٣] .

كل ذلك وغيره من المشكلات اللغوية والنفسية أدت إلى حتمية اللقاء بين علم اللغة وعلم النفس لحل تلك المشكلات، وترى جودث جرين Judith Green أن علماء النفس الذين درسوا اللغة قد تأثروا بمؤثرين هما : نظرية المعلومات Information Theory ونظرية التعلم Learn Theory[٤]، أما نظرية المعلومات فهى تبحث فى عملية الاتصال عامة والاتصال اللغوى بخاصة، وهى تنطلق من حقيقة أن اللغة تتطلب من مستخدميها دراية وخبرة تمكنهم من تتبع أى جانب من جوانب الرسالة الكلامية، أى معرفة الاحتمالات المتتابعة لجميع مستويات اللغة ويتطلب إنتاج الرسالة الكلامية استخدام نظام رمزى Code أو شفرى يقوم أساساً على انتقال الرسالة من المرسل Sender إلى المستقبل Receiver حيث يتوقف إدراك الرسالة على مدى معرفة المستقبل لهذا النظام الرمزى الذى يستخدمه المرسل، ويهتم عالم اللغة بهذا النظام عن طريق دراسة طبيعة الوحدات المكونة له وتحديدها.

أما عالم النفس فيهتم بالعمليات التى تحدث لدى المستقبل حين يستقبل الرسالة أى بعمليات اكتساب النظام الرمزى وإدراك الرسالة في

---

(١) انظر: Hartmann and Stork Op. cit. PP 215 216.
وانظر أيضاً، د مصطفى فهمى، أمراض الكلام ص ٣١ وما بعدها

(٢) انظر، فندريس، اللغة ص ٣١ وانظر أيضاً د على عبد الواحد وافى نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ص ٢٣

(٣) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب

(٤) انظر Green. Judith. Psycholinguistics PP 14 15

حين أن نظرية التعلم تتمثل فيما طرحته المدرسة السلوكية من آراء ووجهات نظر حول العلاقة الشرطية بين المثير Stimulus والاستجابة Response في عملية اكتساب المعلومات وتثبيتها[١] وتقول جرين Green إن لوناً من التعايش بين النظريتين ظل سائداً طوال الربع الثاني من القرن الحالي حتى ظهر مصطلح علم اللغة النفسي Psycholinguistics في بداية الخمسينات من هذا القرن[٢] وكان يُستخدم في وصف وتحليل مفاهيم لغوية خالصة مثل الفونيم Phonem والمورفيم Morpheme وهي مصطلحات استعملت في التحليل اللغوي بدلاً من المصطلحات التقليدية مثل الحرف والكلمة والجملة[٣] وقد اختلفت نظرة علماء اللغة إلى كل من الفونيم والمورفيم، فأصحاب النظرة العقلية والنفسية من علماء اللغة رأوا أن الفونيم صوت نموذجي يهدف المتكلم إلى النطق به أي أن الفونيم ما هو إلا صوت مثالي لا يتحقق في الواقع وإنما يحاول المتكلم أن يقلده في النطق حتى إن بعضهم فضل أن يطلق عليه مصطلح Psychophoneme للإشارة إلى القيمة النفسية العقلية للصوت[٤].

غير أن هذا المصطلح أعني مصطلح علم اللغة النفسي Psycholinguistics لم يستقر تماماً إلا بعد أن طرح نعوم شومسكي Noam Chomsky عالم اللغة الأمريكي المعاصر نظريته اللغوية وخاصة فيما يتصل بعلاقة اللغة بالعقل الإنساني[٥]، والتغير الأساسي والحيوي الذي أحدثته هذه النظرية أنها وضعت تعريفاً للغة يحكم ويعقد الصلة فيما بين التحليل اللغوي وجوانب معينة في كل من نظرية التعلم ونظرية المعلومات حيث يرى أن نظرية التعلم القائمة على العلاقة الشرطية بين المثير والاستجابة لا تصلح لتفسير قدرة المتكلم على استخدام اللغة[٦].

---

(1) Ibid P. 15.

وانظر أيضاً د. نوال عطية، علم النفس اللغوي ص ١٤ - ١٦.

(2) Ibid P. 14.

(٣) راجع كتابنا، الكلمة دراسة لغوية ومعجمية ص ٤١- ٤٤، ٦٢ - ٦٥.

(4) Robins, R.H, General Linguistics P. 306.

وانظر أيضاً د. أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٥) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

(6) Green, Op. cit. P. 15.

أما فيما يتصل باللغة والعقل الإنسانى فقد خصص لذلك كتاباً مستقلاً أسماه اللغة والعقل Language and Mind وفى هذا الكتاب يرى أن من الأفضل أن ننظر إلى اللغة فى ضوء الأصول النفسية والعقلية ولذلك يقترح العودة إلى هذه الأصول وخاصة تلك التى ظهرت عند فلاسفة مثل ديكارت وغيره من الفلاسفة العقليين فى القرن السابع عشر أو كما يطلق عليه قرن العباقرة(١) ومن ثم ينتقد تشومسكى بشدة علماء اللغة الذين ابتعدوا بدعوى الموضوعية والعلمية عن المبادئ النفسية والفلسفية ونادى بضرورة العودة إلى هذه المبادئ وإعادة اكتشافها مرة أخرى وتبنى منطلقاتها العقلية ولذلك نراه يرفض النظرية السلوكية وتطبيقاتها على اللغة ويرى أن هذه النظرية لا تفرق بين السلوك الإنسانى والسلوك الحيوانى، كما رأينا من قبل أن تطبيق هذه النظرية على اللغة يحول الإنسان إلى شئ يشبه الآلة، بينما اللغة هى المميز الوحيد بين الإنسان من ناحية والآلة والحيوان من ناحية أخرى، ولذلك فإن علم اللغة Linguistics اكتفى بدراسة المظاهر السطحية أو التراكيب السطحية Surface Structures للكلام الإنسانى دون الغوص فى البنية العميقة Deep Structures وهى البنية الحقيقية للكلام التى تكشف عن خصائص العقل البشرى وقدرته، وهو الهدف النهائى لدراسة اللغة الإنسانية(٢).

أما الجانب النفسى الثانى من نظرية تشومسكى والذى يتصل اتصالاً مباشراً بموضوع هذا البحث، فهو نظرية اكتساب اللغة عند الطفل، فهو يرى أن عقل الطفل يحتوى على خصائص فطرية Innate Characteristics أو ما يمكن أن نسميه ملكة فطرية تجعله قادراً على تعلم اللغة الإنسانية. وهو مُهيأ بهذه الملكة الفطرية لأن يكون قواعد لغته من خلال الكلام الذى يسمعه، لا تقليداً وإنما بصورة إبداعيةCreative لأنه يستطيع أن يؤلف ويكوّن جملاً صحيحة نحوياً لم يسمع بها قط من قبل، وتتوقف عملية

---

(1) Chomsky, Language and Mind P. 5.
(2) Ibid, P 66.

الاكتساب على طبيعة نمو الطفل، ولذلك ينتقد فى هذا الصدد فكرة التقليد imitatien وتعزيز التقليد اللذين نادت بهما النظرية السلوكية[١] والتى استقر عليها الفكر اللغوى من حيث هي التفسير المقبول لعملية اكتساب الطفل اللغة.

غير أن المناقشات الواسعة والعنيفة أحياناً[٢] التى أثارتها نظرية تشومسكى سواء بأصولها النفسية والعقلية أو فى رؤيتها لعملية اكتساب اللغة، قد زلزلت فعلاً من فكرة التقليد بحيث أصبح من الصعب الآن أن نَعُد التقليد عند الأطفال عاملاً حاسماً فى عملية كسب اللغة، لأن هناك جوانب أساسية فى اللغة لا يمكن أن تكون عرضه للملاحظة المباشرة بحيث تخضع للتقليد، مثل المعانى المتصلة بتركيب الجملة وشبه الجملة، أى بعبارة أخرى المعانى المجردة للقواعد النحوية، والصرفية والتى تعد جزءاً من القدرة اللغوية عند البالغين[٣].

ولكن على الرغم من هذه المناقشات الواسعة حول نظرية تشومسكى وخاصة فيما يتصل باكتساب اللغة وغيرها من جوانب هذه النظرية، فإن مصطلح علم اللغة النفسى Psycholinguistics قد استقر مع نهاية الستينات من هذا القرن على موضوعات محددة فى علم اللغة التطبيقى Applied Linguistics تتصل باكتساب اللغة Language Acquisition سواء عند الأطفال عند تعلمهم اللغة الأم، أو عند البالغين عند دراسة لغة أجنبية باعتبارها لغة ثانية Second Language بالإضافة إلى موضوعات أخرى مثل أمراض الكلام وغيرها من طرق معالجة النطق[٤].

ومعنى هذا أن معظم الموضوعات التى ذكرها الأستاذ خلف الله

---

(1) Chomsky, A Spects of The Theory of Syntax P. 193.
(2) Crystal, Linguistics PP. 255 - 258.
(3) Robins, Generral Linguistics P. 307
وانظر أيضاً هذا البحث القسم الخامس.
(٤) انظر Hartmann and Stork, OP. cit. P 189.
وانظر أيضاً. التعريف بعلم اللغة ص ١٨٣

- رحمه الله - وذكرناها فى بداية هذا البحث[١] تندرج الآن تحت علم اللغة النفسى إذا استبعدنا موضوع نُظم الكتابة والقراءة بمالها من صلة مباشرة بهذا الفرع من فروع علم اللغة وإن كانت تتصل بطريق غير مباشر بجوانب نفسية وعقلية من حيث العلاقة الرمزية التى تقوم بين الرمز وما يدل عليه هو فرع أوسع من فروع المعرفة يتحول فيه علم اللغة بأكمله إلى فرع من فروعه وهو مايعرف باسم علم الرموز Semiology أو Semiotics[٢].

غير أن طرق ومناهج اكتساب الطفل اللغة تعددت واختلفت منذ أن بدأ العلماء يهتمون بهذا الجانب اللغوى من حياة الطفل، وقد اهتم الأستاذ خلف الله - رحمه الله - بهذه الطرق والمناهج بحيث خصص لها جانباً واضحاً من دراسته للطفل من المهد إلى الرشد وذلك للصلة الوثيقة التى تربط بين عملية الاكتساب هذه وطرق دراستها وهو موضوع القسم الثانى من هذا البحث.

---

(١) انظر هذا البحث - القسم الأول
وانظر أيضاً الطفل من المهد الى الرشد ص ١٧
(٢) راجع Lyons. Semantics Vol I PP 96 99
وانظر أيضاً الفصل الأول من هذا الكتاب

٢ - طرق ومناهج دراسة اللغة عند الطفل

لعل من أقدم الطرق التى استخدمها الباحثون فى دراستهم لاكتساب اللغة عند الأطفال هى طريقة الأساليب البيوجرافية Biographic[١] التى بدأت على صورة مجموعة من الملاحظات العارضة لحالات فردية، وكانت تعتمد إلى حد كبير على الملاحظة المباشرة[٢] دون استخدام الأدوات والأجهزة ومن ثم كان لها دور كبير فى الدراسات التى أجريت فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى وكانت أغلب الدراسات التى طبقت هذه الطريقة تدور حول اكتساب المفردات اللغوية منذ ظهور الكلمة الأولى عند الطفل إلى أن يصل إلى عامه الرابع او الخامس حينما يصبح محصوله اللغوى من الكثرة بحيث يتعذر على الباحث القيام بملاحظته أو تتبعه.

ورغم ما قدمته هذه الملاحظات من ثراء فى المادة العلمية وما أوحت به إلى الباحثين فى هذا الميدان من أفكار، إلا أن قيمتها العلمية كانت محدودة، إذ كانت أغلب هذه الدراسات على أطفال إما على درجة من التقدم فى النمو اللغوى وإما ممن يعانون من التخلف اللغوى، كما كانت التقارير العلمية تكتب فى ظروف وملابسات مختلفة متعددة بحيث يصعب على الباحث تحديدها، غير أن الباحثين المحدثين الذين اهتموا بهذه الطريقة استطاعوا إدخال بعض التغييرات والاحتياطات عليها بحيث أصبحت أكثر موضوعية.

ومع نهاية النصف الأول من هذا القرن ظهر نوعان أساسيان من الدراسات: الأول، اهتم بنطق الطفل واستخدام الأصوات اللغوية، والثانى تميز بالطابع الإكلينيكى الذى يدرس ما قد يصيب الطفل من عيوب فى النطق والكلام، وكانت معظم هذه الدراسات تتصل بتطبيق هذه الأساليب البيوجرافية[٣].

---

(١) انظر د. سيد غنيم المرجع السابق ص ٩٨.
(٢) انظر خلف الله أحمد، الطفل من المهد إلى الرشد ص ٧.
وانظر أيضاً هذا البحث [illegible] قسم الثانى.
(٣) انظر د. مصطفى فهمى، أمراض الكلام ص ٢٥١ - ٢٥٥.

ولكن اهتمام الباحثين لم يقف عند هذا الحد من البحث النظرى،بل ظهر أيضاً فى نفس الفترة تقريباً، اهتمام بالدراسات «الكمية» Quantitive التى تجرى على عدد كبير من الأطفال، والتى تستخدم عوامل الضبط الاجتماعى، فقد حرصت هذه الدراسات على إخضاع العينات الممثلة للأطفال لأنواع من التحليل، مثل طول استجابة الطفل، وتعقد تركيب الجملة، ونسبة الأجزاء المختلفة من أقسام الكلام، كما درست العلاقة بين هذه التحليلات والسن والجنس ومهن الآباء والعمر العقلى للطفل(١) وبذلك خرجت دراسة اللغة من إطار البحث النظرى إلى مجال الدراسات الكمية التى تخضع للمقاييس العلمية.

ثم ظهرت بعد ذلك مجموعة من الدراسات التى طبقت الطريقة «الطولية» أى التى تتضمن دراسة عدد كبير نسبياً من الحالات وتتبعها على مدى عمرى طويل نسبياً أيضاً وذلك بدلاً من الأساليب البيوجرافية التى كانت تقتصر غالباً على دراسة عدد محدود من الأطفال الذين كانوا فى الأغلب من أبناء الباحثين(٢).

وتمتاز الدراسات التى طبقت الطريقة «الطولية» عن تلك التى طبقت الأساليب البيوجرافية بأن الأولى تجعل «العينة» ممثلة بقدر الإمكان لأكبر عدد من الأطفال وتخضعهم أثناء الملاحظة لظروف واحدة تقريباً، كما يلتزم الباحثون بمعايير واحدة تطبق أيضاً على جميع الأطفال وغالباً ما يقوم الباحث نفسه بتطبيق تلك المعايير أو ينوب عنه فى ذلك ملاحظون مدربون تدريباً جيداً وغير مرتبطين بالأطفال موضوع البحث مما يجعل ملاحظتهم أكثر دقة وموضوعية.

ولم يقف الأمر عند هذه الدراسات «الطولية» بل ظهرت الطريقة

---

(١) د. سيد غنيم، المرجع السابق ص ١

(٢) انظر الطفل من المهد إلى الرشد ص ٢٣.

وانظر أيضاً:

Brown, Roger The Development of Langauge ın Children, P 122

«المستعرضة» نتيجة للصعوبات التى تكتنف الطريقة الطولية التى تتطلب، جهداً ووقتاً من الباحث، كذلك ما قد ينجم من اضطراب نتيجة تخلف، بعض الأطفال عن الاستمرار فى الدراسة إلى نهايتها . وتقوم الطريقة «المستعرضة» على أساس أخذ عينات من الأطفال من أعمار مختلفة بحيث تعتبر كل مجموعة ذات سن واحدة ممثلة للأطفال فى مثل هذا العمر وتمتاز هذه الطريقة بسرعتها فى الوصول إلى النتائج، ويعتبرها بعض الباحثين مكملة للطريقة الطولية[١].

ومن أحدث الدراسات التى طبقت الطريقة المستعرضة تلك الدراسة التى قامت بها جوان توف Joan Tough لدراسة المعنى Focus on Meaning[٢]؛ حيث تتبعت عدداً من الأطفال ذوى العمر الواحد فى بيئات كلامية مختلفة مثل البيت والمدرسة والملعب ولأغراض معينة مثل الكلام للتعلم والكلام للتفكير والكلام للتخيل وهى دراسة استخدمت أدوات الضبط الحديثة وفى مقدمتها التسجيلات الصوتية للأطفال فى البيئات المختلفة، وهى دراسة لغوية أساساً تستخدم التحليل اللغوى للكلام واستخداماته فى ظروف معينة[٣] وهى تشبه الطريقة التى اقترحها عالم اللغة الإنكليزى فيرث Farth لدراسة النمو اللغوى عند الأطفال[٤].

وأياً كانت الطريقة التى يتبعها الباحث فى دراسته لاكتساب اللغة ونموها عند الأطفال، وسواء اتبع الطريقة البيوجرافية أو الطولية أو المستعرضة أو استخدام الملاحظة المباشرة، فمن الضرورى أن يهتم الباحث اهتماماً كبيراً بالظروف والملابسات التى تتم فيها الاستجابات اللغوية، حيث، اتضح من الدراسات المختلفة التى طبقت بعض هذه الطرق أن

---

(١) د. سيد غنيم، المرجع السابق ص ١٠١.

(2) Tough, Joan, Focus on Meaning, Talking to Some Purpose With Young Children. London 1977.

(3) Ibid P. 11 - 27.

(٤) راجع د. السعران، اللغة والمجتمع ص ٣٩ وما بعدها.
وانظر أيضاً هذا البحث القسم الرابع.

الاختلاف فى استجابة الطفل وتكرارها أحياناً يتوقف على السياق أوالمقام Context الذى تتم فيه مثل: اللعب أو المحادثة أو التعلم، بل لقد اختلفت النتائج أحياناً باختلاف مكان اللعب مثلاً فى داخل البيت أو الملعب وهو ما لاحظته الباحثة التى أشرنا إليها من قبل.

تلك هى أهم الطرق التى استخدمها الباحثون فى دراسة اكتساب اللغة عند الطفل ونموها ، ولا شك أن تقدم الأجهزة العلمية والآلات الحديثة من تصوير وتسجيل وغير ذلك قد وضع فى أيدى الباحثين المعاصرين وسائل أكثر تطوراً ، ومع ذلك فما زالت تلك الطرق التى ذكرناها يعول عليها مع ما يقدمه العصر من وسائل حديثة لم تكن بين يدى الباحثين فى نهاية القرن الماضى ومطلع هذا القرن، مما أدى إلى كثير من الضبط والدقة فى نتائج مثل هذه الدراسات.

وقد اهتم الأستاذ خلف الله - رحمه الله - بهذه الطرق جميعاً ، فخصص لها الفصل الأول من كتابه: الطفل من المهد إلى الرشد، بأبوابة الثلاثة[1] ولأنه كان يشعر أنه يفتح مجالاً جديداً من البحث العلمى حرص أيضاً فى هذا الفصل على أن يقدم له بمقدمة عن أصول البحث العلمى بعامة كمدخل لدراسة طرق ومناهج دراسة اكتساب اللغة عند الأطفال، وفى هذه المقدمة يحدد مجالات البحث العلمى فى مجالين:

أحدهما : النظر فى قضايا العلم ومسائله ونتائجه.

والثانى: طرقه وخططه ومناهجه.

ويرى أن الناحيتين مرتبطتان تمام الارتباط، فالمعضلة - كما يقول - لا تتحدد فى شكل علمى إلا إذا وجدت طريقة علمية لعلاجها ، وكذلك تتوقف النتائج على خطط الدراسة وكلما تقدمت الخطط والنتائج تفرغت منها مسائل جديدة، لذلك فإن العلم فى تقدمه يسير من الوصف البسيط إلى التحديد والتنظيم والوصول إلى قواعد عامة ووضع هذه القواعد فى

---

(١) هكذا كان تقسيم الكتاب الفصل فيه يحتوى على أبواب

حدود كمية، ويرى أن علم النفس من أكثر العلوم خضوعاً لذلك، فدراسة نفسانية الطفل[1] ظلت مهملة من العلماء التجريبيين لأن الطرق المستعملة إذ ذاك، كانت مقصورة على البالغين ولم يكن الطفل موضوعاً للبحث النفسانى إلا فى الأيام الأخيرة تحت تأثير الترقى فى طرق البحث وخططه[2] غير أنه يرى أن المدرسة السلوكية الأمريكية كما تتمثل عند ثورندايك Thorndike وواطسن Watson هى التى تستحق أن يطلق عليها اسم المدرسة التجريبية الحقة[3] لأنها المدرسة الوحيدة التى طبقت مبدأ الملاحظة المباشرة على الأطفال وتقيدت بالطريقة الموضوعية التى تلاحظ التصرف وتسجله دون أن تدخل عليه من التأويل والتفسير الذاتى ما يثقل كاهلها.

ومع ذلك فهو لا يسلم تماماً لهذه المدرسة فى كل ما نادت به من الملاحظة المباشرة، ويرى أنه لا بأس من استخدام الاستنتاج العقلى أيضاً فيما يتصل بدراسة اللغة عند الطفل وذلك عن طريق مراقبة السلوك اللغوى للبالغين، ومن ثم فهو يتخذ لنفسه مذهباً وسطاً بين السلوكيين وبين أتباع العالم الألمانى كوفكا Kofka الذى قال بأننا يجب أن نضع أنفسنا مكان الطفل ولذا يعتمد على الاستنتاج العقلى مفترضاً أن ما يجول بخاطر الطفل يدور أيضاً بخلدنا، ويحدد الأستاذ خلف الله - رحمه الله - هذا المذهب الوسط بين الاتجاهين فيقول:

« ونحن نرى أن المذهب الوسط هو خير وأن الدراسة الموضوعية لا بد معها من استنتاج وتبويب قائمين بالطبع على لغة البالغين وطرق تفكيرهم »[4].

أما فيما يتصل بطرق الدراسة وخططها فهو يفصّل القول فى ذلك تفصيلاً[5] غير أننا يمكن أن نجمل ما فصله من طرق وأساليب لدراسة اللغة عند الطفل فيما يلى:

---

(١) اقترح الأستاذ خلف الله - رحمه الله - فى مقال له نشرته صحيفة دار العلوم تخصيص مصطلح «نفسى» لما هو منسوب إلى النفس، ومصطلح «نفسانى» لما هو منسوب لعلم النفس. انظر، الطفل من المهد إلى الرشد، هامش ص ٢ - ٣.

(٢) الطفل من المهد إلى الرشد ص ٢

(٣) المرجع السابق ص ٤

(٤) الطفل من المهد إلى الرشد ص ٥

(٥) المرجع السابق ص ٧ - ١٤

أولاً - الملاحظـــة :

وتنقسم عنده إلى قسمين:

(أ) العرضية : وهى تتبع الظواهر كما تحدث بلا ضابط لظروفها أو تحديد لنماذجها أو تبويب لأنواعها وهو يرى أن مثل هذه الملاحظة العرضية لا يمكن أن توصف بأنها علمية لأن البحث العلمى يقوم على انتقاء الأحوال وإدماجها تحت نظام خاص.

(ب) المنظمة : وهى التى تعتمد على الاختيار، فقد يختار الباحث حالة خاصة أو سلسلة من الحالات، شريطة أن تخضع لنظام محدد يضعه الباحث لنفسه على أن يتم ذلك بطريقة طبيعية غير مصطنعة وإلا خرجت الدراسة من حيز الملاحظة المباشرة إلى دائرة التجربة.

ثم يذكر طريقتين اتبعتا فى اخضاع الملاحظة المباشرة للضبط وهما :

(أ) طريقة التحليل الظرفى : وتعتمد على تحليل الأحوال والظروف المختلفة التى يحدث فيها التصرف من الطفل، كأن نوازن مثلاً بين تصرفات الطفل اللغوية أثناء اللعب وحده أو مع رفيق له.

(ب) طريقة النموذج الزمنى : وتقوم على اختيار نماذج من سلوك الطفل اللغوى ومراقبتها فى مدد زمنية معينة. كأن نتبع كلام الطفل زمناً خاصاً كل يوم لمدة أسبوع لنرى مدى استعماله للأسماء أو الضمائر أو الأفعال أو غيرها من أجزاء الكلام[1]

ثانيا - الطريقة التنقيبية :

ترمى إلى جميع المعلومات اللغوية عن الطفل واستيفائها من مصادر مختلفة ويتم ذلك بإحدى الطرق الآتية:

(أ) خطة ترجمة الحياة : وتعتبر وسيلة وسطاً بين الملاحظة العرضية والملاحظة المنظمة إذ إن فيها شيئاً من الاختيار والتنظيم، وتقوم على معرفة سيرة حياة الطفل

---

(١) المرجع السابق ص ٨

(ب) الخطة الاستنبائية : وتقوم على إعداد مجموعة من الأسئلة تدور حول موضع محدد تلقى على الطفل أو على مجموعة الأطفال.

(جـ) خطة التحليل النفسى : وتعتمد على النفوذ إلى أغوار النفس باستخدام أنواع من الربط الحر والمقابلات وتأويل الأحلام، وأكثر ما تستعمل هذه الطريقة فى تشخيص حالات مرضى الكلام من الأطفال أو البالغين.

(د) خطة الحوار : وتقوم على محادثة الطفل محادثة مرسومة منظمة تدور حول موضوع خاص، كأن تدور حول بعض الظواهر الجوية أو غيرها ويدون هذا الحوار.

ثالثاً : القياس أو الشعبة الكمية :

وتعتمد على ثلاث طرق هى:

(أ) القياس المباشر : كأن نقيس قوة تذكر الطفل للمقاطع اللغوية التى لا معنى لها أو الزمن الذى يستغرقه فى هجاء الكلمات.

وهنا يشير إلى الطريقة «الطولية» والطريقة «المستعرضة» اللتين سبقت الإشارة إليهما[1] ثم يقول «ولكل من هذين مزاياه ونقائصه إلا أنهما يستعملان ليصحح أحدهما الآخر»[2].

(ب) القياس غير المباشر : ويتصل بقياس قدرات خاصة مثل الذكاء أو الظواهر النفسية والعقلية المعقدة وليس له صلة مباشرة بالكسب اللغوى ونحوه.

(جـ) خطة الترتيب : وتتناول مجموعة من المؤثرات أو الأحوال أو الأشخاص وترتب وفق معيار خاص كأن يكون معياراً لغوياً مثلاً ثم يعبر عن هذا الترتيب برسم بيانى.

رابعاً - التجربة :

وهى، كما يقول، سلاح البحث العلمى الصحيح وهدف ولب هذه

---

(١) راجع هذا البحث - القسم الثانى.
(٢) الطفل من المهد إلى الرشد ص ١٠.

الطريقة من حيث ضبط الظروف المحيطة بخطط مصطنعة دون انتظار لحدوث الظواهر فى محيطها الطبيعى ومعنى هذا أن حجر الزاوية فى التجربة هو ضبط العوامل المؤثرة[١].

تلك هى طرق البحث أو طرق دراسة النمو اللغوى عند الطفل كما عرض لها الأستاذ خلف الله - رحمه الله - ويلاحظ أنه لم يقتصر على ذكر الطرق المتبعة فى دراسة اكتساب اللغة، وإنما عرض لبعض الطرق التى تطبق أيضاً فى دراسة جوانب نفسية وعقلية أخرى، مثل الذكاء والعقد النفسية كما نلاحظ أيضاً اهتمامه بعرض بعض الطرق التى مازال الباحثون يهتمون بها حتى اليوم وأشرت إليها من قبل وخاصة فى دراسة اللغة عند الطفل وهى:

١ - طريقة الملاحظة المباشرة.

٢ - الطريقة المستعرضة (العرضية).

٣ - الطريقة الطولية[٢].

كما نلاحظ كذلك أن الطرق التى عرضها كلها من وضع علماء وباحثين فى ميدان الدراسات النفسية وليس من بينها طريقة واحدة قائمة على منهج لغوى مثل تلك الطريقة التى اقترحها العالم اللغوى فيرثFarth لدراسة لغة الأطفال[٣] وكان فيرث من علماء اللغة الذين ذاعت شهرتهم فى النصف الأول من هذا القرن، وهى الطريقة التى اتبعتها جوان توفJoan Tough فى السبعينات فى دراسة لغة الأطفال والتى عرضنا لها من قبل[٤].

وبعد أن ينتهى الأستاذ خلف الله - رحمه الله - من عرض طرق ومناهج دراسة لغة الطفل من حيث هى مدخل لدراسة اكتساب الطفل اللغة، ينتقل إلى الجوانب اللغوية الخالصة من الموضوع ويبدأ فى تعريف اللغة ووظيفتها وهو ما سنخصص له القسم الثالث من هذا البحث.

---

(١) المرجع السابق ص ١١

(٢) راجع هذا البحث - القسم الثانى.

(٣) انظر د. السعران، اللغة والمجتمع، ص ٣٩ - ٤.

وانظر أيضاً علم اللغة، ص ٣٤ - ٣٤١

(٤) راجع هذا البحث - القسم الثانى.

٣ - تعريف اللغة ووظيفتها

لا شك أن وضع تعريف جامع مانع للغة أمر ليس باليسير كما قد يتبادر إلى الذهن ولعل علماء اللغة لم يختلفوا - وكثيراً ما يختلفون - حول أمر من أمور اللغة كما اختلفوا حول وضع تعريف دقيق لها، حتى يبدو لنا أحياناً أن الهدف النهائى من الدراسات اللغوية كلها بمناهجها ومدارسها المختلفة ليست إلا محاولة لفهم هذه الظاهرة التى تسمى اللغة، للوصول إلى تحديد دقيق لها ومن ثم تعريفها. ولعل أيضاً صعوبة تعريف اللغة على هذا النحو ناجم عن طبيعة اللغة ذاتها[1].

فنحن نعلم أن اللغة فضلاً عن كونها عربية أو إنجليزية أو حبشية أو صينية، ظاهرة عقلية وعضوية خاصة بالإنسان دون غيره من الكائنات الحية، فهى صفة مميزة للنوع البشرى ولعل هذا ما دعا أرسطو لتعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق، وما دامت اللغة بهذه الصفة، فهى تطرح على الباحث ما لا يحصى من المشاكل والمسائل، ما علاقتها بالفكر؟ وما علاقتها بالنفس؟ ما مكانتها فى حياة الفرد والجماعة؟ كيف ظهرت فى حياة البشر؟ وكيف تطورت ونمت؟ ولماذا هذا التنوع والتعدد فى الألسنة؟ وما علاقة بعضها ببعض؟ وغير ذلك مما لا يكاد يحصى من المسائل والمشاكل التى قد تؤدى فى النهاية إلى معرفة الإنسان فى ذاته فى أكمل صور المعرفة وأوضحها. ولذلك يقف الباحث أمام هذه الظاهرة بكل أهميتها وغموضها وتعقيدها محاولاً الكشف والتفسير والتحليل، ومن هنا أيضاً ظهرت فى تاريخ الفكر اللغوى تعريفات متعددة اختلفت وتداخلت وتعارضت أحياناً تبعاً لتعدد المدارس اللغوية والفكرية التى ينتمى لها علماء اللغة وغيرهم من العلماء الذين اهتموا بهذه الظاهرة، يستوى فى ذلك القدماء والمحدثون والمعاصرون ومن ثم يصبح من الصعب دراسة التعريفات المختلفة التى وضعها علماء اللغة وفحصها

---

(1) Crystal, op. cit PP. 239 - 244.

فحصاً علمياً ،إذ تحتاج إلى درس مفرد يتتبعها تتبعاً تاريخياً سواء عند اللغويين أو غيرهم من الباحثين والعلماء ولذا سنكتفى هنا بعرض ثلاثة تعريفات ينتمى كل تعريف منها إلى مدرسة لغوية مختلفة لكى ننظر على هدى منها فى التعريف الذى قدمه الأستاذ خلف الله - رحمه الله.

من أقدم هذه التعريفات وأشهرها فى التراث العربى التعريف الذى وضعه العالم العربى أبو الفتح عثمان بن جنى (ت ٣٩٢ هـ) يقول فيه:

«أما حدّها فهى أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[(١)]

وقد تناول هذا التعريف عدد من الباحثين المعاصرين فى علم اللغة[(٢)] وذلك على ضوء ما انتهى إليه الفكر اللغوى الحديث وانتهوا جميعاً إلى أن هذا التعريف يتضمن عدة حقائق تتصل بماهية اللغة ووظيفتها وهى:

١ - الطبيعة الصوتية للغة.

٢ - الوظيفة الاجتماعية للغة من حيث كونها أداة للتعبير والاتصال.

٣ - اختلاف اللغة باختلاف المجتمع.

أما التعريف الثانى الذى تداوله أيضاً بعض الباحثين وارتضاه عدد منهم وعلى رأسهم أستاذنا الدكتور حسن ظاظا كتعريف دقيق للغة فهو التعريف الذى وضعه عالم اللغة الأنثروبولوچى إدوارد سابير E. Sapir (ت ١٩٣٩م) يقول:

«اللغة ظاهرة إنسانية وغير غريزية لتوصيل العواطف والأفكار والرغبات عن طريق نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية»[(٣)].

وهذا التعريف يضع بين أيدينا الحقائق التالية عن اللغة:

١ - اللغة نشاط إنسانى مكتسب وليس غريزياً.

---

(١) انظر الخصائص، ١/ ٣٣

(٢) انظر على سبيل المثال ما كتبه د. عبده الراجحى حول ذلك فى كتابه فقه اللغة فى الكتب العربية وانظر أيضاً د محمود فهمى حجازى، مدخل إلى علم اللغة.

(٣) انظر Sapir, E. Language P 8.

وانظر أيضاً شرح وتعليق أستاذنا د حسن ظاظا على هذا التعريف فى كتابه، اللسان والإنسان ص ٢٨ وما بعدها

٢ - اللغة وسيلة للاتصال الإنسانى.

٣ - اللغة نظام.

٤ - اللغة رموز.

٥ - اللغة اصطلاح.

٦ - اللغة أصوات إنسانية.

وأما التعريف الثالث والأخير فقد وضعه عالم اللغة المعاصر نعوم تشومسكى Chomsky يقول «اللغة ملكة فطرية عند المتكلمين بلغة ما لفهم وتكوين جمل نحوية»[١].

وهو يستند فى تحديده للغة على ثنائيته التى نادى بها وهى:

القدرة Competence والآداء Performance،حيث تمثل القدرة عنده تلك المعرفة اللغوية التى يولد بها الطفل ويرى أن أهم مقومات هذه القدرة هى معرفة الفرد بالقواعد النحوية التى تربط المفردات بعضها ببعض فى الجملة بالإضافة إلى معرفة مجموعة أخرى من القواعد أطلق عليها مصطلح القواعد التحويلية Transformational Rules وهذه المعرفة عنده هى التى تمكن الفرد من توليد Generate الجمل النحوية المقبولة فى لغة معينة. كما يرى أن هناك جانبين لا مناص من الاهتمام بهما لفهم اللغة الإنسانية وهما:

١ - جانب الآداء اللغوى الفعلى وهو يمثل ما ينطلق به الإنسان فعلاً أى يمثل ما أطلق عليه مصطلح البنية السطحية Surface Structure.

٢ - القدرة العميقة والتى تتمثل فيما أطلق عليه مصطلح البنية العميقة Deep structure ومن ثم فهو يرى أن الآداء، ممثلاً فى البنية السطحية عنده، يعكس صوتياً وصرفياً ونحوياً ودلالياً ما يجرى فى عمق التركيب من عمليات[٢].

---

(١) انظر: Chomsky, A spects of The Theory of Syntax P 59.
وانظر أيضاً: Hartmann and Stork, OP, cit P. 59.

(٢) انظر حول نظرية تشومسكى وآرائه:

1 - Chomsky, Aspects of The Theory of Syntax.
2 - Green, OP. cit. PP. 23 - 27, 35 - 44.
3 - Lyons, Chomsky P. 166.

وباللغة العربية انظر أيضاً: د. عبده الراجحى، النحو العربى والدرس الحديث ص ١١٢ وما بعدها والفصل الأول من الكتاب

وبرغم أن تعريف تشومسكى يختلف فى ظاهره عن كثير من التعريفات التى قدمها بعض علماء اللغة، إلا أنه يضع بين أيدينا عدة حقائق جديدة عن اللغة هى:

١ - الإنسان مزود بقدرة لغوية فطرية عامة تمكنه من استخدام اللغة.

٢ - أن الجمل - وليس المفردات - هى محور نشاط الاتصال الإنسانى أداء وفهماً.

٣ - اللغة وسيلة لفهم طبيعة العقل البشرى.

من هذا كله نستطيع أن نتعرف على عدة حقائق أساسية تتصل بماهية اللغة ووظيفتها وتتمثل هذه الحقائق فيما يلى:

١ - اللغة أصوات إنسانية إرادية.

٢ - وظيفة اللغة الاجتماعية هى الاتصال والتعبير.

٣ - اللغة نظام رمزى.

٤ - اللغة نظام صوتى وصرفى ونحوى ودلالى.

٥ - اللغة قدرة فطرية عامة فى بنى الإنسان.

على ضوء هذه الحقائق كلها سنحاول النظر إلى تعريف اللغة الذى قدمه الأستاذ خلف الله - رحمه الله - يقول فى هذا التعريف:

«إنها نظام اصطلاحى مؤلف من رموز تعبيرية وظيفتها النفسانية أن تكون آلة للتحليل والتركيب التصوريين،ووظيفتها العملية أن تكون أداة للتخاطب بين الأفراد»[1] ثم يشرح ما أجمله فى هذا التعريف فيقول:

«كلنا يعلم أن الوظيفة الحيوية للغة هى تمكين الإنسان من الاتصال بأخيه الإنسان للتعاون على مهام لا يقوم بها الفرد وحده، وهذا الاتصال ييسره أن اللغة تجعل من المستطاع أن يوجه الشخص تفكير الآخرين وتصرفهم الخارجى، كما تجعل من الممكن على الفرد توجيه خطوات تفكيره وضبطها.

---

(١) انظر. الطفل من المهد إلى الرشد ص ١٦ - ١٧

واللغة من ناحيتها النفسانية آلة للتحليل والتركيب التصوريين، فإنك تستطيع بواسطة الكلمات أو الرموز أن تفرد نواحى أو أجزاء خاصة من الأحوال المعروضة على الحس وتركز عليها الانتباه، ومعنى ذلك أنك تحلل الحال المعروضة إلى تصورات، كل كلمة أو ركز يمثل تصوراً، فإذا ابتدأت من حيث انتهيت وجمعت الكلمات معاً ونظمتها فى مركب مفيد وصلت بطريق التركيب التصورى إلى إعادة بناء الحال فى جملة أو جمل متعاقبة، وكنت بذلك قد خدمت تفكيرك أو أسديت خدمة للآخرين»(١)

ثم يضرب مثالاً على فكرة التركيب التصورى هذه بقول شخص ما، جملة مثل: «الوردة البيضاء فى الزهرية على المكتب» قائلاً:

«فهذا القول فصل حالة حسية إلى عناصرها التصورية من (وردة) (بيضاء) (زهرية) (مكتب) (فى) (على) وسهل الطريق على سامعك أن يركب من كل أولئك فكرة عن الحال التى عرضتها عليه»(٢).

ثم يستأنف بعد ذلك شرح جوانب تعريفه فيقول:

«هذه الوظيفة النفسانية للغة وبغيرها لاتعتبر الأصوات كلاماً أو لغة، وهى الناحية التى تميز الإنسان من الحيوان وتُريك أهمية الوراثة الكبرى التى يرثها كل طفل من لسان أبيه وجده، ثم يختم هذا الشرح بقوله:

«ومن خصائص اللغة أنها تتألف من رموز تعبيرية وظيفتها أن تحفظ أمام الذهن معانى خاصة».

من هذا التعريف وذلك الشرح نستطيع بسهولة ويسر استخلاص بعض الحقائق حول اللغة ووظيفتها تتفق إلى حد كبير مع تلك التى ذكرها بعض علماء اللغة فى تعريفاتهم التى عرضنا لها من قبل، غير أننا نستطيع أيضاً أن نستخلص حقيقة هامة تجعل التعريف الذى قدمه الأستاذ خلف الله - رحمه الله - يختلف عن التعريفات التى قدمها علماء اللغة فهو يرى أن للغة وظيفتين أساسيتين هما:

---

(١) الطفل من المهد إلى الرشد ص ١٦.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

١ - الوظيفة النفسانية للغة وهى أنها آلة للتحليل والتركيب التصوريين.

٢ - الوظيفة العملية للغة وهى أنها أداة للتخاطب بين الأفراد.

وهذه التفرقة بين الجانب الفكرى فى وظيفة اللغة وبين الجانب العملى أو النفعى هى تفرقة هامة ذلك لأن الإنسان حينما استطاع أن يبتكر الرموز اللغوية ويستخدمها استطاع فى الوقت نفسه أن يحقق لعملية التفكير عنده استقلالاً عن العالم المادى بحيث أصبحت هذه الرموز ممثلة فى الكلمات، هى موضوع التفكير بدلاً من الأشياء ذاتها، وبذلك خطا الإنسان خطواته الأولى نحو التفكير المجرد، ولذلك نجد بعض علماء اللغة يفضلون استعمال مصطلح الاتصال Communication للتعبير عن هذا الدور المزدوج فى هذا المجال، وأدى ذلك إلى ظهور مبحثين من مباحث علم اللغة أو اللسانيات أحدهما قديم بحثه الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع وعلماء اللغة أيضاً وهو علاقة اللغة بالفكر حيث يتمثل الجانب النفسى والعقلى من اللغة تمثلاً واضحاً وهو جانب اختلفت فيه المدارس اللغوية فى تقدير أهميته وصلته بالدراسات اللغوية وخاصة التحليلية منها، ومع ذلك فكثير من علماء اللغة يفردون فصولاً من كتبهم أو كتباً خاصة لهذا الموضوع[1] غير أن هذا الجانب من جوانب اللغة، أعنى علاقة اللغة بالفكر، عاد مرة أخرى وأخذ مكان الصدارة فى المباحث اللغوية المعاصرة وخاصة على يد تشومسكى الذى اعتبر أن الهدف النهائى لعلم اللغة هو دراسة ومعرفة العقل الإنسانى، كما تصبح هذه التفرقة أمراً حاسماً إذا اتصل الأمر باكتساب اللغة عند الطفل.

أما الجانب العملى كما أسماه الأستاذ خلف الله - رحمه الله - فهو المبحث الثانى الذى انبثق من التأمل فى الجانب النفعى للغة وهو ما يعرف اليوم باسم علم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics وهو فرع حديث نسبياً من فروع علم اللغة التطبيقى Applied Linguistics ويتناول علم اللغة الاجتماعى دراسة الجانب العملى من اللغة أو الجانب النفعى من

---

(١) راجع د. حسن ظاظا، اللسان والإنسان ص ٧٦ - ٩٥.
وانظر أيضاً Caroll, Language and Thought P. 28.

الكلام ومستوياته المختلفة من كلام رسمى Formal Speech وكلام غير رسمى Informal Speech مراعياً فى ذلك السياقات Contexts المختلفة التى يستخدم فيها هذا الكلام أو ذاك سواء من النواحى السياسية أو الاجتماعية أو التطبيقية أو المهنية أو غير ذلك حيث تدور الدراسة حول استخلاص الملامح اللغوية الممثلة فى الأصوات والكلمات والتراكيب والدلالة لكل حالة من حالات استخدام الكلمات فى ظرف من الظروف أو فى سياق من السياقات(١).

ومن هنا تصبح هذه التفرقة بين الوظيفة الفكرية للغة والوظيفة العملية لها أمراً حاسماً فى تحديد ماهية اللغة ووظيفتها خاصة إذا ما اتصل ذلك بدراسة اللغة واكتسابها عند الأطفال حيث تظهر الوظيفة العملية النفعية للغة فى حياة الطفل قبل الوظيفة الفكرية لها.

غير أن الأستاذ خلف الله - رحمه الله - لا يكتفى بهذا التعريف ولكنه يتطرق أيضاً إلى العمليات المصاحبة للكلام الإنسانى، يقول: «إن قيام اللغة بوظيفتها تصحبه ثلاث عمليات:

إحداهما : الحركات العضلية المنظمة التى يقوم بها مجموعة من الأعصاب التى تصحب النطق بالأصوات.

والثانية : العمليات الحسية التى تمثل الجانب القابل أو التأثرى من وظيفة اللغة والتى توجه حركات الأعصاب وتنظيمها، ويقوم عادة بهذه الوظيفة حواس البصر والسمع والحركة، وفى حالة العمى والصم يقوم اللمس مقام الحاستين الأوليين.

والثالثة : العملية التأويلية وهى ترجمة الكلمات المسموعة أو الرموز المنظورة إلى معان مفيدة»(٢) أما العمليتان الأول والثانية فتتصلان بعملية التكلم (الإرسال) وأما العملية الثالثة فتتصل بعملية السمع والإدراك (الاستقبال).

وعلماء اللغة وخاصة علماء الأصوات منهم يضيفون إلى هاتين

---

(1) Trudgill, Sociolinguistics P. 103.

وانظر أيضاً الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٢) د. سعد مصلوح: دراسة السمع والكلام ص ١٢ وما بعدها.

الكلام ومستوياته المختلفة من كلام رسمى Formal Speech وكلام غير رسمى Informal Speech مراعياً فى ذلك السياقات Contexts المختلفة التى يستخدم فيها هذا الكلام أو ذاك سواء من النواحى السياسية أو الاجتماعية أو التطبيقية أو المهنية أو غير ذلك حيث تدور الدراسة حول استخلاص الملامح اللغوية الممثلة فى الأصوات والكلمات والتراكيب والدلالة لكل حالة من حالات استخدام الكلمات فى ظرف من الظروف أو فى سياق من السياقات[١].

ومن هنا تصبح هذه التفرقة بين الوظيفة الفكرية للغة والوظيفة العملية لها أمراً حاسماً فى تحديد ماهية اللغة ووظيفتها خاصة إذا ما اتصل ذلك بدراسة اللغة واكتسابها عند الأطفال حيث تظهر الوظيفة العملية النفعية للغة فى حياة الطفل قبل الوظيفة الفكرية لها.

غير أن الأستاذ خلف الله - رحمه الله - لا يكتفى بهذا التعريف ولكنه يتطرق أيضاً إلى العمليات المصاحبة للكلام الإنسانى، يقول: «إن قيام اللغة بوظيفتها تصحبه ثلاث عمليات:

إحداهما : الحركات العضلية المنظمة التى يقوم بها مجموعة من الأعصاب التى تصحب النطق بالأصوات.

والثانية : العمليات الحسية التى تمثل الجانب القابل أو التأثرى من وظيفة اللغة والتى توجه حركات الأعصاب وتنظيمها، ويقوم عادة بهذه الوظيفة حواس البصر والسمع والحركة، وفى حالة العمى والصم يقوم اللمس مقام الحاستين الأولين.

والثالثة : العملية التأويلية وهى ترجمة الكلمات المسموعة أو الرموز المنظورة إلى معان مفيدة»[٢] أما العمليتان الأول والثانية فتتصلان بعملية التكلم (الإرسال) وأما العملية الثالثة فتتصل بعملية السمع والإدراك (الاستقبال).

وعلماء اللغة وخاصة علماء الأصوات منهم يضيفون إلى هاتين

---

(1) Trudgill, Sociolinguistics P. 103.
وانظر أيضاً الفصل الرابع من هذا الكتاب .

(٢) د. سعد مصلوح . دراسة السمع والكلام ص ١٢ وما بعدها.

العمليتين عملية ثالثة لم يذكرها الأستاذ خلف الله - رحمه الله - وهى عملية انتقال الرسالة اللغوية فى الهواء من فم المتكلم إلى أذن السامع.

فالمتكلم عندما يصوغ فكرته فى قالب لغوى يجرى على مقتضيات اللغة المشتركة بينه وبين السامع، هذه العملية مرتبطة كما أشار الأستاذ خلف الله - رحمه الله - بنشاط المخ أو الجهاز العصبى فى المخ، وبهذا النشاط يتحقق للرسالة المنطوقة وجود لغوى لتنتقل بعده إلى طور جديد حيث تتولى وظائف المخ المختصة بضبط النشاط العصبى لأعضاء الجسم إرسال تعليماتها على هيئة مثيرات عصبية تنطلق عبر الممرات العصبية إلى أعضاء النطق فتنضبط حركاتها فى تتابع أو تزامن دقيق، بحيث تخرج لنا الصوت الصحيح فى موقعه الصحيح، وعندما تنشط أعضاء النطق لتعطى القالب اللغوى الصامت وجوداً مادياً يتحقق حينئذ للرسالة المنطوقة شكل آخر من أشكال وجودها ونعنى بذلك الوجود النطقى، وبذلك ينتهى دور الإرسال الذى يقوم به المتكلم، لتبدأ مرحلة انتقالية فيما بين المتكلم والسامع، حيث تؤدى عملية النطق إلى حدوث اضطراب فى الهواء على هيئة سلسلة من الضغوط والتخلخلات، فينشأ ما يسمى بالموجة الصوتية التى تمثل الطور الثالث من أطوار الرسالة المنطوقة أثناء انتقالها فى الهواء. وفى هذا الطور يتحقق للرسالة الوجود الفزيقى الذى يتم به نقل الرسالة بين المتكلم والسامع ،ليبدأ الوجه الآخر من عملية التواصل اللغوى، ونعنى به السمع أو استقبال الرسالة المنطوقة وفهم فحواها ويتم ذلك حينما تطرق الموجة الصوتية طبلة الأذن لدى السامع فتبدأ ميكانيكية السمع فى العمل بحيث يتحقق لها الوجود السمعى عن طريق مثيرات عصبية إلى المخ، وهنا يتم تفسير الرسالة المسموعة ولا يتم ذلك حتى تعود سيرتها الأولى ويتحقق لها مرة أخرى الوجود اللغوى عند السامع الذى يناظر الوجود اللغوى الذى تحقق لها فى البداية عند المتكلم.

مما سبق يتبين لنا أن مراحل نقل الرسالة اللغوية بواسطة الكلام تتضمن أربعة مستويات أساسية تتعاقب ثلاثة منها عند المتكلم وهى:

١ - المستوى اللغوى.

٢ - المستوى العصبى.

٣ - المستوى الفسيولوچى.

أما لدى السامع فينعكس الترتيب والتعاقب بين هذه المستويات ليصبح:

١ -- المستوي الفسيولوچي.

٢ -- المستوى العصبى.

٣ -- المستوى اللغوى.

أما المستوى الرابع وهو المستوى الفيزيقى فيمثل مرحلة وسطى بين المتكلم والسامع أو بين الإرسال والاستقبال، ومن هذا الترتيب أيضاً يتضح أن المستوى اللغوى يمثل نقطة البداية ونقطة النهاية فى الوقت نفسه، ومن هنا تستمد عملية اكتساب اللغة عند الطفل أهميتها، إذ لا بد للمتكلم والسامع أن يكونا على معرفة تامة برموز الشفرة اللغوية وكيفية حلها ليتمكنا من تحقيق التواصل عن طريق اللغة ومعنى هذا أن أى خلل يطرأ على هذه السلسلة فى إحدى حلقاتها يعوق عملية النمو اللغوى عند الطفل بل قد يفسد عملية الاكتساب اللغوى ويتمثل ذلك فى أمراض السمع والكلام عند الأطفال[١].

ولذلك عد الأستاذ خلف الله - رحمه الله - عيوب الكلام وأمراضه من الموضوعات الأساسية التى يهتم بها علم النفس اللغوى[٢] وهى أيضاً فرع من فروع علم اللغة النفسى Psycholinguistics الآن[٣].

على هذا النحو الدقيق عرف الأستاذ خلف الله - رحمه الله - اللغة ووظيفتها وأدرك أبعاد هذه الوظيفة فى صورها المختلفة، وهو إدراك يتفق فى كثير من جوانبه مع ما أسفرت عنه الدراسات اللغوية المعاصرة، ولكن هذا التصور لحقيقة اللغة ووظيفتها لا يبدو لنا فى إطاره الكامل دون أن نعرض لمراحل النمو اللغوى عند الطفل كما تصورها وقدمها لنا، إذ إن ذلك جزء من تصوره للغة من حيث هى ظاهرة إنسانية وميراث اجتماعى كما قال.

---

(١) د. سعد صلوح، دراسة السمع والكلام ص ١٢ وما بعدها.
وانظر أيضاً : د. مصطفى فهمى، أمراض الكلام ص ٤٣ وما بعدها.

(٢) انظر الطفل من المهد إلى الرشد ص ١٧.

(٣) راجع: Hartmann and Stork, op. cit P. 189.
وانظر أيضاً الفصل الثاني من هذا الكتاب.

٤ - اكتِساب اللغة ونموّها عِند الطفل

وبادئ ذى بدء لا بد أن نفرق بين لغة الأطفال Baby Talk أو Baby Language واكتساب اللغة عند الطفل. ذلك لأن لغة الأطفال عند علماء اللغة هى اللغة التى يتكلم بها الطفل مع البالغين أو التى يتكلم بها البالغون مع الطفل ويختص بدراستها علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics حيث تتميز لغة الأطفال بمستويات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية تختلف عن اللغة التى يستعملها البالغون فيما بينهم[1].

أما اكتساب اللغة Language acquisition عند الطفل أو تعلم لغة أجنبية كلغة ثانية Second Language فهماً من موضوعات علم اللغة النفسى Psycholinguistics كما أشرنا من قبل[2] والمقصود باكتساب الطفل اللغة هو دراسة المراحل المختلفة التى يمر بها الطفل منذ لحظة الميلاد حتى يستطيع التحكم فى لغة المجتمع الذى ولد فيه, ويستعملها غالباً حينما يصل إلي السنة الرابعة أو الخامسة من عمره على الأكثر.

وقد اعتمد الأستاذ خلف الله - رحمه الله - فى عرضه لهذا الجانب من حياة الطفل، على الأبحاث العلمية التى قام بها فريق من علماء النفس مستخدمين فى ذلك طرق الدراسة المختلفة التى أشرنا إليها فى القسم الثالث من هذا البحث. واعتماد الأستاذ خلف الله - رحمه الله - على دراسات علماء النفس فى هذا الصدد أمر لا يخطئه الباحث كما يتفق أيضاً مع نظرته للموضوع، إذ يضعه كاملاً فى نطاق الدراسات النفسية دون اللغوية، التى لم يكن قد شاع عنها حينما كتب كتابه عن الطفل (١٩٣٧م) اهتمام واضح بدراسة اكتساب الطفل اللغة من وجهة

---

(١) راجع: Crystal, Investigation English Style P. 3, P. 66.

(٢) راجع هذا البحث - القسم الأول.

وانظر أيضاً:

Campbell and wales, The Study of Language Acquisition in New Horizons in Linguistics (ed) by Jhon Lyons PP. 242 - 260.

النظر اللغوية وإنما كان اهتمام علماء اللغة بلغة الطفل منذ نهاية القرن الماضى وحتى أوائل هذا القرن لمعرفة أصل اللغة الإنسانية ونشأتها[١] وفى ذلك يقول ماريو باى Mario Pei:

«كان من الطبيعى أن يلجأ الباحثون إلى دراسة تطور مهارة الكلام عند الطفل منذ مولده إبان محاولتهم إلقاء الضوء على نشأة اللغة وتطورها، وعندما أجريت التجارب على أطفال أسوياء فى ظروف طبيعية انتهت فيما يتعلق بنشأة اللغة وتطورها إلى نتائج غير مقنعة، فكل ما دلت عليه هذه التجارب هو أن الطفل يحاكى حديث الكبار فى المجتمع الذى يعيش فيه»[٢].

غير أن الدعوة لدراسة اللغة دراسة علمية موضوعية أخرجت موضوع نشأة اللغة من موضوعات هذا العلم وتطورت دراسة اكتساب اللغة عند الطفل بحيث أصبحت من موضوعات علم اللغة النفسى حيث استعمل مصطلح اكتساب Acquisition بدلاً من مصطلح «تعلم» Learning نظراً لأن علماء النفس يستعملون المصطلح الثانى استعمالاً محدداً للدلالة على عملية التعلم مطلقاً ولذلك فضل الباحثون فى علم اللغة النفسى استعمال المصطلح الأول[٣] وبرغم أن علم اللغة النفسى لم يقدم حتى الآن دراسة متكاملة عن اكتساب الطفل اللغة إلا أننا نلاحظ فى بعض الدراسات التى قام بها بعض الباحثين أن الجانب اللغوى هو هدف علم اللغة النفسى الآن من دراسة اكتساب الطفل اللغة حيث نجد بعض الدراسات الفنولوچية والدلالية وقليلاً من الدراسات النحوية تتناول هذه الظواهر اللغوية بما لها من صلة باكتساب اللغة عند الطفل[٤] .

أما علماء النفس فقد قدموا الجانب النفسى والعقلى على الجانب

---

(١) راجع د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ص ١٠٩ - ١٢٤.
وانظر أيضاً فندريس، اللغة ص ٣١.
(١) المرجع السابق ص ١٢٣.
(١) انظر: Campbell and Wales op. cit P. 242.
(٢) انظر: Ibid PP. 253 - 254.

اللغوى الخالص واهتموا غالباً بوضع جداول زمنية لتطور اكتساب اللغة عند الطفل دون أن يلتفتوا بصورة دقيقة إلى التطورات اللغوية وهو ما يستدركه الآن علم اللغة النفسى الذى استفاد بلا شك من الدراسات النفسية فى اكتشاف جوانب هامة تصاحب عملية اكتساب اللغة.

ومع ذلك فقد كانت هناك محاولات من بعض علماء اللغة المحدثين لدراسة اكتساب اللغة ومن هؤلاء عالم اللغة الإنجليزى فيرث Farth الذى يرى أن تتبع مراحل النمو اللغوى عند الطفل ينبغى أن تكون مرتبطة بالتجارب الهامة التى تمر بها حياته وهذه التجارب كما يراها فيرث هى:

١ - مرحلة المهد Narsery وتبدأ منذ ولادة الطفل إلى ما قبل استطاعته الجلوس.

٢ - مرحلة الجلوس Sitting up وفيها تبدأ مرحلة الكلام واللعب بالدمى وغيرها.

٣ - مرحلة الحبو Crawling وفى هذه المرحلة يتسع عالم الطفل شيئاً ما لأن الحبو ينقله إلى أبعد من مجلسه.

٤ - مرحلة السير بمساعدة Walking with help وفى هذه المرحلة ينتقل الطفل إلى عالم أوسع وأرحب.

٥ - مرحلة السير وحده Walking Alone أى فى الأماكن القريبة من المنزل وحوله.

٦ - مرحلة السير خارج المنزل Walking outside وهى مرحلة أكثر حرية من السابقة.

٧ - مرحلة الذهاب إلى المدرسة فى المجتمعات التى يكون فيها مدارس أو مرحلة التربية الخالصة التى يتلقاها الطفل فى بيئته لتؤهله لنوع معين من العمل فى المجتمعات التى ليس بها مدارس وهذه المرحلة من أهم المراحل بالنسبة لاكتساب اللغة[1].

---

(١) راجع د. السعران، اللغة والمجتمع ص ٣٩ وما بعدها.

ويرى فيرث Farth أن كل مرحلة من هذه المراحل لها أثرها فى اكتساب الطفل جانباً من جوانب لغة المجتمع الذى يعيش فيه كما تتميز أيضاً بجوانب، لغوية مميزة.

هذه هى المراحل أو التجارب التى رأى فيرث أنه ينبغى دراسة اكتساب الطفل اللغة فى إطارها ، غير أن هذا الإطار لم يطبق - فيما نعلم - تطبيقاً كاملاً حتى الآن إلا فى دراسة جون تف Joan Tough التى أشرنا إليها من قبل والتى استغلت فيها فكرة فيرث فى ارتباط النمو اللغوى عند الطفل بالتجارب الشخصية له وطبقتها فى مجالات خاصة بهدف تعليمى، أى تنمية قدرة الطفل على التعلم لا على اكتساب اللغة[١].

أما عالم اللغة الدنمركى أتو جيسبرسن Jespersen فقد اقترح ثلاث مراحل لدراسة النمو اللغوى عند الطفل وهى:

١ -- مرحلة الصياح Vocalising Time

٢ -- مرحلة البأبأة Babbling Time

٣ -- مرحلة الكلام Talking Time

وتنقسم هذه المرحلة الأخيرة إلى المرحلتين:

(أ) فترة أسماها بفترة اللغة الصغيرة Little Language أى اللغة الخاصة بالطفل حيث يتفرد الطفل باستعمالات لغوية خاصة به.

(ب) فترة اللغة المشتركة Commen Language وهى الفترة التى يأخذ فيها الطفل فى الخضوع للغة الجماعة التى ينتمى إليها[٢]. وغنى عن القول أن كل فترة من هذه الفترات تتميز بخصائص لغوية صوتية وصرفية ونحوية ودلالية، وقد يطلق بعض الباحثين على المرحلتين الأولى والثانية «مرحلة ما قبل اللغة» Perlinguistics تمييزاً لها عن مرحلة الكلام[٣].

---

(1) Tough, Joan, op. cit. PP. 122 - 127.

(٢) د. السعران، اللغة والمجتمع ص ٤١.

(3) Morley, E. The Development and Disorders of Speech in Childhood P. 14.

وتلاحظ من هذا الجدول أنه قد أثبت بجانب مراحل النمو اللغوى مراحل النمو العقلى أيضاً من حيث تمييز الأشياء من خلال الصور وتعريف الكلمات وغير ذلك مما يميز الرقى العقلى عند الطفل بماله من صلة باللغة.

غير أن الأستاذ خلف الله -رحمه الله - لم يقف عند حدود دراسة جزل Gesell هذه وإنما تجاوزها إلى دراسات أخرى مثل دراسة بياچية Piaget التى لم يكتف بعرضها فقط وإنما ذكر أيضاً آراء العلماء فيها ونقدهم إياها[١] واستخدام هذه الدراسات أو نتائجها أحياناً فى شرح الجدول الزمنى الذى نقله عن «جزل»، وفيما يلى سنعتمد على التقسيم الثلاثى الذى اقترحه جيسبرسن Jesperson والذى أشرنا إليه لكى نعرض من خلاله مراحل اكتساب الطفل اللغة كما شرحها الأستاذ خلف الله. وأقرها بعض علماء اللغة المحدثين.

١ - مرحلة الصياح Vacalising Time :

وهذه المرحلة تمتد من مولد الطفل حتى الأسبوع الثالث، وقد تمتد حتى الأسبوع السابع[٢]. ويطلق الأستاذ خلف الله على هذه المرحلة اسم «مرحلة ما قبل اللغة» Prelinguistics[٣].

ويرى أنها تبدأ عقب ميلاد الطفل مباشرة، وتتمثل فى الصياح الذى يصدر عن الطفل ويفسر هذا الصياح على أنه نوع من ردود الفعل العكسية Reflexions التى ليس لها أى مغزى وجدانى أو ذهنى وإنما هى نتيجة مرور الهواء على الأوتار الصوتية Vocal Cords وهذا الصياح مهم من الوجهة اللغوية لأنه أول مظهر من مظاهر النطق وقد لوحظ- كما يقول - إن كثيراً من الأطفال عقب ولادتهم مباشرة يصيحون بأصوات مثل [ى] أو [آ] وقد تنتهى هذه الصيحات بمقاطع مثل (نج) أو (نغ)[٤].

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨.

(٢) د. السعران، اللغة والمجتمع ص ٤٢.

(٣) انظر: Morley, E., op. cit. PP. 14 - 15.

(٤) الطفل من المهد إلى الرشد ص ٢٢.

وقارن بـ: Morley, E. op. cit P. 16.

ويرى بعض علماء اللغة أن الصيحات التى تصدر عن الأطفال فى هذه المرحلة إنما هى صيحات عامة تكاد تكون واحدة عند جميع الأطفال وبالرغم من أن الصياح ليس كلاماً وليس الأصل فيه أن الطفل يريد أن ينقل أو يوصل شيئاً ما إلى غيره، إلا أنه هام بالنسبة للطفل من الناحية اللغوية فهو يساعده على التحكم فى أجهزة النطق وتدريبها كما يساعده على تنمية قدراته السمعية كما يكتسب خبرات نطقية وسمعية تساعد بعد ذلك فى مرحلة الكلام[١].

غير أن هذا الصياح بالنسبة لمن هم حول الطفل من الكبار يحدث شيئاً مما يحدثه الكلام حيث يقرأ فيه الكبار شيئاً ما، فيهرعون إلى الطفل عند سماعهم صياحه لإزالة ما به من ضيق، حتى يأتى وقت يلاحظ الطفل أنه عندما يصيح فإن شخصاً ما يهرع إليه ويرضيه بشئ ما، حتي ولو كان ذلك بمصاحبته إياه ليس غير. وعندما يدرك الطفل هذا فإنه قد يستعمل الصياح استعمالاً إرادياً إذا ما وقع فى ضيق، أو إذا ما أراد شيئاً، وهكذا تتحول الصيحة إلى عمل إرادى Voluntary action بعد أن كانت فى أول أمرها عملاً انعكاسياً Reflexaction[٢].

٢ - مرحلة البأبأة : Babbling Time

ولا تبدأ هذه المرحلة قبل الأسبوع الثالث من حياة الطفل، وقد لا تبدأ قبل أسبوعه السابع أو الثامن، ولكنها تمتد غالباً إلى نهاية السنة الأولى من عمر الطفل تقريباً[٣] ويطلق عليها الأستاذ خلف الله مرحلة الأصوات غير الدالة على معنى، وتدخل عنده أيضاً فى مرحلة ما قبل اللغة، ويحدد بدايتها بالأسبوع الثانى إلى الخامس من عمر الطفل، ويرى أن صوت الميم - ويسميه علماء اللغة فونيم Phoneme ويعبر عنه لغوياً /م/ - هو أول الحروف الساكنة ويسميها اللغويون الصامتة Consonant

---

(١) راجع: Morley, E. op. cit P. 14.

(٢) د. السعران، اللغة والمجتمع ص ٤٣.

وانظر أيضاً: Ibid P. 14.

(٣) د. السعران المرجع السابق نفس الصفحة.

مقابل الصوائت Vowels أى الحركات[١] يرى أن فونيم / م/ هو أول الصوامت ظهوراً، وبه يفسر ظهور الكلمات الدالة على الأم بصورة أسرع فى كثير من اللغات، ثم يتبعه فونيم / ب/ ولذلك كثيراً ما يكرر الطفل: ماما، بابا، بوبو ويكثر ذلك فى الشهر الثالث، أما فونيم /ل/ ، / ر/ فيجيئان متأخرين[٢].

ويرى أن هناك نظرتين تفسران نمو اللغة عند الطفل فى هذه المرحلة، إحداهما نادى بها بعض الباحثين خاصة هؤلاء الذين أجروا بحوثهم على طفل واحد وهى أن تركيب الأصوات ينمو من بسيطها إلى أن تتجمع عند الطفل منها مادة غفل تمكنه من بناء اللغة.

أما النظرية الحديثة - كما يقول - فقد قامت على بحوث قام بها العلماء على مجموعات كثيرة من الأطفال وترى أن مناغاة الأطفال تتكون فى البداية من أصوات لا حصر لها ناتجة عن مرونة أجهزة النطق وإنما يختار الطفل من بينها ما يسمعه فى لغة أهله، فيبقى هذا بالاستعمال ثم ينقرض ما عداه ويؤيد هذه النظرية ما يلاحظ أحياناً من أن الأطفال يتفوهون بأصوات ليس لها وجود فى أى لغة وأن الطفل أياً كان أبوه يتعلم اللغة التى يتعرض لها ويتكلم بها الناس من حوله[٣].

ويرى بعض علماء اللغة أن الطفل يصدر فى هذه المرحلة مجموعات من الأصوات تختلف عن تلك الأصوات التى كان ينطق بها فى مرحلة الصياح والأصوات الجديدة تكون أشد ملاءمة لأغراض الكلام، غير أن الطفل وهو يصدر مثل هذه الأصوات لا ينطق بها قاصداً أو مقلداً للأصوات التى يسمعها من حوله وإنما هى غالباً نشاط عضلى خالص وبسيط مثل تحريك اليدين والرجلين ، وقد يجد الطفل لذة فى إصدار مثل هذه الأصوات مثل ما يجد من لذة فى تحريك اليدين والرجلين والدليل على ذلك أن الأطفال الصم البكم تصدر عنهم أشباه هذه الأصوات وهم بالطبع لا يسمعون.

---

(١) راجع د. السعران، علم اللغة ص ٢٦ - ٣١.

(٢) الطفل من المهد إلى الرشد ص ٢٢ - ٢٣. وقد التفت الجاحظ إلي ذلك فقال: «إلا أن الميم والباء أول ما يتهيأ فى أفواه الأطفال». أنظر البيان والتبيين ١/ ٦٢.

(٣) الطفل من المهد إلى الرشد ص ٢٣.

وإذا كان الطفل فى أوائل هذه المرحلة ينطق أصواته غير قاصد أو غير مقلد فإنه يصل إلى وقت تقوى فيه حاسة السمع عنده ويجد متعة فى سماع الأصوات التى يخرجها هو نفسه، ثم تحدث خطوة بالغة الأهمية عندما يأخذ الطفل فى سماع أصوات متشابهة لما ينطق تنطقها أمه، لأن الأم غالباً عندما تسمع طفلها يخرج صوتاً أو ينطق مقطعاً لغوياً ترى فيه شبهاً باللغة فإنها سرعان ما تقبل عليه مسرورة ومكررة ما أخرجه من صوت أو مقطع وعندما يدرك الطفل المشابهة أو المماثلة فإنه يأخذ فى تكرير ذلك مستمتعاً به، ومع نهاية هذه المرحلة يكون الطفل قد تمكن من نطق عدد كبير من الفونيمات مكوناً منها سلاسل طويلة من مقطع واحد، والشائع أن أول ما ينطق الطفل يكون غالباً من الصوائت المفردة Singel Wowels أو صوائت يسبق كل منها صامت Consonant[1]

وصدد هذا يلاحظ بعض علماء اللغة أن هذه الأصوات التى ينطق بها الطفل وإن كنا نمثلها بالرموز الكتابية التى تمثل بها بعض أصواتنا إلا أن هذا من باب التجوز لا أكثر، لأن هذه الأصوات التى يصدرها الأطفال لا تتطابق مع نفس الأصوات التى يصدرها الكبار والتى تمثلها الرموز الكتابية.

ويرى الأستاذ خلف الله - رحمه الله - أن للتقليد Imitation دوراً فى هذا التكيف الذى يصيب الأصوات عند الأطفال فى هذه المرحلة، وصدد هذا يفرق بين نوعين من التقليد، أحدهما محاولة الطفل إحداث أصوات تشبه تماماً ما يسمع، وهذا - كما يقول - أقل حدوثاً من النوع الثانى الذى يحاول فيه الطفل تقليد الأصوات بصرف النظر عن الدقة أو النجاح فى المحاولة، ويحدد نهاية السنة الأولى وأوائل السنة الثانية من عمر الطفل لظهور هذا النوع من التقليد[2]

---

(١) انظر: Morley. E. op cit P 15 - 19.
وانظر أيضاً د. السعران اللغة والمجتمع ص ٤٤ - ٤٥
(٢) الطفل من المهد الى الرشد ص ٢٤ - ٢٥

بينما يرى بعض علماء اللغة أن فكرة التقليد فى هذه المرحلة لا تقوم على درجة كبيرة من التفكير الواعى وأن السبب الحقيقى فى نطق الطفل لبعض الفونيمات أو المقاطع أن العضلات الشفوية المستخدمة عادة فى نطق مثل هذه المقاطع أو الفونيمات هى نفس العضلات التى دربها الطفل فى الرضاعة من ثدى أمه أو من زجاجة ومن ثم أصبح تحكمه فيها أكبر وأقوى، كما يرى بعضهم أيضاً فى هذا محاولة لاكتساب النظام الفونيمى Phonological System للغة التى يسمعها الطفل حتى يستبعد شيئاً فشيئاً الأصوات التى لا تنتمى إلى هذا النظام[١].

٣ - مرحلة الكلام Talking Time :

ويسميها بعض الباحثين مرحلة استعمال اللغة Language Usage أو مرحلة النمو اللغوى Linguistic Development[٢] وتبدأ هذه المرحلة من حوالى نهاية السنة الأولى من عمر الطفل وتمتد سنوات طويلة ويقسمها الأستاذ خلف الله - رحمه الله - إلى قسمين:

القسم الأول ويسميه طلائع الكلام عند الطفل وفى القسم الثانى يتحدث عن قاموس الطفل، وهو يهتم فى المرحلتين بدراسة نمو الثروة اللفظية عند الطفل ومحصوله من الكلمات ويرى أن هناك وجه شبه بين اكتساب الطفل اللغة فى هذه المرحلة والبالغ الذى يتعلم لغة أجنبية ، حيث نجد أن من يتعلم لغة أجنبية غير لغته القومية يستطيع أن يفهم عدداً من الكلمات أكثر من تلك التى يستعملها فعلاً، كذلك الشأن عند الطفل حيث نجد أن الطفل قادر على فهم كثير من الكلمات التي يسمعها ولكنه لا يقدر على استعمالها أى أن فهم الطفل للغة يسبق قدرته على استعمالها.

ويحدد الشهر العاشر من عمر الطفل لبداية هذه المرحلة التمهيدية للكلام ، وغالباً أن أول كلمة ينطق بها الطفل هى اسم شخص معروف له

---

(١) انظر. Morley, E, op. cit P. 17.
وانظر أيضاً د السعران، اللغة والمجتمع ص ٤٦.

(2) Ibid P. 17.

أو شئ يحبه وغالباً ما تتألف من مقطع واحد مفرد أو مكرر وربما كانت اسماً أو فعلاً أو ظرفاً أو صفة[1].

كما لاحظ الأستاذ خلف الله - رحمه الله - أن الأطفال فى هذه المرحلة يفهمون الحركات والإرشادات ويستعملونها قبل أن يفهموا الكلمات، ولذلك عندما يستطيعون النطق ببعض المقاطع يضيفون إليها الحركات للدلالة على ما يقصدون.

ثم يصلون بعد ذلك إلى ما يسميه «مرحلة الجملة ذات الكلمة الواحدة» أو «الكلمة الجملة» فإذا قال الطفل مثلاً كلمة ماما فربّما أراد: «ماما أعطنى» أو «ماما انظرى» أو «هذه ماما»[2]، وهى مفردات تقوم بوظيفة الجملة، وقد رصد نحاة العربية هذا اللون من الكلمات الجمل فى لغة البالغين فى مثل قولهم «اللص» أو «الأسد» أو «الحريق»[3].

أما دراسته لقاموس الطفل، فهو يعتمد فيها على نتائج تطبيق الطريقة الكمية، التى تقوم على إحصاء وحصر كل الكلمات التى ينطق بها الطفل فى مرحلة معينة، ويرى أن الطفل يبدأ مع نهاية السنة الأولى من عمره بنطق كلمتين أو ثلاث كلمات ثم تبدأ الزيادة بطيئة ثم تتقدم بسرعة، حتى إذا ما بلغ الثالثة من العمر، فإن قاموسه اللغوى يصل إلى حوالى ألف كلمة، وهكذا حتى يصل قاموسه فى مرحلة الدراسة الثانوية إلى حوالى خمسة عشر ألفاً أو ثمانية عشر ألفاً[4].

وأما بالنسبة لدوران أجزاء الكلام من اسم وفعل وحرف، فيرى أن عدد الأسماء فى قاموس الطفل فى سن الثانية يبلغ حوالى ٥٠٪، أو ٦٠٪ وأن نسبة الأفعال تأخذ بعد ذلك فى الزيادة، ثم ينتهى إلى وضع مراحل نمو الكلمات والجمل على النحو التالى:

---

(١) الطفل من المهد إلى الرشد ص ٢٤ - ٢٥.
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٣) راجع شرح ابن عقيل على الألفية ٢/ ٢٣٥
أى احذر الأسد أو إياك واللص.
(٤) الطفل من المهد إلى الرشد ص ٢٥

١ - الكلمة الجملة وتستعمل من ٦ - ١٢ شهراً من عمر الطفل.

٢ - الجملة فى مراحلها الأولى من ١٣ - ٣٧ شهراً وتمتاز بكثرة الأسماء وندرة الأدوات.

٣ - الجمل القصيرة المكونة من ثلاث أو أربع كلمات.

٤ - الجملة الكاملة فى الرابعة من العمر تتكون من ست إلى ثمان كلمات وتمتاز بزيادة التحديد والتركيب واستعمال الأسماء الموصولة[١].

وسنلاحظ هنا أن معيار الجملة لم يتحدد بشكل دقيق فهناك الجمل القصيرة والجمل الطويلة، كما نلاحظ أيضاً أن القدرة النحوية على تركيب الجمل لم تحظ بعناية واضحة هل يدرك الطفل مثلاً الأشكال المجردة للجمل؟ أم يدرك القواعد النحوية التى يركب الجمل على هدى منها؟ وما دور التقليد فى تكوين الجمل؟ وكيف يتم ذلك. الواقع أن علماء النفس وكثيراً من علماء اللغة لم يستطيعوا الإجابة عن كثير من هذه التساؤلات حتى جاء تشومسكى بنظريته التى فسرت جانباً كبيراً من القدرة النحوية عند الطفل كما سنرى فيما بعد.

أما موقف علماء اللغة من هذه المرحلة - مرحلة الكلام - فقد اتفقوا مع علماء النفس فى أن هذه المرحلة تبدأ من حوالى نهاية السنة الأولى وتمتد إلى سنوات طويلة من عمر الطفل لذلك قسموها إلى مرحلتين، تشتمل كل مرحلة منها على فترات متغايرة ومتمايزة من الناحية اللغوية ومن هؤلاء أوتو جيسبرسن Otto Jessperson الذى رأى أن يقسم هذه المرحلة إلى فترتين:

أطلق على الأولى اسم فترة اللغة الصغيرة Little Language، أما الثانية فقد سماها فترة اللغة المشتركة Common Language[٢] ولا شك أن هذا التقسيم أدق وأيسر على الأقل من الناحية اللغوية، ولكن الواقع

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦.
(٢) د. السعران، [illegible] والمجتمع ص ٤٨ وما بعدها.

أن الطفل فى اكتسابه اللغة يمر فى كل فترة من هاتين بظروف كثيرة متغايرة يمكن فى دراسة أوسع وأكثر تفصيلاً اعتبارها مراحل مستقلة، فيما يلى سنلقى بعض الضوء على لغة الطفل فى هاتين الفترتين.

(أ) فترة اللغة الصغيرة Little Language :

ويقصد بهذا المصطلح أن اللغة التى يستعملها الطفل فى هذه الفترة لغة خاصة ينفرد بها وتبعد بعداً واضحاً عن اللغة التى يتعرض لها ويسمعها وكثيراً مما ينطق به فى هذه الفترة لا يكون مفهوماً إلا فى نطاق البيئة الضيقة فى بيته ومن قبل أفراد أسرته فقط مثل أمه وأبيه وإخوته أو من يشترك معهم فى عيشة واحدة، وبديهى أن الأم أو من يقوم مقامها هى خير من يفهم هذه اللغة حيث نجد كلام الطفل يبدو تعسفياً إلى حد كبير فقد سمعت طفلاً فى هذه السن يسمى اللحم «هُو» وآخر يطلق على اللبن «بَخْبَخْ»، ولكن شيئاً فشيئاً ومع نمو الطفل عصبياً وتحكمه فى سمعه يتخلص من خواص لغته الصغيرة هذه ويقترب شيئاً فشيئاً أيضاً من النظام اللغوى للغته القومية صوتياً وصرفياً ونحوياً ودلالياً.

(ب) فترة اللغة المشتركة Comman Language :

فى هذه الفترة يصبح كلام الطفل أكثر انتظاماً وأقرب إلى كلام الكبار وأوضح، عند من يحيطون به وعند الغرباء أيضاً ويستغرق هذا الأمر زمناً طويلاً:

١ - فى بداية هذه المرحلة نجد أن الطفل يحرف كثيراً من الكلمات العادية فى محاولته الدائبة للوصول إلى النظام الصوتى والنظام الفونيمى بحيث تصبح له قوانين صوتية وفنولوچية خاصة به ويستطيع عالم الأصوات أن يستخرج هذه القوانين الصوتية لطفل من الأطفال.

٢ - فى بداية هذه المرحلة أيضاً يجد الطفل صعوبة فى نطق بعض الأصوات وخاصة عندما تكون جزءاً من مجموعة صوتية أو مجموعات من الأصوات بينما هو قادر على نطقها مفردة فقد ينطق الطفل العربى مثلاً فونيم / ك/ مفرداً ولكنه فى كلمة مثل كتاب يحولها/ ت /فينطق

كتاب تنتاب أو يختصرها إلى تاب أو ينطق السكينة ستينة وقد ينطق /ش/ س / فينطق شعر (سعر) وقد ينطق /ع /أو /ح / ء/ فيقول فى نعم نأم، ويقوم فى خذ (أد) محولاً /ذ/ إلي / د/ أيضاً.

وكثيراً ماينطق الأطفال فى هذه الفترة جزءاً واحداً من الكلمة غالباً ما يكون المقطع الأخير منها وهو يطلق عليه علماء اللغة الاختصار Multilation فقد ينطق الطفل المصرى مثلاً:

١ -- منديل ← ديل　　٤ - بلكونة ← كونة
٢ -- كتاب ← تاب　　٥ - كباية ← آية
٣ -- مكرونة ← رونة　　٦ - زبادى ← بادى

٣ -- ومن المسموع أيضاً فى لغة الأطفال فى هذه المرحلة التضعيفات Reduplication وهى تختلف عن التضعيفات الموجودة فى لغة الكبار مثل زلزل ودمدم[1] وإنما هى تضعيفات يصنعها الطفل لنفسه مكوناً منها كلمات مثال ذلك من لغة الطفل المصرى:

١ - نام ← ننًا　　٢ - أكل ← مَمْ
٣ - مشى ← تَاتَا　　٤ - ضرب ← دِدّه

٤ -- وللطفل فى هذه المرحلة أيضاً قياسه اللغوى الخاص ويسمى القياس الخاطئ False Analogy حيث نجد الطفل يقيس ما لم يسمع على ما سمع وهذا القياس جزء من قدرته اللغوية التى أشار إليها عالم اللغة الأمريكى تشومسكى ويظهر هذا القياس فى محاولة الطفل اكتساب النظام المورفولوچى للغته Morphological System[2] ومن ثم يقع فى بعض الأخطاء، مثل ذلك فى لغة الطفل المصرى:

١ - أخضر ← أخضره

٢ - أحمر ← أحمره

---

(1) Hartmann and Stork, op. cit P. 193.

(٢) انظر كتابنا ... سة ودراسة لغوية معجمية ص ٦١ - ٦٤.

حيث نسمعه يعمم تاء التأنيث فى كل مؤنث أو يعمم مورفيم الجمع (ين) فيقول:

١ - أسد ← أسدين

٢ - ولد ← ولدين

٣ - كلب ← كلبين

٥ - كما يُلاحظ أن الطفل يكون قادراً على إدراك نغم الكلام Intonation[١] الذى يسمعه قبل أن يفهم دلالة الكلمات وهو جزء من محاولة تمثل النظام الصوتى والفونيمى أيضاً للغته حيث نجده قادراً على تمييز الكلام الذى يوجه إليه بحب وعطف،عن ذاك الذى يوجه إليه بغضب وحده.

هذا وقد لاحظ كثير من علماء اللغة وعلماء النفس أيضاً، أن الطفل لا يكاد يسمع الأصوات اللغوية مفردة، ولكنه يسمع كلمات وجمل سواء كانت - موجهة إليه أم تدور بين الكبار على مسمع منه، ومعنى هذا أنه لا يدرك الجانب الفونيمى أو المورفولوچى مستقلاً عن المعنى أو المعانى المرتبطة بها، وإنما هو يدرك الأصوات بمالها من ارتباط بالمدلول سواء على مستوي الكلمة المفردة أو الجملة، مثله فى ذلك مثل الكبار ولذلك غالباً ما يسبق إدراك المعنى عند الطفل قدرته على النطق بالكلمات التى تدل عليه، والدليل على ذلك أنه يستجيب غالباً لكلمات لا يستطيع النطق بها، فقد نطلب منه أن يجلس فيجلس، أو أن يقف فيقف، أو أن يحضر شيئاً فيحضره، أو أن يترك شيئاً فيتركه وهكذا، ولعل الصوت والنغم لهما دور فى ذلك.

ومع ذلك فإن إدراكه للكلمات التى تدل على محسوس، يسبق إدراكه للكلمات التى تدل على مجرد أو معنوى، فهو يدرك الكرسى والكوب والماء والحذاء والملابس وخاصة مما يستعمله، أكثر من إدراكه للمعانى

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤ - ٥٦.
وانظر أيضاً: Hartmann and stork, op. cit. P 117.

المجردة مثل الحب والحق والخير التى تتأخر كثيراً ، بل إن إدراكه لبعض المحسوسات مثل الهواء، قد يحتاج لفترة طويلة، ناهيك عن الكلمات المجازية، والكلمات التى يختلف معناها باختلاف السياقات التى تستعمل فيها ولذلك نرى الطفل فى هذه الفترة كثيراً ما يسأل: ما هذا ؟ ما اسم هذا ؟ ولماذا ؟ كما أنه يجد صعوبة فى إدراك الفروق الزمنية، فيخلط بين الصباح والمساء، وبين أمس واليوم وغداً، ومن ثم كثيراً ما يخطئ فى استعمال الزمن اللغوى.

ورغم كل هذه الجوانب الصوتية والصرفية والدلالية التى رصدها بعض علماء اللغة فى لغة الطفل فأنهم لم يستطيعوا أن يفسروا بطريقة مقنعة كيف يكتسب الطفل النظام النحوى Syntactic System حيث يعتمدون فى ذلك على القول بمبدأ التقليد، يستوى فى ذلك علماء اللغة وعلماء النفس[1] الذين يسلمون بأن الطفل يكتسب النظام النحوى عن طريق التقليد أو التلقين أو هما معاً، فما هو مفهوم التقليد عندهم؟ وما حدوده؟ وما دوره فى عملية الكسب اللغوى خاصة فيما يتصل بالنظام النحوى. هذا هو موضوع القسم الخامس والأخير من هذا البحث.

---

(١) انظر على سبيل المثال:

Morley, E, op. cit, PP. 17 - 18.

وانظر أيضاً الطفل من المهد إلى الرشد ص ٢٣ - ٢٤.

٥ - التقليد ودوره فى اكتساب اللغة

يحدد الأستاذ خلف الله - رحمه الله - دور التقليد وأثره فى اكتساب اللغة فيقول: «للتقليد أثر مهم فى تكيف الأصوات، ويعُده بعضهم أهم العوامل فيها، مستندين إلى أن المولود الأصم يعجز عن التكلم وأن الطفل الطبيعى يتكلم أية لغة يسمعها »[١] ثم يحدد الفترة التى يظهر فيها أثر التقليد بقوله «ويظهر أثر التقليد جلياً فى الشهر التاسع من العمر»[٢]، غير أنه يفرق بين مرحلتين من مراحل التقليد إحداهما : محاولة الطفل إحداث أصوات شبية تماماً بما يسمع وهذا - كما يقول - أقل حدوثاً. أما الثانية فهى التقليد الذى يحاول فيه الطفل تقليد الأصوات بصرف النظر عن الدقة والنجاح فى ذلك ويرى أن النوع الثانى أكثر ظهوراً فى المراحل الأولى من العمر[٣].

ومما يلفت النظر هنا، أنه حدد دور التقليد أو مجاله فى مستوى الأصوات دون صوغ الكلمات أو الجمل ويشترك معه فى ذلك عدد كبير من علماء النفس الذين درسوا ظاهرة اكتساب الطفل اللغة فى الاهتمام بعنصر التقليد أو المحاكاة، بل إن بعضاً منهم يعتبرون التقليد المرحلة الثالثة بعد مرحلتى ما قبل اللغة ومرحلة المناغاة، أى تلك المرحلة التى تتحول فيها المناغاة إلى كلمات فيما أطلق عليه علماء اللغة مرحلة الكلام وأشرنا إليه قبلاً.

ومن هؤلاء العلماء جزل Gesell وبيلىBaley ولويس Lewis وجيرنساى Gernsey وغيرهم[٤] ويستند «لويس» إلى دراسة قام بها «جيرنساى» على نحو مائتى طفل ممن تقع أعمارهم بين شهرين وواحد وعشرين شهراً، لكى يحدد مراحل التقليد وتطوره فى ثلاث مراحل هى:

---

(١) الطفل من المهد إلى الرشد ص ٢٣.
(٢) المرجع السابق - نفس الصفحة.
(٣) الطفل من المهد إلى الرشد ص ٢٤.
(٤) انظر صالح - الشماع. اللغة عند الطفل ص ١٠١ - ١١٥.
وانظر أيضاً د. سيد غنيم، المرجع السابق ص ١٠٥ - ١٠٦.

١ - المرحلة الأولى : وهى التى يستجيب فيها الطفل إلى نطق الآخرين، بإصدار أصوات أشبه ما تكون بتقليد صوتى ساذج وتشغل هذه المرحلة فترة الشهور الثلاثة أو الأربعة الأولى من حياة الطفل.

٢ - المرحلة الثانية : وهى مرحلة توقف أو نقصان للاستجابات الصوتية التى تتميز بها المرحلة الأولى وتقع هذه المرحلة بين الشهرين الخامس والتاسع.

٣ - المرحلة الثالثة : وهى التى تتميز يالتقليد المقصود والتى تظهر فى حوالى الشهر التاسع من عمر الطفل(١).

غير أن بعض الباحثين لا يوافقون على اعتبار المرحلة الأولى من التقليد فى شئ وإنما هى مرحلة أقرب إلى اللعب الصوتى أو المناغاة التلقائية وبالتالى يقسمون التقليد إلى مرحلتين:

١ - التقليد غير المقصود.

٢ - التقليد المقصود.

ويصف مكارثى Macarthy التقليد تحت الثنائيات الأربع التالية:

١ - تقليد تلقائى وإرادى أى ما يقصد به الطفل أن يقلد وآخر لا يقصد فيه الطفل التقليد أو المحاكاة.

٢ - التقليد مع فهم وآخر بدونه.

٣ - تقليد عاجل وآخر آجل.

٤ - تقليد دقيق وآخر غير دقيق(٢).

وهذه الأنواع متداخلة وغير ثابتة ولذلك اختلف العلماء والباحثون فى تحديدها بالنسبة لعمر الطفل اختلافاً يؤدى للبس والاختلاط.

أما علماء اللغة فقد أشاروا أيضاً فى دراستهم إلى عنصر التقليد ودوره فى اكتساب اللغة وخاصة فى مرحلة الكلام الفعلى أى مرحلة اللغة المشتركة غير أنهم يعطون أهمية خاصة للتلقين والتكرار فيما يسميه علماء النفس التدعيم السمعى. يقول أستاذنا المرحوم الدكتور محمود السعران.

---

(١) انظر د. سيد غنيم، المرجع السابق نفس الصفحات.

(٢) صالح الشماع، المرجع السابق ص ١١٢.

«يتعلم الطفل آخر الأمر لغة جماعته، ومما يعينه على ذلك قدرته الفائقة على التقليد وما يجده من عناية ممن حوله من الكبار ولا سيما الأم، فالأم أو من يقوم مقامها تظل تناغيه وتكرر على مسمعه دون أن تمل الكلمات والجمل والعبارات والأغانى والأناشيد حتى عندما تعرف أنه لا يفهم عنها ولكنهما يجدان - الطفل والأم - فى ذلك من المتعة ما يدعوهما إلى الاستغراق، وهكذا يسمع الطفل الكلمات والجمل مرات ومرات بطريقة محببة ويجد من تشجيع من حوله ما ييسر له الطريق، فينفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية فى نطق الأصوات وصوغ الكلمات، أو فى تركيب الجمل، أو فى مدلول الكلمات، فالأب والأم والأخوة والأخوات والأقارب والرفاق الكبار أو الخدم لا يزالون يصححون له أخطاؤه وإن كانوا أحياناً يعملون على استبقاء بعض الأخطاء استملاحاً واستظرافاً»[1].

التقليد والتلقين هما إذن الوسيلتان اللتان اجتمع علماء النفس وعلماء اللغة أيضاً على التسليم بدورهما الفعال فى اكتساب الطفل اللغة أصواتاً وكلمات وجملاً، ولعل حادثة أبى الأسود الدؤلى مع ابنته والتى أشرنا إليها فى السطور الأولى من هذا البحث تؤيد ذلك وتدعمُه أيضاً.

ولكن إذا سلمنا بالتقليد والمحاكاة على المستوى الصوتى والفنولوچى، فكيف نسلم بهما على المستويين المورفولوچى والنحوى ، كيف يدرك الطفل الفرق بين قولنا رجل والرجل؟ كيف يتصور الفرق بين الجمل الاسمية والجمل الفعلية ناهيك بالجمل المنفية والاستفهامية والتعجبية؟ بل كيف يفهم طريقة الربط بين جملتين وأداة الربط المناسبة ، إن التقليد رغم التعريفات والتقسيمات التى مرت علينا فيما قبل، يعنى أن الطفل لا يستطيع أن ينطق إلا بما سمع قبلاً سواء نطقاً جيداً أو نطقاً رديئاً، ومعنى هذا أنه يشبه شريط التسجيل الجيد أو الردئ، أو يشبه الممثل الذى يلتزم التزاماً تاماً بالنص الذى يلقنه له الملقن لا يخرج عليه أو يبدل فيه وإن فعل فهو فى جميع الأحوال ممثل، لكنه ردئ، وهو ما لا نشاهده أو نسمعه

---

(١) اللغة والمجتمع ص ٥٣
وانظر أيضاً: Marley. E. op. cit., P.18.

فى مراحل اكتساب اللغة، إن الطفل كما رأينا أيضاً من قبل يغير ويبدل فى الأصوات أو الفونيمات بنطق صوت أو فونيم فى كلمة ولا يستطيع أن يلفظ بباقى الأصوات أو الفونيمات فيختصرها أو يسقطها، وهنا قد يقال- وقد قيل فعلاً - إن أعضاء النطق عند الطفل لم يكتمل نموها، وأن الطفل لم يتحكم فيهما بعد، أو غير ذلك من الأسباب التى قد تفسر جانباً من أخطاء الطفل فى مراحل اكتساب اللغة.

ولكن إذا عرفنا أن الأمر ليس أمر صوت هنا أو فونيم هناك، وإنما الأمر أمر نظام لغوى Linguistics System بمعنى أن اللغة أية لغة فى الدنيا هى عبارة عن عدة نظم تصب فى النهاية فى نظام واحد نسميه النظام اللغوى للعربية أو الإنجليزية أو غيرهما من اللغات فهناك النظام الصوتى والنظام الفنولوچى والنظام المورفولوچى والنظام النحوى والنظام الدلالى، كيف يدرك الطفل ابن الثالثة أو الرابعة على الأكثر هذه النظم، وهى ليست ممثلة بشكل حسى فيما يسمع أو يقلد، كيف يعرف مثلاً أن تغير أى فونيم فى تركيب الكلمة يؤدى إلى تغير الكلمة نفسها، كيف يعرف أن مد أى حركة أكثر من اللازم يؤدى إلى تغير الكلمة مبنى ومعنى، ومع ذلك يبقى سؤال هام يحتاج إلى إجابة دقيقة وهو: كيف يتفوه الطفل بجمل من الواضح أنه لم يسمعها قط من قبل؟ كيف يصوغ هذه الجمل فى القالب النحوى؟ ناهيك عن النظام الصوتى والفنولوچى على مستوى مفرداتها؟ وهل يمكن أن نتصور أن الطفل عندما يتفوه بأى جملة يكون بالضرورة قد سمعها من قبل؟ قد يقال إنه سمع مثلها فكيف إذن يقيس ما لم يسمع على ما سمع؟ كيف نتصور مثلاً أن طفلاً فى الثالثة أو الرابعة من العمر وهى المرحلة التى تكتمل فيها قدرة الطفل اللغوية أنْ يقوم بدور النحوى أو اللغوى الذى يدرك أصول اللغة إدراكاً عقلياً نتيجة التعلم، كيف يدرك مثل هذا الطفل علاقات الإسناد ناهيك عن إدراك الفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر والفعل فى أزمنته المختلفة، إن الطفل فى هذه السن ينطق بسيل من الجمل المبنية بناء نحوياً محكماً وهو يذهب، إلى المدرسة وقد أتقن آلة الكلام تماماً، بل إنه يستعمل اللغة استعمالاً تلقائياً دون أى جهد يشى بعمليات قياس سابق على لاحق.

من المستحيل إذن أن نتصور أن كل جملة يتفوه بها الطفل لا بد أن يكون قد سمعها من قبل، كما يوحى بذلك مصطلح التقليد أو المحاكاة ومن ثم يبقى سؤال هام وأخير، من أين للطفل هذه القوة الإبداعية فى استعمال اللغة؟ إن التقليد لا يستطيع أن يفسر هذا الجانب من جوانب اكتساب اللغة، بل إننا لا نكاد نجد إجابة محددة وشافية من خلال الدراسات الكثيرة التى قام بها علماء النفس وعلماء اللغة أيضاً ممن خصوا فكرة التقليد أو المحاكاة بالدراسة، والبحث، ومن هنا نجد أنفسنا أمام مبررات علمية ولغوية تدعو إلى إعادة النظر فى فكرة التقليد ودورها فى اكتساب اللغة وهى المبررات التى دعت عالم اللغة الأمريكى المعاصر نعوم تشومسكى إلى رفض فكرة التقليد أو على الأقل زعزعة وجودها الثابت المستقر ودورها فى اكتساب اللغة منذ أواخر القرن الماضى حتى النصف الأول من هذا القرن.

وفى هذا الصدد ينطلق تشومسكى من قدرة الطفل فى سن معينة - غالباً ما تكون الرابعة أو الخامسة على الأكثر - على تكوين جمل صحيحة نحوياً لم يسمع بها قط من قبل، وهو يرجع هذه القدرة إلى ما يسمى بالملكة الفطرية Innate Property أو ما يسميه أحياناً بالأصول غير الواعية للغة Language Unconscius Principles[1] وهو يستند فى القول بهذه القدرة وتلك الأصول إلى فلاسفة القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديين وعلى رأسهم ديكارتDescartes الذى رأى أن للإنسان قدرات فريدة لا يمكن تفسيرها تفسيراً آلياً وإن صلح هذا التفسير أحياناً فى ميدان الوظائف الحيوية والسلوكية للإنسان، وأن أظهر هذه القدرات وأعظمها هى اللغة الإنسانية التى لا تحدها أية ارتباطات أو قوالب تعبيرية ثابتة نتيجة لمؤثرات خارجية أو حالات فسيولوجية ومن ثم فهى صورة للعقل البشرى باعتباره آداة عامة صالحة لكى تلائم كل الحوادث والاحتمالات، ومعنى هذا كما يقول تشومسكى إن للإنسان قدرة عقلية من نوع معين تعد نموذجاً فريداً لا يمكن أن يعزى إلى أشياء خارجة عنه

---

(١) انظر: Chomsky, Cartesian Linguistics P.60-63.
وانظر أيضاً الفصل الأول من هذا الكتاب.

وأن هذه القدرة تتمثل فى الجانب الخلاق أو الإبداعى من العقل البشرى، التى تعد اللغة أبرز مظاهره[1].

ولذلك ينتقد تشومسكى بعض علماء اللغة المحدثين أمثال دى سوسير Dessaussur وهوكت Hockett وغيرهما لأنهم لم يلتفتوا إلى ملاحظات ديكارت حول العقل واللغة يرى أنهم فشلوا فى فهم هذه الملاحظات وخاصة بلومفيلد Blomfield الذى رغم التفاته إلى الجانب الخلاق فى اللغة إلا أنه عزى ذلك إلى القياس اللغوى Analogy أو القوالب النحوية Grammatical Pattern مما يدل على أنه لم يدرك تماماً هذا الجانب الهام من جوانب اللغة[2].

وانطلاقاً من ارتباط اللغة الإنسانية بالعقل يرى تشومسكى أن اللغات الإنسانية على اختلافها تجمعها خصائص عامة Universal Proper erties ترجع فى أصلها إلى العقل[3] وهذه الخصائص العامة هى جزء من الملكة الفطرية التى يمتلكها الطفل والبالغ على السواء بحكم امتلاكها لهذه الآلة الفريدة والميزة للإنسان، وهى العقل وتظهر آثار تلك الخصائص العامة للغة عندما يتعرض الطفل عن طريق السماع للاستعمال اللغوى فى بيئة حيث يقدم له هذا السماع المادة اللغوية التى يعمل فيها ملكة الفطرية ومن ثم يستطيع استعمال تراكيب معقدة وقواعد مجردة للتعبير عن أفكاره فى سهولة ويسر لأن اكتساب اللغة - كما يقول تشومسكى هو عبارة عن استخدام تفاصيل مختلفة داخل بيئة فطرية ثابتة[4].

ومعنى هذا أن هناك أصولاً ثابتة وجوانب متغيرة فى اللغة الإنسانية، إلا أن ذلك لا يعنى اختفاء الجانب الإبداعى من اللغة، وهو جانب يهتم به تشومسكى كثيراً - كما رأينا - بل يرى أن هذا الجانب يتجلى بصورة فريدة فى قدرة الطفل على إنتاج وفهم عدد لا نهائى من الجمل لم يسمع بها قط من قبل، ومعنى هذا أيضاً أن هذه الملكة الفطرية ليست خاصة

---

(١) انظر: Ibid p.3-5.
(2) Ibid. 12.
(3) Chomsky, Cartesian, Linguistics P. 21.
(4) Chomsky, Reflecation on Language P.39.

بلغة من اللغات وإنما هى ملكة عامة، ولكن المادة اللغوية التى يسمعها الطفل هى التى تحول هذه الملكة إلى لغة بعينها، وبصورة طبيعية بحيث يظل المرء محتفظاً بها حيث تظهر آثارها عند تعلم لغة أخرى غير اللغة القومية.

ولكن إذا كان الطفل يملك هذه القدرة اللغوية ممثلة فى تلك الملكة الفطرية فما هو دور الأسرة التى ينشأ فيها الطفل؟ هل هو دور تعليمى تلقينى؟ أم هو دور توجهى؟ لقد لفتت هذه المشكلة مرة أخرى نظر الأستاذ خلف الله - رحمه الله - عام ١٩٧٠ فكتب مقالاً بعنوان:

«الطفل واللغة القومية»(١) حيث عقد مقارنة بين تعلم الطفل اللغة القومية وبين تعلم البالغ لغة أجنبية وانتهى إلى أن الطفل يتعلم لغته القومية فى سهولة ويسر وهو بلا تجارب أو معارف سابقة أو أنه يتلقاها على أيدى معلمين ولكن بأسلوب غير علمي، بينما الشخص البالغ مزود بصنوف المعارف والقوى الذهنية والعقلية الناضجة، يتلقى اللغة الأجنبية على نظام ذى أصول وقواعد وعلى أيدى طائفة من المعلمين أعدت إعداداً خاصاً لتدريس اللغة، ومع ذلك ينتهى البالغ بعد سنوات من التعلم إلى مستوى ناقص فى استعمال اللغة، بينما نجد الطفل الصغير قد انتهى إلى إجادة لغته وتصريف أعنتها. ثم يستعرض الآراء والنظريات المختلفة التى حاولت تفسير هذا التفاوت ولكنه فى النهاية يؤكد أن من أهم مظاهر النمو عند الطفل القدرة على التعبير اللغوى واستعمال أجزاء الكلام(٢).

ومعنى هذا أن الأستاذ خلف الله - رحمه الله - استبعد تماماً دور الأسرة فى تعليم الطفل لغته القومية وانتهى إلى الإشارة إلى قدرة الطفل على التعبير اللغوى، وهو تطور جدير بالتسجيل هنا فى نظرته إلى اكتساب الطفل اللغة يعكس معايشته لهذا الموضوع منذ أن كتب دراسته الأولى عن الطفل فى عام ١٩٣٧.

---

(١) انظر، بحوث ودراسات فى العروبة وآدابها ص ٢٥٣ - ٢٦٣ حيث أعيد نشر المقال مرة أخرى فى هذا الكتاب، وعليه نعتمد هنا.

(٢) انظر بحوث ودراسات فى العروبة وآدابها ص ٢٥٥

ولا شك أننا لا نستطيع أن نتصور مثلاً أن كل أسرة لديها متخصص فى علوم اللغة يقوم بتعليم الأطفال بل إن الأسرة أو أحد أفرادها لا يمكن أن يقوم بدور تعليمى فى هذا الصدد، بل المشاهد أن اللغة المنطوقة Spoken Language لا تعلم حتى فى المدرسة، ومن ثم يُستبعد دور الأسرة فى التعليم أو على الأقل فى التلقين الواعى للطفل ولذلك يستبعد تشومسكى أيضاً دور الأسرة حتى فى تصحيح لغة الطفل ويرى أن دورها يقف عند حدود ما يسميه الدور التوسيعى Expansion[1] حيث نرى البالغين يقومون عادة بترديد الجمل التى يتفوه بها الطفل ولكن مع إدخال بعض التغيرات عليها، بحيث يقربونها من الجمل التى تعادلها فى لغتهم، ومن ثم تتجه لغة الطفل شيئاً فشيئاً إلى الاندماج فى لغة الكبار ومن خلال ذلك يكتشف الطفل دون أن تقوم الأسرة بتصحيح كلامه بطريقة مباشرة، يكتشف النظم الخاصة بلغة الكبار على مستوياتها المختلفة، وعلى ذلك يكون دور الأسرة هو تسهيل عملية اكتساب اللغة من خلال عرض نماذج لها دون تلقين منهم أو تقليد من الطفل، وهذا يفسر لنا أيضاً استمرار الأخطاء اللغوية التى تسمع من الطفل فى محاولته الدائبة لتنمية ملكته الفطرية وخصائصها اللغوية العامة على اكتساب الخصائص اللغوية المميزة للغته، خاصة فيما يتصل بالنظام النحوى[2] وكل ذلك يتحقق من خلال المادة اللغوية المسموعة التى يتعرض لها الطفل، لهذا كله يرفض تشومسكى مبدأ التقليد فى اكتساب اللغة لأننا لو سلمنا به فإنه يحول الطفل إلى ببغاء لا عقل لها ومن هنا أيضاً يرفض المذهب السلوكى لأنه يحول الإنسان إلى حيوان، أو هو يسوى بين السلوك الإنسانى والسلوك الحيوانى وينزع عن الإنسان السمة الوحيدة التى تميز الإنسان وهى العقل كما يتمثل فى اللغة التى بدونها لا تتحقق إنسانية الإنسان.

---

(1) Campbell and Wales, op. cit. PP. 253 - 256.
(2) Chomsky, A, Spects of The Theory of Syntax P.25.

خاتمة ونتائج

حاول هذا البحث أن يتناول آراء الأستاذ خلف الله - رحمه الله - فى ظاهرة اكتساب الطفل اللغة وذلك من خلال ما توصل إليه علم اللغة الحديث والمعاصر من نظريات وآراء أو بمعنى أدق من خلال ما توصل إليه فرع هام من فروع علم اللغة المعاصر وهو علم اللغة النفسى Psycholinguistics الذى يتخذ اليوم من دراسة اكتساب الطفل اللغة موضوعاً هاماً من الموضوعات التى يبحث فيها

ولم يكن هذا الفرع من فروع علم اللغة قد اكتملت له أسباب الوجود عندما كتب الأستاذ خلف الله - رحمه الله - دراسته عن الطفل من المهد إلى الرشد (١٩٣٩) والتى تناول فيها بالتفصيل هذا الجانب اللغوى من حياة الطفل، غير أنه عاد مرة أخرى فى مقال له بعنوان «الطفل واللغة القومية» (١٩٧٠) ليعيد النظر فى بعض آرائه التى قال بها فى كتابه الأول، واقترب إلى حد كبير من القول بفكرة القدرة اللغوية عند الطفل التى نادى بها العالم اللغوى المعاصر نعوم تشومسكى والذى يعُد المؤسس الحقيقى لعلم اللغة النفسي وخاصة فى مجال اكتساب اللغة ولكى نضع آراء الأستاذ خلف الله - رحمه الله - فى إطارها العلمى الصحيح وهى آراء لم يلتفت إليها أحد من الذين كتبوا عن اكتساب اللغة عند الطفل باللغة العربية، قسمت البحث إلى مقدمة وخمسة أقسام.

أما المقدمة فقد تناولت فيها اهتمام الأستاذ خلف الله - رحمه الله - المبكر بعلم النفس ومباحثه بما لها من صلة باللغة والأدب وريادته لميدان اللغة فى هذا اللون من البحث العلمى أما القسم الأول فقد خصصته لدراسة الفرق بين ما كان يسمى علم النفس اللغوى أو علم نفس اللغة وبين علم اللغة النفسى الذى يعد تطوراً معاصراً بين جهود علماء النفس وعلماء اللغة والفلسفة أيضاً. كما تحقق وظهر عند تشومسكى وبينت أن دراسة الأستاذ خلف الله تنتمى إلى علم اللغة النفسى رغم اعتماده على كثير من نتائج علماء النفس

وفى القسم الثانى درست طرق ومناهج دراسة اللغة عند الطفل والتى تصل فيها الأستاذ خلف الله القول، وفيه بينت أنه اعتمد إلى حد كبير على طرق ومناهج علماء النفس دون علماء اللغة.

أما القسم الثالث فقد تناولت فيه تعريف اللغة ووظائفها من خلال تعريف الأستاذ خلف الله - وشرحه المفصل لهذا التعريف وذلك فى إطار علم اللغة المعاصر حيث تبين لنا أن تصوره للغة ووظيفتها تصور يقترب إلى حد كبير من تصور علماء اللغة عنها.

وفى القسم الرابع من هذا البحث، درست مراحل النمو اللغوى عند الطفل كما عرضها الأستاذ خلف الله - رحمه الله - مع وضعها فى إطار من أبحاث علماء اللغة المحدثين الذين اقترحوا خططاً ومناهج تختلف عن تلك التى وضعها علماء النفس.

أما القسم الخامس والأخير من هذا البحث، فقد اختص بدراسة ظاهرة التقليد ودورها فى اكتساب اللغة عند الطفل، حيث ناقشت دورها من خلال ما قدمه الأستاذ خلف الله - رحمه الله - أو غيره من علماء اللغة والنفس الذين كادوا يجمعون على دور بارز وهام لعملية التقليد فى اكتساب اللغة وأثبت من خلال عرض النظرية المعاصرة أن التقليد لا يكاد يقوم بدور ذى بال فى عملية اكتساب اللغة.

فإذا كان ثمة جهد وجدة فى هذا البحث، فهما بعض فضل أستاذنا خلف الله أحمد وثمرة غرسه، رحمه الله رحمة واسعة وأثابه بما قدم من جهد طوال حياته فى خدمة اللغة العربية وآدابها.

قائمة المصطلحات

(A)

Acquisition	اكتساب
Analogy	قياس
Applied Linguistics	علم اللغة التطبيقى
Approach	اتجاه
Auditory Phonetics	علم الأصوات السمعى

(B)

Baby Language	لغة الأطفال
Baby talke	كلام الأطفال
Babbling time	مرحلة البأبأة
Behaviaurism	المذهب السلوكى (السلوكي

(C)

Consonant	صامت
Context	سياق (مقام)
Commen Language	لغة مشتركة
Competence	قدرة
Crawling	حبو (مرحلة الحبو)

(D)

Deep structure	تركيب عميق (بنية عميقة)
Development	نمو
Disorder	اضطراب

(E)

Eloquence	بلاغة
Expansion	توسع

(F)

Flose Analogy	قياس خاطئ
Formal Speech	كلام رسمى

(G)

Generate	يولد
Grammatical	مقبول نحوياً (صحيح نحوياً)

(I)

Imagless thaught	التفكير بدون صورة

Imitation	تقليد (محاكاة)
Informal	غير رسمى
Information theory	نظرية المعلومات
Innate charactristics	خصائص نظرية
Innate property	ملكة فطرية
Intonation	التنغيم (نغم الكلام)
Informal Speech	كلام غير رسمى

(L)

Language Acquisition	اكتساب اللغة
Language usage	استعمال اللغة (الاستعمال اللغوى)
Learning theory	عملية التعلم
Linguistics	علم اللغة (اللسانيات)
Linguistics Development	النمو الغوى
Linguistics System	النظام اللغوى
Little language	اللغة الصغيرة (اللغة الفردية)

(M)

Mentalistic	عقلى
Moroheme	مورفيم
Morphological System	النظام المورفولوچى

(N)

Nersery	مرحلة المهد (الحضانة)

(P)

Performance	أداء
Philology	فيلولوچيا ·(فقه لغة)
Phoneme	فونيم
Phonological System	نظام فنولوچى
Principles	أصول
Prelinguistic	ما قبل اللغة (مرحلة ما قبل اللغة)
Psycholinguistics	علم اللغة النفسى
Psychological linguistics	علم النفس اللغوى
Psychological phonetics	علم الأصوات النفسى
Psychology of Language	علم نفس اللغة

(R)

Receiver	مستقبل (سامع)

Reduplication	تضعيف
Reflexion	انعكاس
Response	استجابة

(S)

Second language	لغة ثانية
Semantics	علم الدلالة
Semiology	علم الرمز
Semiotics	علم الرموز
Sender	مرسل (متكلم)
Sitting up	مرحلة الجلوس
Singel vowel	حركة مفردة (صائت مفرد)
Sociolinguistics	علم اللغة الاجتماعى
Speech thearapy	علاج أمراض الكلام
Speech Patholoy	أمراض الكلام
Stimulus	مثير
Style	أسلوب
Surface stracture	تركيب سطحى (بنية سطحية)
Syntactic System	النظام النحوى (النظام التركيبى)
Syntax	التركيب

(T)

Talking time	مرحلة الكلام
Transformational Rules	قواعد تحويلية

(U)

Unconscius	غير واع
Universal properties	خصائص عامة

(V)

Vocalising time	مرحلة الصياح
Voluntary Action	عمل إرادى
Vowel	صائت (حركة)

(W)

Walking alone	مرحلة السير بدون مساعدة
Walking outside	مرحلة السير خارج المنزل
Walking with help	مرحلة السير بمساعدة

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

١ - **ابن جنى، أبو الفتح عثمان : الخصائص،** تحقيق محمد على، النجار، القاهرة، دار الكتب المصرية، الجزء الأول، ١٩٥٢م.

٢ - **ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله : شرح الألفية،** تحقيق محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، الطبعة الخامسة، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م.

٣ - **أحمد مختار عمر (دكتور) : دراسة الصوت اللغوى،** القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

٤ - **برجشتراسر، ج : التطور النحوى للغة العربية،** صححه وعلق عليه، د. رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٥ - **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر : البيان والتبيين،** تحقيق وشرح عبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.

٦ - **حلمى خليل (دكتور) : الكلمة، دراسة لغوية معجمية،** الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٧ - **حسن ظاظا (دكتور) : اللسان والإنسان،** الإسكندرية، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٧١م.

٨ - **رمضان عبد التواب (دكتور) : المدخل إلى علم اللغة،** القاهرة، مكتبة الخانجى، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

٩ - **سعد مصلوح (دكتور): دراسة السمع والكلام،** القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

١٠ - **السيرافى، أبو سعيد الحسن بن عبد الله : أخبار النحويين البصريين،** تحقيق طه الزينى ومحمد عبد المنعم خفاجى، القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥.

١١ - **صالح الشماع** : اللغة عند الطفل، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥م.

١٢ - **عبده الراجحى** (دكتور): فقه اللغة فى الكتب العربية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٢م.

١٣ - **عبده الراجحى** (دكتور) : النحو العربى والدرس الحديث، الإسكندرية، ١٩٧٧م.

١٤ - **على عبد الواحد وافى** (دكتور): نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، القاهرة، مكتبة دار العروبة، الطبعة الثانية، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.

١٥ - **فندريس، ج** : اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلى، محمد القصاص، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٠م.

١٦ - **كريستيل، دافيد** : التعريف بعلم اللغة، ترجمة د. حلمى خليل، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

١٧ - **لويس، م** : اللغة فى المجتمع، ترجمة د. تمام حسان، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩م.

١٨ - **محمد خلف الله أحمد** : بحوث ودراسات فى العروبة وآدابها، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠م.

١٩ - **محمد خلف الله أحمد** : السيرة الذاتية، (مخطوط).

٢٠ - **محمد خلف الله أحمد** : الطفل من المهد إلى الرشد، القاهرة، المطبعة الرحمانية، الطبعة الأولى، ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩م.

٢١ - **محمد خلف الله أحمد** : من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

٢٢ - **محمود السعران** (دكتور): علم اللغة، مقدمة للقارئ العربى، الإسكندرية، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٦٢م.

٢٣ - **محمود السعران** (دكتور): اللغة والمجتمع، رأى ومنهج، الإسكندرية، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٦٣م.

٢٤ - **محمود فهمى حجازى** (دكتور): مدخل إلى علم اللغة، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٨م.

٢٥ - **مصطفى فهمي** (دكتور): أمراض الكلام، القاهرة، مكتبة مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٧٥م.

٢٦ - **نوال محمد عطية** (دكتورة): علم النفس اللغوى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1 - **Brown. Roger, The Development of Language in Children,** in Psychology and Communication (ed) by George Miller, Forum Series, U.S.A., 1945.

2 - **Carroll, John,** Language and Thought.

3 - **Chomsky. Noam** New Jersey, 1954, **Aspects of Theary of Syntax:** Massachusetts, 1965, Cartesian Linguisties: New York, 1996, **Language and Mind:** New York, 1972, **Reflection on Linguistics:** New York, 1975.

4 - **Crystal. David, Linguistics:** Penguin Books, 1974, **Investigation English Style:** London, 1980.

5 - **Greene, Gudith, Psycholinguistics:** Penguin Books, 1973.

6 - **Hartmann and Stork, Dict. of Lang. and Ling:** London, 1973.

7 - **Loyns. John, Chomsky:** London, 2end, 1977, **Semantics VolI:** London, 1979.

8 - **Moriey. Muriel, The Development and Disorder of Speech in Childhood:** London, 1972.

9 - **Robins. R.H, A Short History of Linguistics:** London, 2ed, 1980, **General Linguistics:** London, 3ed, 1980.

10 - **Sapir. Edward, Language:** New York, 1921.

11 - **Tough. Joan, Focus on Meaning:** London, 1973.

12 - **Trudgill. Peter, Sociolinguistics:** Penguin Books, 1974.

ثالثاً - الدوريات:

١ - مجلة عالم الفكر، المجلد الثانى العدد الأول ١٩٧١م.

(2) Jouranl of Near Eastern Studies, Vol. 14. No 3, 1955.

الفصـــل الرابـــع

علم اللغة الاجتماعى عند الجاحظ

مقدمـة

هذا بحث فى بعض المفاهيم والموضوعات ذات الصلة بعلم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics، وذلك من خلال الملاحظات والآراء التى بثها ودونها الجاحظ[1] فى كتبه ورسائله، وهى تمثل فى مجموعها

---

(١) هو أبو عثمان بن بحر بن محبوب، لقب بالجاحظ، وأشتهر بذلك لجحوظ فى عينيه وُلد فى البصرة مع نهاية العقد السادس من القرن الثانى للهجرة نهاية القرن الثامن للميلاد، وتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين، نهاية القرن التاسع الميلادى تقريباً، أى أنه عمر حتى بلغ التسعين، أو الخامسة والتسعين.

وكان ميلاده فى أسرة فقيرة مغمورة من عامة البصرة، فقد أباه وهو صغير، فكفلته أمه، ومن ثم كان عليه أن يشترك معها فى تحمل أعباء الحياة، فرئى وهو يبيع الخبز والسمك فى أسواق البصرة، وفى الوقت نفسه كان يتردد على الكتاب صبياً ثم يافعاً، وعندما شب أخذ يتردد على حلقات العلم ومجالسه فى مساجد البصرة، ودور العلم بها، وخاصة ما كان يعقد منها فى سوق المربد، يدفعه إلى ذلك ذكاء حاد وحس مرهف وعقل متفتح وحافظة قوية، فخالط العلماء وسمع من الرواة، وتردد على دكاكين الوارقين، فقرأ كتب اللغة والنحو والأدب والفلسفة وعلم الكلام والفقه والحديث والتفسير، حتى أحاط بمعارف عصره لا يكاد يفوته شئ منها، كما لم تخل ثقافته من عناصر يونانية وفارسية وهندية، وقد هيأته هذه الثقافة الواسعة العميقة للخوض فى كل علم وفن، كما زودته بقدرة فائقة على النظر فى دقائق الموجودات، وحقائق الأشياء، بالإضافة إلى أحوال الناس واللغات والمجتمعات، وانتهى به الأمر إلى أن أصبح صاحب فرقة تنسب إليه تسمى (الجاحظية)، وقد خلف لنا إنتاجاً علمياً غزيراً من الكتب والرسائل انفرد بها بين علماء عصره وما بعد عصره.

حول تفاصيل حياة الجاحظ وثقافته وإنتاجه العلمى وبيئته التى نشأ وعاش فيها انظر على سبيل المثال:

أولاً - من القدماء:

١ - ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ٦/ ٥٦ - ٨٠، القاهرة ن ط٢ هندية. ١٩٣٠م.

٢ - ابن نباته، سرح العيون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ص ٢٤٨ - ٢٦٠ القاهرة، دار الفكر العربى ١٩٦٤م.

ثانياً: من المحدثين:

١ - طه الحاجرى، الجاحظ حياته وآثاره، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢م.

٢ - بلات، شارل، الجاحظ، ترجمة إبراهيم الكيلانى، دمشق، دار اليقظة العربية ١٩٦١م.

٣ - أحمد كمال زكى، الحياة الأدبية فى البصرة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١م.

إرهاصات لهذا العلم منذ وقت مبكر فى تاريخ الحضارة العربية.

والواقع أن علماء العربية القدماء لم يحظوا بما هم أهل له فى تاريخ الفكر اللغوى الإنسانى، فقد شاع بين دارسى اللغة ومؤرخى الفكر اللغوى، خاصة فى الحضارة الغربية أن علماء العربية القدماء لم ينتجوا فى علوم االغة إلا دراسات عملية Practical تختص بتحليل اللغة العربية وحدها، دون وضع نظرية عامة فى دراسة اللغة.

غير أن تاريخ الفكر اللغوى الإنسانى يبين لنا أنه لا توجد أمة قد فكرت أو اهتمت بقضايا اللغة وظواهرها إلا وقد انطلقت من دراسة لغتها الخاصة، وهذه الحقيقة تصدق على الدراسات اللغوية قديمها وحديثها.

ولا شك أن تجاوز أمة من الأمم دراستها الخاصة للغتها ،وإدراك حقيقة الظاهرة اللغوية الإنسانية هو ما يعول عليه مؤرخو الفكر اللغوى الآن، لذلك عندما كتب تاريخ الفكر اللغوى الإنسانى، لم يحظ علماء العربية القدماء إلا بسطور قليلة لا توضح أصالة هؤلاء العلماء وريادتهم لكثير من جوانب الفكر اللغوى الذى يخوض فيه علماء اللغة الآن، كما تدل على عدم المعرفة العلمية الدقيقة بالتراث العربى عامة واللغوى خاصة[١].

والحق أن علماء اللغة العربية القدماء قد بلغوا مرتبة التنظير فى دراستهم اللغوية بما بثوه من ملاحظات وآراء حول اللغة من حيث هى ظاهرة إنسانية عامة، لا فى كتب النحو والصرف والمعاجم فحسب، بل فى مصادر وكتب أخرى مثل كتب إعجاز القرآن وبلاغته وتفسيره، وكذا فى كتب أصول الفقه وعلم الكلام والفلسفة، أى فى التراث غير اللغوى، وهذه الملاحظات والآراء تكون فى مجموعاتها نظرية عامة فى اللغة من حيث هى ظاهرة إنسانية عامة[٢]. وهذا المبحث يحاول أن يدلل على ذلك

---

(١) راجع
1 - Robins R. H, A short History of Linguistics, P.98 , P.129. .
2 - IVTC Milka, Trends in linguistics, PP. 24 - 29.

(٢) راجع: عبد السلام المسدى التفكير اللسانى فى الحضارة العربية، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م.

فى إطار علم من العلوم اللغوية المعاصرة هو علم اللغة الاجتماعى، وذلك من خلال الملاحظات التى عرض لها الجاحظ - كما أشرت من قبل - وخاصة فى كتابيه «الحيوان» و «البيان والتبيين» بالإضافة إلى بعض رسائله، وهى ملاحظات تؤلف فى مجموعها إدراكاً واضحاً ومباشرا للبعد الاجتماعى للغة، وعلاقة اللغة بالمجتمع، فهو يتحدث عن التنوعات اللغوية Varieties of Language ، والمجتمعات الكلامية Speech Communities، وتفرع اللغة إلى لهجات Language and dialects، واللهجات الاجتماعية Social dialects، واللغة الفصحى Standard Language، وعلاقاتها بالعاميات Colloquial، واللكنة Accent، واللهجات الإقليمية Regional Dialects، والعربية الهجين Pidgin Arabic، وغير ذلك من موضوعات ومصطلحات يتداولها علم اللغة الاجتماعى الآن، وكل ذلك فى إطار اللغة العربية وتنوعاتها المختلفة.

غير أنه كثيراً ما كان يميز بين ما هو مشترك بين جميع اللغات، وما يختص بالعربية وحدها، أو بغيرها من اللغات.

على أن أهم ما يلفت النظر أن الجاحظ كان يتعامل مع الحدث الكلامى Speech event على أنه رسالة Message تبلغ إلى مخاطب، وهو ينطلق فى ذلك من مفهوم الخطاب القرآنى الذى يمثل النموذج المثالى لأنواع الخطاب عند العرب، والذى لا يقدر البشر على الإتيان بمثله أو محاكاته، ثم يتدرج من هذا المثال إلى ألوان الخطاب الأخرى بما لها من صلة بفنون القول فى العربية، أو الطبقات الاجتماعية وكلامها، مما أدى به إلى الغوص فى قضايا الاتصال Communication وشروطه، وكذا الأداء Performance وطرقه المختلفة من لفظ وإشارة وغير ذلك، وقد ساعد الجاحظ فى كل هذا ثقافته الموسوعية، وانغماسه فى البيئة البصرية التى قدمت له نماذج متنوعة من اللغة العربية المنطوقة Spoken Arabic، وكذا بعض اللغات الأخرى، مما هيأ له مجالاً واسعاً للملاحظة والاستقراء، ورصد القوانين التى تحكم مثل هذه الاستعمالات اللغوية.

ويكاد كتابه «البيان والتبيين» يخلص لدراسة مستويات الأداء

المختلفة طبقاً لقانون عام وهو «لكل مقام مقال» فيما خلا بعض الأراء النظرية التى تدور حول مفهوم اللغة والكلام والبيان والبلاغة، فلكل طوائف من الناس طوائف من الكلام كما يقول[1].

ولا يقف الجاحظ عند هذه الحدود من تناول الكثير من مفاهيم وموضوعات علم اللغة الاجتماعى، بل يتجاوز ذلك إلى رصد نماذج وعبارات من هذه التنوعات اللغوية واللهجات الاجتماعية واللغات الخاصة، فيروى لنا أحاديث وأشعاراً وخطباً لأناس ينتمون إلى مهن وطبقات اجتماعية مختلفة مثل: الكتّاب والنحاة والمعلمين والأطباء والتجار والحاكة والقيان والخبازين وأصحاب الحمامات والزراع والبدو والأعراب والخمّارين والكنّاسين والفراشين والمشعوذين والقراديين واللصوص والحواة، وغيرهم من طوائف المجتمع العباسى عامة، والبصرى خاصة، حتى لا يكاد يدع طائفة من طوائف هذا المجتمع إلا وتحدث عنها وقص علينا أخبارها وعرض الكثير من صور حياتها وكلامها.

وهكذا يقدم لنا الجاحظ،وربما لأول مرة فى تاريخ الفكر اللغوى الإنسانى، الأصول النظرية والتحليلية لعلم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics وهى لا تحتاج إلا إلى إعادة صيغتها فى قالب منهجى أكثر دقة ووضوحاً مما صنع الجاحظ الذى كان لا يلزم نفسه كثيراً بالصرامة المنهجية فى أعماله رغم وعيه الكامل بها، وهو لا يجد حرجاً من الاعتراف بوقوع هذا العيب فى مؤلفاته يقول واصفاً عنائه فى تأليف كتابه «الحيوان» ومنهجه:

«وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أول ذلك العلة الشديدة والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة أنى لو تكلفت كتاباً فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتب العرض والجوهر والطفرة والتولد والمداخلة والغرائز والتماس، لكان أسهل وأقصر أياماً وأسرع فراغاً، لأنى كنت لا أفزع إلى تلقط الأشعار وتتبع الأمثال واستخراج الآى من القرآن، والحج من الرواية مع تفرق هذه الأمور

---

(١) الحيوان، ٣/ ٣٦٦ - ٣٦٨.

فى الكتب، وتباعد ما بين الأشكال، فإن وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف أو من تقطيع نظام ومن وقوع الشئ فى غير موضعه، فلا تنكر ذلك بعد أن صورت عندك حالى التى ابتدأت عليها كتابى»[1].

وكأنه كان يقع بين طرفين يتجاذبانه، كمَ المادة العلمية التى يريد أن يقدمها، وكيف المنهج وتبويب هذه المادة، فإذا استبد الأول به أفلت منه الثانى.

وبناء على ذلك فإن هذا البحث يحاول أن يتناول هذه الأصول النظرية والتحليلية لإرهاصات علم اللغة الاجتماعى عند الجاحظ ووضعها فى قالب منهجى واضح، وذلك من خلال الموضوعات الآتية:

١ - اللغة والاتصال عند الجاحظ.

٢ - التنوع اللغوى واللهجات الاجتماعية عند الجاحظ.

٣ - الجاحظ ولكنات الأعاجم.

١ - اللغة والإتصال عند الجاحظ :

لا شك أن عصراً جديداً قد بزغ فى تاريخ الفكر اللغوى الإنسانى بعد أكتمال نزول القرآن الكريم، وذلك حينما طرق علماء العربية القدماء، وغيرهم من علماء المسلمين دروباً من الدرس اللغوى أثناء بحثهم المضنى عن أسرار إعجاز القرآن.

فقد تحدت عربية القرآن السليقة اللغوية لأبناء العربية الخلص Native speakers، كما تحدث أيضاً عقول هؤلاء العلماء الذين قادهم البحث عن أسباب إعجاز القرآن، إلى البحث فى جوانب لغوية خالصة تتصل باللغة العربية، وباللغة والكلام من حيث هما ظاهرة عامة فى اللغات الإنسانية الأخرى.

وكان القرآن، وما يزال يمثل، عند المسلمين صورة مثالية للخطاب اللغوى الذى انفردت به اللغة العربية دون غيرها من اللغات الأخرى.

---

(١) الحيوان ٤/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

والجاحظ واحد من هؤلاء العلماء الذين انطلقوا من ظاهرة الخطاب القرآنى وإعجازه إلى معالجة ظاهر «اللغة» بما لها من صلة بالعربية من ناحية، ومن حيث هى ظاهرة إنسانية واجتماعية من ناحية أخرى، ومن ثم وقف أمام ظاهرة فريدة فى تاريخ الفكر اللغوى الإنساني وهى إعجاز لغة الخطاب القرآنى فى مقابل استخدام اللغة نفسها فى مظاهر الاتصال الإنسانى.

وكانت المعضلة التى واجهت الجاحظ هى كيف يحلل ويجرد هذه العلاقة الفريدة فى اللغة العربية بين إعجاز لغة القرآن واستخدام اللغة فى الحياة اليومية للمجتمع.

وصدد هذا ينطلق الجاحظ من منهج عام يقوم عنده على النظر والاستقطاء والتجريد، يتضح لنا ذلك من قوله فى رسالة المعاش والمعاد: «فألفت لك كتابى هذا إليك وأنا واصف لك فيه الطبائع التى ركب عليها الخلق، وفطرت عليها البرايا كلهم، فهم فيها متسودون، وإلى وجودها فى أنفسهم مضطرون وفى المعرفة بما يتولد عنها متفقون.

ثم مبين لك كيف تفترق بهم الحالات وتفاوت بهم المنازل،وما العلل التى يوجب بعضها بعضاً، وما الشئ الذى يكون سبباً لغيره، ومتى كان الأولى كان ما بعده، وما السبب الذى لا يكون الثانى فيه إلا ما للأول، وربما كان الأول ولم يكن الثانى، وفرق ما بين الطبع الأول وبين الاكتساب والعادة التى تصير طبعاً ثانياً، ولم اختلف ذلك... وراسم لك فى ذلك أصولاً ومبين لك مع كل أصل منها علته وسببه... ثم غير راض لك بالأصول حتى أتقضى لك ما بلغه علمى من الفروع... ثم لا أرسم لك ذلك إلا الأمر المعقول فى كل طبيعة»[1].

بهذا المنهج العلمى القائم على استقصاء الفروع، ثم تجريد الأصول العامة من خلال النظر العقلى وحكم العقل وهو منهج أصيل عند المعتزلة والجاحظ واحد منهم[2]، حاول أبو عثمان أن ينظر إلى اللغة من خلال هذا

---

(١) الرسائل، رسالة المعاش والمعاد، ١/ ٩٧ - ٩٨.

(٢) راجع طه الحاجرى، الجاحظ حياته وآثاره، ص ٥٨ وما بعدها.

المنهج ،ويكشف عن طبيعتها الاتصالية ووظيفتها الاجتماعية وصورتها الإعجازية فى القرآن الكريم، وصورتها التواصلية فى المجتمع.

وهو ينطلق فى هذا إلى تحديد الوظيفة الاجتماعية للغة، واللغة عنده هى اللغة المنطوقة Spoken Language ويبدو ذلك من خلال معالجته لمصطلح «البيان» ومن خلال رؤيته العامة لهذا المصطلح سنرى أن البيان يحدث، باللغة وغير اللغة، وإن احتلت اللغة فى تصوره للبيان ووسائله وطرقه مكاناً علياً، حتى كأنه يخصها دون غيرها من وسائل البيان.

يقول: «البيان اسم جامع لكل شئ كشف عن قناع المعنى وهَتَكَ الحجاب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أى جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأى شئ بلغت الإفهام وأوضحت المعنى فذلك هو البيان فى ذلك الموضع»[1].

ومعنى هذا أن مصطلح البيان عند الجاحظ هو مصطلح جامع Collective term، يجمع كل طرق الاتصال ووسائل التبليغ فى المجتمع، ولولا أن السياق الذى ورد فيه هذا النص وعبارات مثل «كائناً ما كان» و «من أى جنس كان» والتفاضل الذى تلا ذلك بين وسائل البيان. لقلت إن الجاحظ كان يتمثل اللغة المنطوقة دون وسائل البيان الأخرى، ومع ذلك فإن استعمال كلمات مثل: السامع، والقائل، الفهم، الإفهام، قد تؤكد أن الكلام المنطوق أو اللغة المنطوقة أو «اللفظ» كما قال، تأتى عنده فى المقام الأول من وسائل البيان الأخرى.

يقول محدداً أصناف الدلالات حاصراً لوظائفها: «وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التى تسمى

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٧٦.

النُّصبة، والنصبة هى الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقتصر على تلك الدلالات»[١].

فإذا أعدنا صياغة هذا النص عن أصناف الدلالات،كما أسماها الجاحظ، وفق النظرية اللغوية الحديثة Modern Linguistic theory فيما يتصل بمفهوم الاتصال Communication وطرقه ووسائله[٢]، لوجدنا ثلاثة من وسائل الاتصال الخمس التى ذكرها الجاحظ يهتم بها علم اللغة Linguistics وهى:

١ - اللفظ، وهو مصطلح عند الجاحظ يعادل مصطلح اللغة المنطوقة Spoken Language فى اصطلاح علماء اللغة الآن، فاللفظ عنده «ما يميز الإنسان عن سائر الحيوان»[٣]، أو هو «للسامع من بنى الإنسان»[٤].

٢ - الإشارة، وهى عنده تعادل الحركة الجسمية Kinetics[٥] المصاحبة للكلام،مثل«رفع الحاجب وكسر الأجفان ولىّ الشفاة وتحريك الأعناق وقبض جلد الوجه»[٦].أو تكون «باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب»[٧].

٣ - الخط، ويعادله مصطلح اللغة المكتوبة Written Language عند علماء اللغة، وهو كما يقول «الدليل على ما غاب من حوائج الإنسان، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه جعله خازناً لما لا يأمن نسياته مما قد أحصاه وحفظه وأتقنه وجمعه وتكلف الإحاطة به»[٨].

أما العقد فهو الحساب، وهو دون اللفظ والخط[٩]، وأما النصبة فهى الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر فى خلق السموات والأرض[١٠].

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٧٦.
(2) Hartmann & Stork, Dictionary of lang. and ling. P. 42.
(٣) البيان والتبيين: ١/ ٧٥ - ٧٦.
(٤) الحيوان ١/ ٥٤، وانظر تفاصيل مفهوم الصوت اللغوى عند الجاحظ فى هذا البحث.
(٥) Hartmann & Stork, op. cit. P. 122. وانظر أيضاً فاطمة محجوب، دراسات فى علم اللغة: ص ١٥٩ - ١٨٥
(٦) الحيوان: ١/ ٤٨
(٧) البيان والتبيين: ١/ ٧٥ - ٧٦
(٨) الحيوان ١/ ٤٥ - ٤٦
(٩) البيان والتبيين: ١/ ٧٥ ٧٦
١) المصدر السابق: ١/ ٧ ٧٧

غير أن أصناف هذه الدلالات أو وسائل البيان وطرقه تختلف وتتنوع فيما بينها، أو كما يقول:

ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مختلفة لحلية أختها، وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة، ثم عن حقائقها فى التفسير عن أجناسها وأقدارها، وعن خصائصها، وخاصها وعامها، وعن طبقاتها فى السار والضار، وعما يكون منها لغواً بهرجاً وساقطاً مطرحاً»[1]

وبناء على هذا التفاضل أو الاختلاف فى طرق البيان أو الاتصال يرى الجاحظ أن الكلام قد يشترك مع الإشارة أو الحركة الجسمية للمتكلم فى إيصال المعنى وتوضيحه وبيانه و «حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان»[2]، وقد تتقدم الإشارة عليه أحياناً يقول:

«والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هى له، ونعم الترجمان هى عنه وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغنى عن الخط»[3].

وإذا كانت دلالة الكلام ترتبط بالمواضعة أو الاتفاق الاجتماعى، أو كما يقول بالمستعمل فى الكلام من عادات الناس[4]، فإن الإشارة أيضاً تتفق مع الكلام فى ذلك «وهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة، على اختلاف طبقاتها ودلالتها»[5]

البيان إذاً كما تصوره الجاحظ هو وسيلة اتصال، وظاهرة إنسانية واجتماعية، ووسائلة واحدة فى كل مجتمع إنسانى وإن اختلفت صورها ومواضعتها من مجتمع إلى آخر، غير أن مفهوم البيان له بعد دينى أيضاً: لأن القرآن «بيان» ﴿هذا بيانٌ للنَّاس﴾[6] ومع ذلك فهو خصيصة

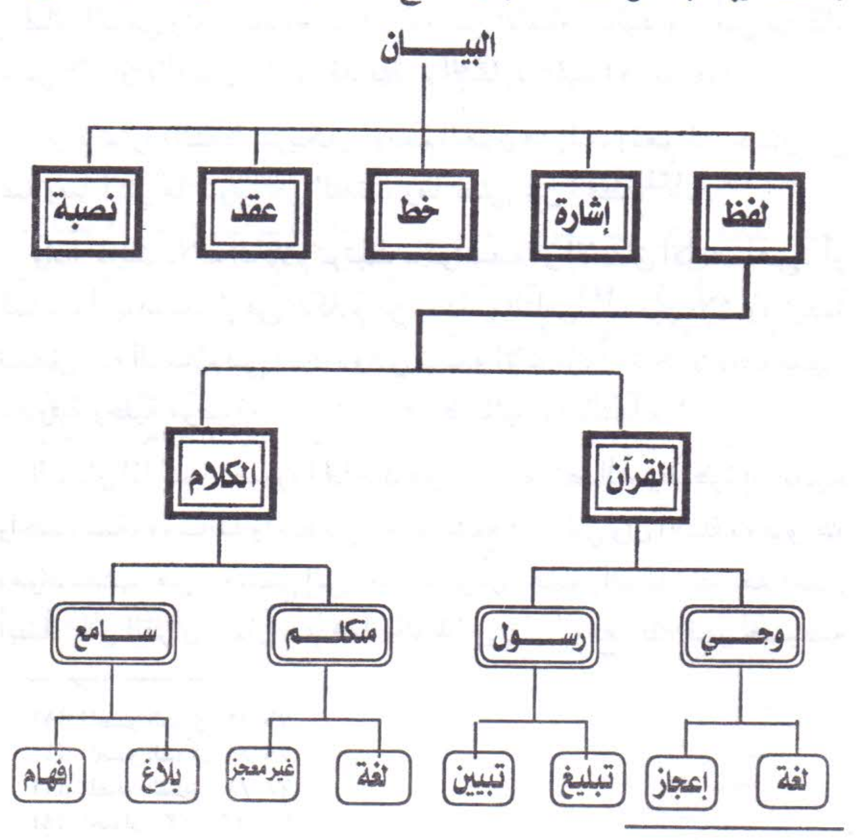
---

(1) المصدر السابق: ١/ ٧٦
(2) المصدر السابق. ١/ ٧٩
(3) المصدر السابق. ١/ ٧٨
(4) الحيوان ٣/ ٤١٢ - ٤١٣
(5) البيان والتبيين. ١/ ٧٨
(6) سورة آل عمران: آية ١٣٨

من خصائص الإنسان كما خلقه الله ﴿ الرَّحْمنُ علَّم الْقُرْآن خلق الإنسان علَّمَهُ الْبَيان ﴾[1].

يترتب على ذلك أن هناك بياناً فى صورة رسالة دينية نزلت بوحى من السماء، ولكن فى مستوى لغوى معجز للناس، ولكن هذه الرسالة ينبغى أن تفهم وهى وظيفة الرسول الذى أنيط به «التبيين» أو التوصيل، ﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ ﴾[2] و ﴿ وأَنزَلْنا إِلَيْك الذِّكْر لتُبَيِّن للنَّاسِ ما نُزِّل إِلَيْهِمْ ﴾[3].

أى أن الصورة العامة لعملية الاتصال طبقاً لمفهوم البيان عند الجاحظ، وبما لها من صلة بالقرآن تصبح عند الجاحظ على النحو التالى:



(١) سورة الرحمن: الآيات ١ - ٤
(٢) سورة إبراهيم: آية ٥٢
(٣) سورة النحل: آية ٤٤

وقد حاول الجاحظ طبقاً لهذا التصور أن يحلل هذه العلاقات بين اللغة وصورتها الإعجازية، كما نطق بها القرآن، وبين اللغة فى صورتها الإنسانية.

أما قضية الإعجاز فقد تصدى لها فى إطار تصوره لماهية اللغة المادية والتركيبية والأسلوبية، وأرجع ذلك إلى «النظم» الذى ألف فيه كتاباً بهذا الاسم «نظم القرآن» ووصفه فى مقدمة كتابه الحيوان بأنه «فى الإحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه»[١].

ولم يصل إلينا هذا الكتاب، ومن ثم لا ندرى كيف كانت طريقته فى معالجة موضوع النظم، وأغلب الظن أن مصطلح «النظم» عنده مصطلح جامع Collective term مثل مصطلح «البيان» يدل على نظم الكلمات وترتيبها واختلاف أوضاعها فى التعبير عن المعنى من حيث نظم الأصوات فى الكلمة المفردة وعلاقة الكلمة بالكلمة فى التركيب، وإن نظم الكلام طبقات، فمنه المتناهى فى الثقل المفرط فيه، ومنه ما يكون فيه بعض الكلفة على اللسان، إلا أنه لا يبلغ أن يعاب به صاحبه ويشتهر أمره فى ذلك ويحفظ عليه، وإن الكلام إذا سلم من ذلك وصفاً كان الفصيح المشار به والمشار إليه، وإن الصفاء أيضاً على مراتب يعلو بعضها بعضا وإن له غاية إذا انتهى إليها كان الإعجاز[٢].

ووفق هذه المعايير وصلتها بنظم الكلام ينحدر الجاحظ من مثالية البيان القرآنى إلى الكلام الإنسانى وتنوعه واختلافه، وكل ذلك فى إطار نظريته العامة فى علاقة اللغة بالاتصال والتبليغ، أو تصوره للبيان، وصلته بإعجاز القرآن، وكلام الناس، أو كما أسماه «البيان باللسان»[٣].

والبيان باللسان يدخل بنا فى صميم الظاهرة اللغوية الاجتماعية التى يضعها فى مقدمة أصناف الدلالات أو وسائل البيان، وهو اللفظ، أو اللغة المنطوقة، وتصوره للفظ يبدأ من طبيعة بصفتيه الفسيولوچية

---

(١) الحيوان: ١/ ٩

(٢) طه الحاجرى. المرجع السابق: ص ٣٢٤.

(٣) البيان والتبيين: ١/ ٧٩

والفيزيائية حيث «يجري الصوت، كما يُجْري الزامر الصوت في القصبة بالنفخ، وحتى تضاغط الهواء صوّت على قدر الضغط أو على قدر الثقب»[١] وهذا هو الجانب الأكوستيكى من الصوت، ويبدو من عبارة الجاحظ السابقة وحديثه عن تضاغط الهواء أنه كان يعرف الطبيعة الفيزيائية للصوت، وهو مايدرسه علماء اللغة والأصوات فيما يعرف بعلم الأصوات الأكوستيكى Acoustic phonetics بطريقة أكثر دقة وتفصيلاً عن عبارة الجاحظ الموحية على أى حال[٢].

ولعل من أبرز خصائص الصوت اللغوى أنه صوت منطوق Articulated يصدر عن جهاز النطق Speech apparatus الإنسانى، ويشير الجاحظ إلى ذلك إجمالاً بقوله وهو يعرِّف الكلام:

هو خروج الصوت من الجوف على جهة تقطيع الحروف وإعمال اللسان والشفتين وما كان على غير هذه الصور والصفة فليس كلاماً»[٣].

أى أن الكلام يحدث نتيجة خروج الهواء من الجوف، ثم مروره على أعضاء النطق حتى يصل إلى اللسان والشفتين وأعضاء النطق هى التى تقوم بتقطيع الصوت وتشكليه فى صورة وحدات «حروف»، وهو إدراك واضح لعملية النطق، فيما يسمى بعلم الأصوات النطقى Articulary phonetics، حيث يُجمع علماء الأصوات على أن العملية الهامة فى إنتاج الكلام هى عملية التنفس ويشيرون فى هذا الصدد إلى أن معظم الأصوات اللغوية يُحدثها تيار من الهواء يجرى خلال ممر هوائى يتكون من الرئتين والقصبة الهوائية والبلعوم وفراغ الفم والأنف، ويتم ذلك فى مواضع عدة بدءاً من الحنجرة حتى منتهاه عند الشفتين،ونتيجة لهذا الاعتراض والتقطيع بواسطة أعضاء النطق نستطيع وصف، وتصنيف الأصوات اللغوية[٤].

ويوضح الجاحظ فى نص آخر ما أجمله فى النص السابق، فيقول

---

(١) الحيوان: ١/ ٣١٦

(٢) راجع O'Connor, J. D., phonetics, P. 710.

(٣) الرسائل، رسالة النابتة، ٢/ ١٩

(4) O'Connor, J L.D., Op cit. PP 125 128.

«الصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذى يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف»[1].

وهنا يخطو أبو عثمان خطوة أخرى، فالكلام ليس هو هذه الحروف المقطعة المميزة، وإنما لا يكون ذلك كلاماً، إلا إذا حدث التركيب لهذه الوحدات التى يطلق عليها مصطلح الحروف، ويطلق عليها علماء اللغة مصطلح الفونيم Phoneme، حيث تبدو وظيفة الصوت داخل التركيب أو البنية[2]، أو التأليف كما يقول الجاحظ حتى يصبح كلاماً.

وإذا كان الجاحظ قد انطلق - كما رأينا من قبل - من قدرة الإنسان على البيان أو الاتصال، فهو هنا يخص اللفظ أو البيان باللسان - كما قال - بعناية ملحوظة تحليلاً وتجريداً، فالكلام لا يحدث إلا نتيجة لعمليات فسيولوجية ونطقية وتركيبية، وهو يجمل ذلك فى مراحل ثلاث، وهى:

١ - الصوت. ٢ - التقطيع. ٣ - التأليف.

أى، أنه يعرف أن اللغة مادة مكونة من أصوات منطوقة على وجه مخصوص، تصدر عن أعضاء النطق عند بنى الإنسان، وأن هذه الأصوات تقطع، وتشكل، بحيث لكل وحدة فيها خصائص نطقية وسمعية مميزة، وهذه الوحدات تدخل فى تأليف له معنى، حتى يصبح كلاماً لا لغواً مطرحاً كما قال.

وهو بذلك يكون قد أدرك جانبين من جوانب النظام اللغوى، وهما الصوت والمعنى، أو ما يطلق عليه علماء اللغة duality of structure أى ثنائية التركيب، أى بعبارة أخرى أن الجاحظ كان يدرك أن اللغة تتألف من الأصوات المنطوقة المسموعة، ثم المعنى، كما فى الشعر والنثر، أو الكلام الموزون والمنثور كما قال. ويحدث التأليف من هذه الأصوات المميزة المقطعة نتيجة لاستدعاء هذه الأصوات للمعنى المقابل لها طبقاً لما

---

(٢) البيان والتبيين، ١/ ٧٩.

(3) O'Connor, J.D., Op. Cit. PP. 66 - 67

يتعارف عليه أبناء اللغة الواحدة، وهو يستخدم الدلالة على ذلك مصطلح «الفصاحة» بالمعنى العام، أو مرادفاً لمصطلح البيان يقول:

«والإنسان فصيح وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو الهندية أو بالرومية... فكل إنسان من هذه الوجهة يقال له فصيح»(١)

أى أن أى نظام من نظم البيان أو الاتصال يخضع إلى عادات الناس، كما قال، أو كما نقول اليوم إن ذلك يستلزم وجود شفرة Code تتألف من نظام محدد من العلامات Signs، أو الرموز Symbols متفق عليه بحيث يستطيع من يستخدم هذه الشفرة أن يكوّن تشكيلات مختلفة من هذه الرموز أو العلاقات،طبقاً لقواعد معينة متفق عليها بين أبناء اللغة الواحدة، وهذه التشكيلات تتخذ أحياناً أشكالاً مختلفة مثل النطق أو الكتابة أو غير ذلك من وسائل البيان التى أشار إليها الجاحظ وعرضنا لها من قبل.

هذا النظام يكاد الجاحظ يشعر به شعوراً واضحاً من خلال حديثه أولاً عن البيان، ثم حديثه عن الكلام، فهو يحاول بطريقته فى الشرح والتمثيل والتحليل أن يقول بوجود نظام System محدد من التقطيع الصوتى فى اللغة المنطوقة وهذا التقطيع ينتج حروفاً أو أصواتاً لغوية، وهى فى ذات الوقت رموزاً أو علامات، وهذه العلامات أو الرموز قابلة للتشكيل، أو التأليف كما يقول، وينتج عن هذا التشكيل كلمات وجمل وعبارات وشعر ونثر، ويمكن بواسطة هذه الرموز أن ينتقل الكلام بين طرفين هما المتكلم أو المستمع.

ويدل على وعيه بالجانبين النطقى والوظيفى ودورهما فى التشكيل والتأليف على مستوى الكلمة المفردة بعض القوانين العامة التى رصدها فيما يتصل بالنظام الصوتى للكلمة العربية.

يقول: «فأما فى اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم وتأخير، والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا

---

(١) الحيوان: ١/ ٣٢

الضاد والذال بتقديم ولا تأخير، وهذا باب كبير، وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل على الغاية التى بها يجرى»[1].

وهو هنا يشعر أن تقارب المخارج بين هذه الأصوات ومواضعها فى بناء الكلمة العربية لا يستقيم، وهو ما يدل على معرفته بطبيعة كل صوت من هذه الأصوات اللغوية من حيث مكوناتها النطقية والسمعية، ويدل على أنه يعرف ذلك معرفة واسعة قوله: «وهذا باب كبير يكتفى فيه بذكر القليل حتى يستدل على الغاية التى إليها يجرى»[2].

أما على مستوى التركيب أو النظم syntax، فسيعمل مصطلح «النظام» بصورة مباشرة، يقول:

«وإذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض، بينها من التنافر ما بين أولاد العلات، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤنة، وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم ذلك من أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان... وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة مُلسا، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة مستكرهة، تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة متواتية سلسلة النظام»[3].

ويترتب على هذا التصور للعلاقات التركيبية للكلام سواء أكان كلاماً عادياً - كما سنرى فيما بعد - أم كلاماً فنياً شعراً ونثراً وخطابة، أن الجاحظ كما يميز بصورة جوهرية بين مستويات التركيب أو التأليف المختلفة، أو بعبارة أخرى بين نُظم اللغة المختلفة: الصوتية phonetics والفنولوچية phonology والمورفولوچية Morphology والتركيبية أو النظم Syntax الذى أقام عليه نظرية فى إعجاز القرآن، ثم الدلالية Semantics،

---

(١) الحيوان: ١/ ٣٢.
(٢) البيان والتبيين: ١/ ٦٩.
(٣) المصدر السابق: ١/ ٣٤ - ٤٠.

وأن هذه النُظم المختلفة لا تعمل بصورة منفصلة بمعنى أن كل نظام منها يعمل بصوره مستقلة عن النظام الآخر .أو له استقلال واضح عن بقية النظم الأخرى، خاصة فى استعمال اللغة. ولكنه كان يعرف أن هذه النظم تصب فى نظام واحد متناسق متكامل هو النظام اللغوى Linguistic system للغات الإنسانية من ناحية، والنظام اللغوى الخاص بلغة معينة من ناحية أخرى، يدل على ذلك ويؤكده اطراد حديثه عن اتفاق اللغات واختلافها، والفروق الواضحة بين لغة الإنسان ولغة الحيوان، لأن استعمال اللغة عنده هو استعمال واع مقصود به البيان والتبليغ، فقد يتهيأ لبعض الحيوانات من أصوات اللغة المشاركة لمخارج حروف الناس، كالغنم التى يمكنها أن تنطق «ماء» أو كالذى يتهيأ على ألسنة الأطفال قبل مرحلة اكتساب اللغة، كقولهم «ماما» «بابا» فكلها أصوات تشبه أصوات اللغة، ولكنها لا تخضع للنظام اللغوى. وبالتالى فهى ليست لغة أو كلاماً[1]

ومثل ذلك حديثه عن بعض العيوب النطقية فيما يسمى بأمراض الكلام مثل اللثغة والتمتمة والفأفأة والحُبسة وغيرها من عيوب النطق، وعلى الرغم من أن المجتمع أو الناس قد يفهمون أصحابها ويُتواصلون معهم، فإنها تمثل عنده خروجاً عن النظام الصوتى، وما ينبغى له من الوضوح والبيان[2]

وبهذا تكتمل نظرية «البيان باللسان» عند الجاحظ بشقيها الاتصالى والتحليلى وقد جرد abstracted هذه النظرية وفق أصول عملية من ملاحظاته الواسعة للغة العربية واللغات الأخرى التى يتردد ذكرها فى مؤلفاته مثل الفارسية والرومية والهندية والسندية والسريانية وغيرها.

وهو بهذا التصور لماهية اللغة ونظامها ووظيفتها. يستعد للدخول إلى عالم اللغة الواسع وخاصة فى حقلين أساسين من حقول دراسة اللغة، أولهما الاستخدام الفنى للغة كما تبدو فى مجالات الأدب من شعر ونثر

---

(١) البيان والتبيين ١ ٦٢ ٦٤

(٢) المصدر السابق ١ ٣٤ ٤

وخطابة وثانيهما استخدام اللغة فى إطارها الاجتماعى، وصور هذا الاستخدام وتنوعه.

أى، بعبارة أخرى دراسته اللغة فى صورتها الفنية والجمالية والأسلوبية ثم دراسة اللغة كوسيلة اتصال يومية فى المجتمع، وتنوع هذا الاستخدام، وذلك، وفق أصل واحد، وهو لكل مقام مقال، أى وفق نظرية السياق الاجتماعى للغة Context of situation وهو ما سنعالجه فى القسم الثانى من هذا البحث.

٢ - التنوع اللغوى واللهجات الاجتماعية عند الجاحظ :

يدرس علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics العلاقة بين اللغة والمجتمع أو بعبارة أدق، مدى اتصال البنية اللغوية بالظروف والملابسات الاجتماعية التى تحيط بها وقت وقوعها ومن ثم فإن عالم اللغة الذى يدرس ويحللها ، هذه العلاقة المتبادلة بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية إنما يمارس فى حقيقة الأمر عملين فى آن .

الأول عملى ميدانى empirical والثانى نظرى Theoretical ، أما الأول فيتمثل فى الخروج إلى المجتمع الذى يدرس لغته،حيث يجمع المادة اللغوية linguistic Data من واقع الحياة اليومية للمتكلمين باللغة، وهذه المادة هى التى تصبح موضوع الشق الثانى من عمل عالم اللغة الاجتماعى، حيث يصنف هذه المادة فاحصاً لها متأملاً فيها واصفاً لها.

وتلعب الخبرة الشخصية لهذا العالم دوراً بارزاً فى جمع المادة اللغوية من ناحية،ودراستها وتحليلها من ناحية أخرى،وذلك فى إطار من مفاهيم نظرية واضحة ودقيقة حول اللغة وطبيعتها والعناصر المكونة لها ووظيفتها الاجتماعية وعلاقة ذلك بالمتكلم والسامع من أبناء اللغة أو من غيرهم ممن يتكلمون هذه اللغة ويعيشون فى المجتمع وليسوا من أبنائه[١] .

ولم يكن الجاحظ بعيداً عن هذه الحقائق العملية والنظرية حول علاقة

---

(١) راجع: Hudsan, R.A., Sociolinguistics, PP 1 - 6

اللغة بالمجتمع ومظاهر التنوع اللغوى فيه، وذلك من خلال ملاحظاته الكثيرة حول اللغة والبيان والخطابة والمواقف الكلامية المختلفة، أو علاقة المقام بالمقال بشكل عام.

كما كان يدرك بصورة جلية طبيعة التركيب الطبقى والاجتماعى للمجتمع الإسلامى فى عصره، وخاصة فى البصرة، حيث ولد وعاش معظم حياته، وكذا طبيعة العناصر البشرية المكونة لهذا المجتمع من الناحيتين الاجتماعية واللغوية، يضاف إلى ذلك خبراته الواسعة بالحياة الاجتماعية والعملية والفكرية فى عصره، فلم يكن الجاحظ - على الرغم مما وصل إليه من شهرة ومكانة وصلة بكبار رجال الدولة - ممن ينسون أنهم انحدروا من أصول شعبية متواضعة، ولذلك كان من اليسير عليه أن يتغلغل فى طبقات الناس والمجتمع تغلغلاً عجيباً متنقلاً بين أقاليم الدولة الإسلامية ممارساً لكثير من وجوه الحياة التى يتصل بعضها باللغة والأدب والعلم والفكر، وبعضها بحياة الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية[1]، ومن ثم تكوّن من هذا المزيج الفريد عالم من علماء علم اللغة الاجتماعى لا يعرف تاريخ الفكر اللغوى الإنسانى عنه شيئاً. ولعل النظرة العجلى لعناوين بعض كتبه ورسائله تضع بين أيدينا صُورة صادقة لمعرفة الجاحظ لهذا التنوع الطبقى والاجتماعى العربى الإسلامى فى عصره، منها على سبيل المثال:

١ - كتاب القحطانية والعدنانية.
٢ - كتاب العرب والموالى.
٣ - كتاب الصرحاء والهجناء.
٤ - كتاب القضاة والولاة.
٥ - كتاب النساء.
٦ - كتاب التجار.
٧ - كتاب المعلمين.
٨ - كتاب طبقات المغنين.
٩ - كتاب الجوارى.
١٠ - كتاب اللصوص.

---

(١) راجع المصادر والمراجع التى ذكرتها فى مقدمة هذا البحث عن حياة الجاحظ وأعماله. وانظر أيضاً: الحيوان: ٧/ ٤١، حيث يصف تجوله فى البرارى والبلدان وصحارى جزيرة العرب والروم والشام وغير ذلك.

١١ - كتاب الطفيلين. ١٢ - كتاب أخلاق الشطار.
١٣ - كتاب العرجان والبرصان. ١٤ - كتاب البخلاء[١]

وهذه الكتب والرسائل وغيرها كثيرة بعضها فقد، وبعضها وصل إلينا، ناهيك بكتابيه الكبيرين، «الحيوان» و «البيان والتبيين» وكلها تضم ملاحظات مباشرة حول علاقة اللغة بالمجتمع، وصور التنوع اللغوى التى رصدها بعد أن سمعها بنفسه، وهى تدل على شعور واضح عنده بمدى الارتباط بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية ولأن الجاحظ يضع «البيان باللسان» فى قمة وسائل البيان وآلاته، لأن وظيفة اللغة عنده -كما أشرنا من قبل - هى البيان سواء أكان معجزاً، مثل القرآن، أم كان من كلام البشر، فقد أخذ فى دراسة هذا التنوع اللغوى فى إطاره الاجتماعى محللاً ومفسراً له، رصداً أسبابه وعلله اللغوية، والاجتماعية.

وصدد هذا ينطلق من مبدأ واضح وصريح، وهو ضرورة رصد الحدث الكلامى Speech event كما وقع، يقول:

«إن الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب، لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة، وذلك المخرج، وتلك اللغة، وتلك العادة[٢].

وبناء على ذلك يسجل كلام أستاذه أبى إسحاق النّظام (ت ٢٢١هـ) وهو من كبار رجال المعتزلة كما سمعها منه، يقول الجاحظ إن كلباً هاجم النّظام، وألح عليه، وطارده، فقال أبو إسحاق مخاطباً الكلب «إن كنت سبع، فاذهب مع السباع وعليك بالبرارى والغياض وإن كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم»[٣].

ويعلق الجاحظ على نقله للحدث اللغوى كما حدث، فيقول: «ولا تنكر قولى وحكايتى عنه بقول ملحون، من قولى «إن كنت سبع» ولم أقل

(١) راجع ياقوت الحموى، معجم الأدباء: ٦/ ٥٦ - ٨٠، ط ٢ هندية.
(٢) الحيوان: ١/ ٢٨٢.
(٣) المصدر السابق: ١/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

«سبعا»[1] لأن النظام نطق بهذه العبارة على هذا النحو. والجاحظ يريد أن يسجل ذلك وفق مبدأ أصيل من مبادئ علم اللغة الاجتماعي الذي يرى أن ضرورة تسجيل الحدث اللغوي كما نطق به صاحبه من حيث تركيبه وملامحه النطقية ومستواه اللغوي[2]، أو كما يقول الجاحظ وفق «تلك الصورة وذلك المخرج وتلك اللغة وتلك العادة».

وهو يقصد «بتلك الصورة» صورة التركيب اللغوي، وبذلك المخرج «طريقة النطق» و«تلك اللغة» أي المستوى اللغوي الذي خرجت به العبارة، و«تلك العادة» أي العادات اللغوية التي يستخدمها المتكلم، والتي قد تميزه عن غيره من المتكلمين باللغة نفسها Register.

ومن المبادئ النظرية التي يؤمن بها الجاحظ أيضاً أن اللغة بما لها من صلة بالمجتمع خاضعة لمبدأ التغير اللغوي language change، فاللغة عنده لا تثبت على حال، وإنما تتغير طبقاً لحاجات المتكلمين بها سواء بتأثيرات داخلية في المجتمع أو خارجة عنه، والدليل على ذلك تغير اللغة العربية، وإسقاطها لكثير من الألفاظ الجاهلية التي لم تعد تعبر عن المفاهيم الإسلامية، أو التي لا تتوافق مع الفكر الإسلامي، وحلت محلها كلمات أخرى، وهو يدلل على فكرة التغير هذه بذكر عشرات الألفاظ التي أسقطتها العربية من الاستعمال، وحلت محلها كلمات أخرى فيما يطلق عليه علماء العربية القدماء الألفاظ الإسلامية[3].

وبصورة عامة فإن الكلام عند الجاحظ ظاهرة اجتماعية Social phenomena تتغير مبنى ومعنى طبقاً لاحتياجات الناس والمجتمع، يقول:

«كثر كلام الناس، واختلفت صور ألفاظهم ومخارج كلامهم ومقادير أصواتهم في اللين والشدة، وفي المدّ والقطع. كثرة حاجاتهم، ولكثرة

---

(١) المصدر السابق: الصفحة نفسها

(٢) راجع: Labov. The study of language in its social context PP 180 182 in Sociolinguistics Selected Reading, ed by prid and Habmes.

(٣) أنظر الحيوان ١/ ٣٢٧ ٣٣٢، ٣٣٥

حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم، واتسعت على قدر اتساع معرفتهم»[١].

ومن ملاحظة واستقراء كلام الناس على هذا النحو، ومن تتبعه لصور التنوع اللغوى Language Variety وتغير اللغة، يضع الجاحظ قانوناً عاماً من قوانين علم اللغة الاجتماعى يقول:

«وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات»[٢]، وهو ما اتفق عليه علماء علم اللغة الاجتماعى عندما يتحدثون عن اللغة والطبقات الاجتماعية Language and social class[٣].

وبناء على ذلك حاول الجاحظ إقامة شبكة من العلاقات بين العربية الفصحى أو لغة الأعراب كما كان يسميها أحياناً، أو اللهجات الاجتماعية social dialects والإقليمية Regional dialects التى انبثقت من العربية، خاصة بعد الفتح الإسلامى وانتشار العربية بين أمم وشعوب لم تكن العربية لغتها الأم.

ولأن الجاحظ يضع عربية القرآن فى قمة مستويات البيان التى لا تتحقق فى لغة البشر مع اعترافه بأنها نزلت على طريقة العرب فى الكلام، إلا أن القرآن «قد خالف جميع الكلام الموزون والمنثور وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج»[٤].

فى مقابل ذلك يضع عربية الأعراب والبدو أو أبناء العربية الخلص Native speakers فى قمة الاستخدام البشرى للعربية ذلك«لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت أو اطردت وتكاملت بالخصال التى اجتمعت لها فى تلك الجزيرة»[٥] أى فى الجزيرة العربية الموطن الأصلى للغة العربية، ومن

---

(١) المصدر السابق: ٤/ ٢١ - ٢٢.
(٢) البيان والتبيين: ١/ ١٤٤.
(٣) راجع: Trudgill, Peter, Sociolinguistics P.14,16,19,20,28,34.
(٤) البيان والتبيين: ١/ ٣٨٣.
(٥) المصدر السابق: ١/ ١٦٣.

ثم يصف هذا المستوى اللغوى لكلام العرب الخلص وخطبهم بقوله

«ولم أجد فى خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح ألفاظاً مسخوطة ولا معانى مدخولة ولا طبعا رديئاً ولا قولاً مستكرها وأكثر ما تجد ذلك فى خطب المولدين وفى خطب البلديين المتكلفين، ومن أهل الصنعة المتأدبين، سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أو من نتاج التحبير والتفكير»[(1)]

وبناء على ذلك جاء كلام العرب الفصحاء والأعراب الخلص وأهل اللسان من رجالات العرب وقريش وأهل الحجاز فى قمة التوريع الإقليمى والاجتماعى للهجات العربية عند الجاحظ يقول: «وأنا أقول إنه ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ولا ألذ فى الأسماع، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء»[(2)]

ونظرة الجاحظ إلى لغة الأعراب هى نظرة علماء العربية من بعده خاصة بعد الفتح وانتشار العربية فى المدن والأمصار التى فتحها العرب، يقول أبو بكر الزبيدى (ت ٧٩١هـ): «ولم تزل العرب فى جاهليتها وصدر إسلامها تبرع فى نطقها بالسجية وتتكلم على السليقة حتى فتحت المدائن والأمصار ودونت الدواوين، فاختلط العربى بالنبطى والنقى الحجازى بالفارسى، ودخل الدين أخلاط من الأمم وسواقط البلدان فوقع الخلل فى الكلام وبدأ اللحن على ألسنة العوام»[(3)]

ومصطلح «اللحن» من مصطلحات الجاحظ التى توقف عندها، وهو عنده مصطلح عام Collective term مثل مصطلح البيان يدل على معان كثيرة[(4)]

غير أنه ينصرف عنده كمصطلح لغوى Linguistic term للدلالة على

---

(١) المصدر السابق ٢ ٨ ٩

(٢) المصدر السابق ١ ١٤٥

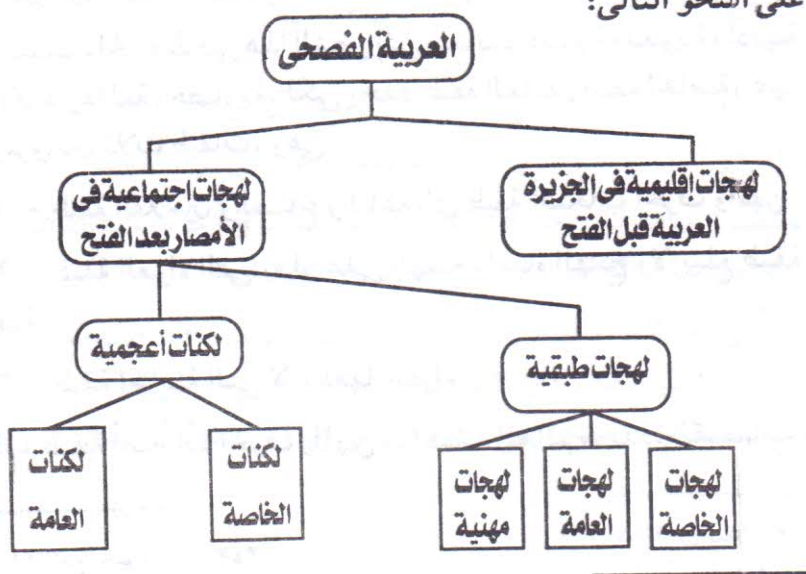
(٣) لحن العوام ص ٤

(٤) راجع البيان والتبيين باب اللحن ٢/ ٢١ ، ٢٧٧ ، أنظر نصاً لسان العرب مادة «لحن»، ويوهان فك العربية ترجمة مصادر عبد التواب ملحق مادة لحن ص ٢٤٣ ٢٥٥

الخروج على أوضاع العربية البدوية أو عربية العرب الخلص، سواء فى الصوت أو الصرف أو النحو أو الدلالة أو فيها جميعاً، وذلك فى مقابل مصطلح اللُّكنة Accent الذى يدل عنده على طريقة غير العرب سواء من العجم أو المولدين فى نطق العربية واستخدامها، ومن ثم فقد ترتب على وقوع اللحن وظهور اللُّكنات واختلاف كلام الناس باختلاف طبقاتهم وثقافتهم ومهنهم، كم هائل من التنوعات اللغوية التى حاول الجاحظ رصدها فى صورة لهجات إقليمية واجتماعية بما لها من صلة بالعربية الفصحى Standard Language أو لغة العرب الخلص، لأن العربية لم تنتشر فى البلاد المفتوحة أو الأمصار، وفق مستوى لغوى متجانس، وإنما تأثرت باللغات الأصلية لأهل البلاد، وكذا باللهجات العربية أو الإقليمية للقبائل العربية التى فتحت الأمصار، وصدد هذا يقول:

«إن أهل الأمصار يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ولذلك نجد الاختلاف فى ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر»[(١)].

وبصورة عامة يمكن القول بأن الجاحظ قد تصور هذه التنوعات اللغوية على النحو التالى:



---

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٨.

أما اللهجات الإقليمية أو اللهجات العربية. وهى بعد داحل الجزيره العربية قبل الفتح، فلم يتعرض لها الجاحظ كثيراً. وإنما يكتفى بالإشاره إلى موطن هذه اللهجة أو تلك من اللهجات العربية وبعض حصائصها النطقية[1]. وأما اللهجات الاجتماعية فهى التى استأثرت باهتمامه وكذلك اللُكنات الاجتماعية، ومن ثم حاول أن يرصد ملامحها الفنولوچية والمرفولوچية والتركيبية والمعجمية.

ويحدد مفهوم طبقتى العامة والخاصة بقوله:

«إذا سمعتمونى أذكر العوام فإنى لست أعنى الفلاحين والحشوة والصناع والباعة، ولست أعنى أيضاً الأكراد فى الجبال، وسكان الجزائر فى البحار، ولست أعنى من الأمم البيبر والطليان، ومثل قوقان وجيلان ومثل الزنج وأشباه الزنج، وإنما الأمم المذكورة مع جميع الناس أربع: العرب وفارس والهند والروم والباقون همج وأشباه الهمج.

وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التى فوق تلك الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا على أن الخاصة تتفاضل فى طبقات أيضاً»[2]

ويستند الجاحظ فى هذا النص إلى معايير دينية ولغوية وأدبية وأخلاقية وعقلية وحضارية، لكى يحدد طبقة العامة وطبقة الخاصة، غير أنه يفرق بين ثلاث طبقات، وهى

١ - طبقة الفلاحين والصناع والباعة، أى طبقة أصحاب الحرف والمهن.

٢ - طبقة العوام التى تعلو على الهمج وأشباه الهمج ولا تبلغ طبقة الخاصة

٣ - طبقة الخاصة التى لا يبلغها العوام

أما طبقة أصحاب الحرف والمهن فواضحة المعالم محددة القسمات.

---

(١) راجع الحيوان ٢/ ٣٤٣

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٣٧

وأما الطبقتان العامة، والخاصة فيشوب تحديدها بعض الغموض، ولعل الجاحظ يقصد بطبقة العامة، الطبقات الوسطى والدنيا التى كانت تعيش فى المدن والأقاليم الإسلامية، وحظها من الثقافة والعلم قليل ولا تركن فى أحكامها إلى العقل، وإنما تسيطر عليها الخرافات والأساطير[1]، وهى من الناحية اللغوية ربما تستخف أضعف اللغات واللهجات وتستعمل ما هو أقل فى أصل اللغة وتدع ما هو أظهر وأكثر[2].

وذلك فى مقابل طبقة الخاصة التى تتألف من العلماء والشعراء والكتاب والفلاسفة والمتكلمين والفقهاء، وغيرهم من طبقة المثقفين أصحاب الرأى والنظر العام، وطبقة المثقفين تمتاز بأن لكل طبقة منها ألفاظاً وعبارات تدور وتردد فى كلامها، يقول:

«ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم، وكذلك كل بليغ فى الأرض وصاحب كلام منثور وكل شاعر فى الأرض وصاحب كلام موزون، فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعيانها ليديرها فى كلامه، وإن كان واسع العلم غريز المعانى كثير اللفظ فصار حظ الزنادقة من الألفاظ التى سبقت إلى قلوبهم واتصلت بطبائعهم وجرت على ألسنتهم، مثل التناكح والتنائج والمزاج والنور والظلمة والدفاع والمناع والساتر والقامر والمنحل والبطلان والوجدان...

وأشكالاً من هذا الكلام وإن كان غريباً مرفوضاً من أهل ملتنا ودعوتنا وكذلك هو عند عوامنا وجمهورنا، ولا يستعمله إلا الخواص والمتكلمون»[1]

وبصور عامة فإن لكل طبقة اجتماعية ألفاظاً خاصة يتحكم فى استخدامها مقام الكلام Context of Situation يقول:

«وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً فى صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام فإن ذلك أفهم لهم عنى وأخف لمؤنتهم علىّ ... وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة أو فى

---

(١) الحيوان: ٢/ ١٠٥ - ١٠٨

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢

(٣) الحيوان: ٣/ ٣٣٦ - ٣٣٧

مخاطبة العوام والتجار أو فى مخاطبة أهله وعبده وأمته، أو فى حديثه إذا تحدث أو خبره إذا أخبر، وكذلك فإنه من الخطأ أن يجلب الألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهى فى صناعة الكلام داخل، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل»(١).

وبذلك يؤكد الجاحظ فهمه لطبيعة اللغة والتنوعات اللغوية للمتكلمين بها ، فاللغة عنده تحمل طابع الحياة التى يحياها المتكلمون بها ، يظهر ذلك فى اختلاف المفردات بين مستوى لغوى ومستوى لغوى أخر ، بين لهجة اجتماعية ولهجة اجتماعية أخرى ، بل إنه يفطن إلى عوامل أخرى تدخل فى تميز لهجة اجتماعية معينة ، مثل الجوانب الصوتية التى تصاحب الكلام ، أى التى لا تتمثل فى الألفاظ التى ينطق بها صاحب اللهجة وإنما فى حالة الصوت ارتفاعاً وانخفاضاً ، وكذلك عامل السن والموطن الأصلى ، أو كما يقول **«وإن اختلفت الصور والنغم والاسنان والبلدان»**(٢).

وكما التفتت إلى الخصائص المعجمية للهجات الاجتماعية من حيث استعمال المفردات وكذا إلى بعض الجوانب الصوتية ، وخاصة فى لكنة الأعاجم ، كما سنرى فيما بعد ، يلتفت أيضاً إلى بعض خصائص النطق والتركيب والمعجم فى الدلالة على بعض اللهجات الاجتماعية يقول:

«ومتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير ، كذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها ، واستملاحهم لها »(٣).

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ٣٦٨ - ٣٦٩ وأنظر أيضاً البيان والتبيين: ١/١٣٨ - ١٤ حيث يذكر نماذج من الخطب التى خالف أصحابها مقام الكلام باستعمال ألفاظ الخاصة فى مخاطبة العامة.

(١) الحيوان ٢/ ٥ ١

(٣) البيان والتبيين. ١/ ١٤٥ ١٤٦ وأنظر أيضاً الحيوان. ١/ ٢٨٢. ٣/ ٣٩

وهو لا يكتفى بهذا الوصف والتعليل ، وإنما يطبق ذلك فى صياغته لكتابه «البخلاء»،حيث يصور التنوعات اللغوية،كما نطق بها أصحابها، يقول:

«وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ولفظاً معدولاً عن جهته، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك، لأن الإعراب يبغض هذا الكتاب ويخرجه عن حده، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلى البخلاء واشحاء العلماء»[1].

ويبدو أن الجاحظ كان يرى أن الكلام من حيث أنه مميز اجتماعى وطبقى، فهو أيضاً صورة نفسية مسموعة تؤدى عن المتكلم ما تجيش به نفسه من عواطف أو أحاسيس بغض النظر عما يقع من لحن الذى قد يكون جزءاً من هذه الصورة النفسية، كما تنعكس فى الكلام، ولذلك صاغ كتابه «البخلاء» فى عبارات وجمل منتزعة من الحياة الواقعية لأبطاله، كما سمعها الجاحظ وأثبتها دون تصرف وكثير منها ملحون ومخالف لأوضاع العربية الفصحى فى التركيب، بل شاع فى الكتاب جو عامى العبارة لفظاً وتركيباً، فمن ذلك - على سبيل المثال - نجد العبارات والجمل الآتية:

١ - «تغذيت اليوم؟».
٢ - «لا تريده فهو مالح؟».
٣ - «هذا من علمه ما تسمع».
٤ - «لعله أن يكون إنما أتى من قبل العمامة».
٥ - «ليت أنى قد رأيتك».
٦ - «تريد ماذا؟».
٧ - «أوليس قد دعوتنى».
٨ - «هو نفسه ليس يشبع».
٩ - «ليس أنا أسلمته إليه».
١٠ - «فلما رأنا تمشّى معنا».

---

(١) البخلاء، طه الحاجرى: ص ٤.

١١ - «إنما بى أنى كنت أظن أن إجماع الناس عنى بمعزل».
١٢ - «لكان عسى ذلك أن يكون محتملا».
١٣ - «وكان إذا كان جديد القميص».
١٤ - «إن كان التوكل أن أكون متى أخرجت مالى أيقنت بالخلف».
١٥ - «لو قد ذهب هؤلاء الثقلاء لقد أكلنا».
١٦ - «كما لم تكن فكنت، فكذا لا تكون بعد أن كنت».
١٧ - «تأكل فى السوق؟».
١٨ - «فلا تلمونى على أن كنت عندى واحدا من أهل عصرك».
١٩ - «لو كان عندك نبيذ كنا فى عرس».
٢٠ - «قد أخبرتك أن عينك مالحة وأنك ستصيبنى بعين»(١).

ومعظم هذه الجمل والعبارات تخالف العربية، سواء الجمل الخبرية أو الاستفهامية التى تعتمد على التنغيم Intonation، بدلاً من أداة الاستفهام، وهو ما يدل على أن الجاحظ قد سمعها وكتبها كما سمع، مثل الجملة الأولى والجملة السابعة والثامنة، وتركيب مثل« ليس أنا» بدلاً من «لست»، كما فى الجملة التاسعة.

يضاف إلى ذلك تلك التراكيب التى تدل على الزمن، والتى يستعمل فيها المتكلم (قد + الفعل) على غير طريقة العربية الفصحى، كما فى الجملة الخامسة «لو قد ذهب.. لقد أكلنا» وهى جملة شرطية، حيث نجد الفعلين «ذهب» و«أكل» فى صيغة الماضى،غير أن وقوع أحدهما مترتب على وقوع الأخر،فالأكل لن يحدث إلا بعد أن يذهب هؤلاء الثقلاء، فجاء الفعل ذهب فى صيغة الماضى القريب من زمن المتكلم (قد + فعل).

أما تركيب «قد أكلنا» فالمتكلم يقصد «كنا قد أكلنا».أى أن تركيب (قد + فعل) يدل على التركيب (قد + كان + فعل)، أى على الماضى البعيد، وبالتالى تكونت صيغة زمنية مركبة من فعلين وقعا فى الماضى وكان وقوع أحدهما مترتباً على وقوع الآخر. ومن ثم ميز المتكلم بينهما،

---

(١) البخلاء : صفحات ١٧ - ١٨ - ٢٢ - ٢٥ - ٣٦ - ٥٢ - ٧ - ١١٩ - ١٤٥ - ١٤٨ - ١٥٢ - ١٨١ - ٢١١.

بأن وضع الفعل الأول «ذهب» فى الماضى القريب، والفعل الثانى «أكل» فى الماضى البعيد، وهو من التراكيب التى لا تعرفها العربية الفصحى على هذا النحو، ومثل ذلك فى عدد من الجمل الأخرى.

غير أن ما يلفت النظر فى كتاب «البخلاء» أيضاً ذلك الجو العامى الشعبى الذى تعكسه اللغة التى استخدمها الجاحظ، والتى تعطى صورة نابضة بالحياة، وخاصة فيما يتصل بكلام العامة، حتى يكاد المرء يشعر بالحياة اليومية لهذه الطبقة من الناس من خلال الألفاظ الدالة على طعامهم وشرابهم وملابسهم وسلوكهم الاجتماعى.

فمن ذلك ما جاء على لسان صاحب دار بخيل، يشكو من أحد المستأجرين يستغل داره استغلالاً سيئاً، يقول:

«وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقفال وجذب الأقفال، تهشمت الأبواب وتقلعت الرزات وتضاعف البوش، ونزعت مسامير الأبواب، وقلعت كل ضبّة ونزعت كل رزة»[1].

وهو لا يكتفى بهذا الجو العامى للكلام، بل ينقل ما تستخدمه العامة من أسماء الأطعمة مثل:

الهريسة، الكرنبية، الفجلية، الغموس، المرق، المثلثة، الكرات، البصل الخبيصى وغيرها كثير[2]

ولعل أهم من ذلك من وجهة نظر علم اللغة الاجتماعى، توقف الجاحظ فى هذا الكتاب أمام طائفة «المكدين»، وهم طائفة من اللصوص وقطاع الطرق، اتخذت من الاحتيال على الناس وسيلة حياة، واستخدموا فى ذلك أساليب وطرق شتى من استخدام القوة، والاستلاب بالعنف والغلبة إلى استغلال غفلة الناس وغرائز الرحمة والرقة فيهم للحصول على أموالهم أو الاستيلاء على متاعهم[3].

وقد وجد الجاحظ فى هذه الطائفة نوعاً من الحياة اللغوية والاجتماعية

---

(١) البخلاء ط. الحاجرى: ص ٨٢ - ٨٣.
(٢) المصدر السابق: ص ٦٩
(٣) راجع المصدر السابق: ص ٣٠٤ - ٣٠٩.

جديرة بالتوقف والتسجيل ، إذ كانت لهذه الطائفة لغة سرية خاصة Underworld Speech[1] ،ويدل هذا المصطلح على تلك اللغة التى تستعملها طائفة من الناس تخشى سلطة المجتمع وتهرب من عقابه وتحاول أن تخفى عنه أمرها، مثل لغة اللصوص ورجال العصابات وغيرهم.

وعادة ما تصطنع مثل هذه الطوائف مفردات وعبارات لا يعرف معناها من ليس منهم، أو من لم يتصل بهم ويكشف عنها، والذى يلجأ إليه أصحاب هذه اللغة عادة أنهم يغيرون دلالات بعض الكلمات المستعملة فى اللغة المشتركة بإعطائها دلالات جديدة تعتمد على الاستعمالات المجازية، وقد تستعمل فيها كلمات مأخوذة من بعض اللغات الأجنبية محرفة أو غير محرفة، وقد تخترع بعض الكلمات اختراعاً، وهذه التغيرات التى تلحق مثل هذه اللغة تغيرات مقصودة، وقد لوحظ أن فى هذه اللغات السرية المختلفة قدر مشترك من المفردات أو العبارات، ولا سيما فى لغات أوروبا والولايات المتحدة، حيث يطلق بعض اللصوص فيها على المجوهرات كلمة «جليد» ice، ويدلون على الجواهر المسروقة بعبارة «الجليد الساخن» Hotice[2].

وهكذا كانت لغة المكدين كما نقلها لنا الجاحظ فى البخلاء على لسان واحد منهم هو خالد بن يزيد عندما سأله أحدهم عن مدى معرفته بهم، فقال:

«وكيف لا أعرفهم وأنا كنت كاجار فى حداثة سنى، ثم لم يبق فى الأرض مخطرانى ولا مستعرض إلا فقته ولا شحاذ ولا كاغانى ولا بانوان ولا قرسى ولا عواء ولا مشعب ولا فلور ولا مزيدى ولا إسطيل إلا وكان تحت يدى، ولقد أكلت الزكورى ثلاثين سنة، ولم يبق فى الأرض كعبى ولا مكدَ إلا وقد أخذت العرافة عليه»[3].

---

(٢) محمود السعران، اللغة والمجتمع: ص ٦٠٤.

(١) المرجع السابق ص ٦٠ - ٦١ وانظر أيضاً:

Schlauch Margaret, The Gift of Tongue. P. 269.

(٢) البخلاء ط. الحاجرى: ص ٤٦. وانظر تفسير ودلالة ألفاظ هذا النص فى المعجم الملحق بهذا البحث.

ولعل من أوضح الأمثلة التى حوت معجم هذه اللغة السرية القصيدة الطويلة التى كتبها فى القرن الرابع الهجرى الشاعر الماجن المتسول أبو دلف الخزرجى، واشتهرت باسم «القصيدة الساسانية» نسبة إلى ساسان رأس المكدين، وجدهم الأعلى،ويدعون أن كان أحد ملوك الفرس عهد أبوه بالملك لأخيه فأنف من ذلك، فخرج واشترى لنفسه غنماً راح يرعاها فى الجبال، حيث عاشر اللصوص وقطاع الطرق فعير أخوه الملك بذلك، ثم نسب إليه كل من تكدى، أو باشر عملاً من أعمال اللصوصية والشعوذة والتكدى.

وقد روى أبو منصور الثعالبى (ت ٤٢٩هـ) هذه القصيدة كاملة فى كتابه «يتيمة الدهر» وشرح مصلحطاتها وألفاظها[١].

وهناك طائفة أخرى توقف الجاحظ أمامها، حيث سجل لنا طرفاً من كلامها، وهى طائفة «الطفيلين» نسبة إلى «طفيل العرائس» أو «طفيل الأعراس» ويقال إنه كان من غطفان، وكان من أشد الناس طلباً للولائم والأعراس يأتيها من غير أن يدعى إليها، وهو أول من فعل ذلك، وإليه ينسب الطفيليون[٢].

وقد كتب الجاحظ عن الطفيلين كتاباً،ذكره ياقوت الحموى(ت ٦٢٦هـ) فيما ذكر من مؤلفات الجاحظ وكتبه، ولم يصل إلينا هذا الكتاب، ويبدو أن ما ذكره فى البخلاء هو جزء يسير منه، إذ وضعه على لسان أبى الفاتك قاضى الفتيان أو الشطار، الذى يعيب على بعض الناس والطفيلين منهم خاصة طريقتهم فى تناول الطعام، وهو ما يتخذ منه الحارثى -أحد بخلاء الجاحظ- مبرراً لعدم تقديم الطعام أو مشاركة الناس له فى طعامه.

قال الجاحظ على لسان الحارثى: **ويمنعنى من ذلك ما قال أبو الفاتك قالوا: ومن أبو الفاتك؟ قال قاضى: الفتيان، وإنى لم آكل مع أحد قط إلا رأيت منه بعض ما ذمه، وبعض ما شنّعه وقبحه، فشئ يقبح بالشطار، فما ظنك به إذا كان فى أصحاب المرؤات وأهل البيوتات، قالوا: فما قال**

---

(١) انظر يتيمة الدهر: ٣/ ٣٥٤ - ٣٧٣.

(٢) البخلاء. ط. الحاجرى: ص ٧٨، ص ٣٤٨ - ١/ ٣٤٩.

أبو الفاتك قال: الفتى لا يكون نشالا ولا نشافا ولا مرسالا ولا لكاما ولا مصّاصا ولا نفّاضا ولا دلّاكا ولا مقورا ولا مغربلا ولا مُحلقما ولا مسوّغا ولا ملقّما ولا مخضّرا،فكيف لو رأي أبو الفاتك:اللطّاع والقطّاع والنّهاش، المدّاد والدفاع والمحَول ... وأنا والله أحتمل الضيف والضيفن ولا أحتمل اللغموط ولا الجردبيل والواغل أهون على من الراش»[١].

ومما يؤكد أيضاً اهتمام الجاحظ باللهجات الاجتماعية واللغات الخاصة والتنوع اللغوى على هذا النحو ماجاء أيضاً فى رسالته «صناعات القواد» وهى رسالة لا يدل عنوانها على محتواها دلالة مباشرة، وإنما هى رسالة قصد منها الجاحظ أن يدلل على اختلاف مستوى الكلام باختلاف مهنة المتكلم وحرفته، وأن لكل مهنة معجمها اللغوى الخاص بها، وهو ما يطلق عليه فى علم اللغة الاجتماعى مصطلح اللهجة المهنية أو الحرفية[٢] Jargon وما يترتب على ذلك من حاجة الإنسان إلى معرفة طرف من كل علم، حتى يدرك الكلام ويفهمه من خلال لغة صاحب كل مهنة.

ولكى يتحقق له ذلك سأل عدداً من أصحاب المهن والحرف المختلفة عن موقعة حربية شهدها مع الخليفة فى بلاد الروم وهم: «سائس وطبيب وخياط وزراع ومؤدب وصاحب حمام وكنّاس وشرابى وطباخ وفراش»

فأخذ كل واحد منهم يصف المعركة مستخدماً ألفاظ مهنته، ويبدو أن الجاحظ قد وضع هذه الرسالة وضعاً ليبين وجهة نظره فى اختلاف الكلام باختلاف المهنة، لأنه لم يكتف بذكر كلامهم الذى وصفوا به المعركة، بل طلب من كل واحد منهم أن يصنع أبياتاً فى الغزل، فلم تختلف لغة الشعر عن لغة النثر، فجاء الشعر أيضاً متأثراً بألفاظ المهنة ومعجمها.

وهكذا جاء كلام«السائس» فى وصف المعركة مرتبطاً بصورة الأصطبل

---

(١) المصدر السابق: ص ٦٧ - ٦٨ وأنظر تفسير الألفاظ الواردة فى النص فى المعجم الملحق بهذا البحث.

(2) Hartman & Stork op cit. P. 106, P. 121.

وأنظر أيضاً

Holmes, Jant, An Introduction to Sociolinguistics P. 276.

والدواب، ونفض التراب عنها والسروج والأنانبير وغير ذلك من ألفاظ المهنة،وهو حين ينغزل بالشعر يصوغ معانى الوجد والعشق واللوعة والشرق بألفاظ *ترتبط بعلف الدواب واللجام والسير وما تشد به قوائم الدابة*[1].

ومثل ذلك يصوغ «الطبيب» وصفه للمعركة فى ألفاظ ترتبط بعمله فى البيمارستان والمحقنة والمباضع، وما فى جسم الإنسان من أوعية دموية مثل الأكحل، وهو من عروق اليد وكذلك تأتى أبياته فى الغزل متأثرة بألفاظ المهنة، فترتبط معانى الوجد واللوعة عنده بصورة الأمراض مثل السل والرشام وهو إلتهاب يعرض للحجاب الحاجز، وأسماء أعلام الطب مثل جالينوس وأبقراط[2].

وإليك ما قاله الشرابى (الخمار) قال الجاحظ: وسألت، أحمد الشرابى عن مثل ذلك (يقصد المعركة) فقال:

«لقيناهم فى مقدار صحن ببت الشراب، فما كان بقدر ما يصفى الرجل دنا حتى تركناهم فى أضيق من رطيلة[3]، فقتلناهم، فلو رميت تفاحة ما وقعت إلا على أنف سكران».

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت:

شربت بكأس للهوى نبذة معا	ورقرقت خمر الوصل فى قدح الهجر
فمالت دنان البين يدفعها الصّبا	فكسّرت قرابات حزنى على صدرى
وكان مزاج الكأس غلة لوعة	ودورق هجــران وقنينتى غدر[4]

ومثل ذلك كان نثر وشعر أصحاب المهن الأخرى:

والقارئ لهذه الرسالة لايخالجه شك فى أن الجاحظ هو الذى صاغها ونظم أشعارها ،وقد تعمد أن يختار موقفاً واحداً محدداً ،ومع ذلك اختلف المتكلمون فى تصوره والتعبير عنه متأثرين بلغتهم الخاصة ومفردات معجمهم المهنى،

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٣٨١ - ٣٨٢.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٣٨٣.
(٣) الرطيلة: وعاء يسع رطلاً من الشراب.
(٤) الجاحظ، الرسائل. رسالة صناعات القواد: ١/ ٣٩٠.

وقد أسعفته فى ذلك خبرة لغوية ودقة ملاحظة لعالم لغة اجتماعى، فأخرجت هذه الرسالة على هذه الصورة الهامة من وجهة النظر اللغوية الخالصة، فهى تضع بين يدى الباحث فى علم اللغة الاجتماعى، وثيقة لغوية عن لغة فئات وطوائف من المجتمع العباسى فى عصر الجاحظ، وخاصة ما يتصل ببعض المهن والحرف التى كان يقوم بها العامة.

على هذا النحو كان اهتمام الجاحظ بالتنوع اللغوى واللهجات الاجتماعية واللغات الخاصة، ولا يقف اهتمام الجاحظ وملاحظاته اللغوية عن أبناء العربية وحدهم، بل تعدى ذلك إلى ملاحظة الأجانب عن هذه اللغة ممن حاولوا نطقها فى حياتهم اليومية، فصور لُكناتهم، ووصفها لغوياً فى إطار الحياة الاجتماعية واللغوية لهذه الطبقة من طبقات المجتمع وهو ما سنتناوله فى القسم الثالث من هذا البحث.

٣ - الجاحظ ولكنات الأعاجم :

كان المجتمع العربى قبل الإسلام مجتمعاً قبلياً انقسم فيه العرب إلى قبائل أو وحدات اجتماعية أساس تكوينها الأسرة الواحدة، أو العديد من الأسر التى ترتبط فيما بينها برباط الدم أو الانحدار من أصل عوقى واحد. وقد ترتب على هذا الاعتقاد طائفة من التقاليد الاجتماعية كانت هى الدستور الذى ينظم حياة القبيلة الداخلية والخارجية، وكان حجر الزاوية فى هذا الدستور هو العصبية القبلية التى تقوم على نصرة ذوى الأرحام والقربى أن ينالهم مكروه أو تصيبهم هلكه، كما يقول ابن خلدون(١).

وكان من نتاج هذا الإيمان بوحدة الدم والعرق أن وجدت طائفة من التقاليد نظمت العلاقات بين الطبقات الاجتماعية داخل القبيلة الواحدة التى كانت تتكون - غالباً من ثلاث طبقات - هى:

١ - الصرحاء: وهم أبناء القبيلة من ذوى الدم النقى، الذين ينتمون إلى أب واحد ،ومنهم تكون الطبقة الارستقراطية فى القبيلة، ولهم الشرف والرياسة.

---

(١) راجع المقدمة، ط. بيروت، ص ١٢٨.

٢ – الموالى: وكانوا يتألفون من عنصرين أحرار وعبيد، فأما الأحرار فهم هؤلاء اللاجئون إلى القبيلة، طالبين الحماية والنصرة، وكانوا يسمون الحلفاء، أو الموالى، وأما العبيد من هذه الطبقة فهم أولئك الذين أعتقهم سادتهم من نير الرق ، ولكنهم ظلوا مرتبطين بهم برباط الولاء ، ويشير المعنى اللغوى لكلمة «الموالى» لكل من هذين العنصرين المكونين لهذه الطبقة[(١)].

٣ – العبيد: وكانوا يتألفون أيضاً من عنصر عربى يمثله أسرى القبائل الأخرى ثم عنصر غير عربى من الرقيق والإماء كانوا يجلبون من البلاد المجاورة للجزيرة العربية كالحبشة، وغيرها.

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن طبقة العبيد هذه كانت تعيش فى حال اجتماعية سيئة داخل هذا المجتمع القبلى الذى يؤمن بوحدته وجنسه إيماناً عميقاً ، وكانوا يستخدمون هذه الطبقة فى أحط الأعمال وأدناها ، كالرعى وحراسة القوافل، وغير ذلك من الأعمال التى يأنف السادة من القيام بها.

ومع ذلك الحرص على الشرف ونقاء الدم، فقد كان يحدث أحياناً أن يتزوج العربى من أمته، ولكن المجتمع العربى قبل الإسلام كان يرى فى هذا الزواج زواجاً غير متكافئ، ولذا كانوا يطلقون على ثمرته اسماً خاصاً، فسمى ابن العربي من الأمة «هجينا» أو «مولدا»[(٢)].

وكان للهوة الواسعة التى تفصل بين هؤلاء العبيد وسادتهم أثرها فى التقليل من الأثر اللغوى لهذه العناصر البشرية التى كانت تضم أصولاً أجنبية عن العرب، فكما كانوا يقلدون سادتهم فى حياتهم الاجتماعية كانوا يتخذون من العربية لساناً، خاصة من ولد منهم بين القبائل العربية مثل عنترة بن شداد الشاعر، وبلال بن رباح صاحب رسول الله، إذ لم تذكر المصادر القديمة أن أيا منهم كان يتكلم بلكنة تخالف العربية، بل لقد وضع الرواة والنقاد العرب عنترة فى طبقة واحدة مع كبار الشعراء من

---

(١) راجع ابن منظور، لسان العرب، مادة «و ل ى».
(٢) راجع لسان العرب، مادة «هـ ج ن»، «و ل د».

ذوى الدم الخالص كعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة[١].

ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن ننفى وجود بعض التأثيرات اللغوية التى ظهرت نتيجة لوجود بعض العناصر البشرية قبل الإسلام، أو لاحتكاك العرب بالأمم والشعوب المجاورة لهم يقول الجاحظ:

«إن أهل المدينة نزل فيهم ناس من الفرس فى قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسمون البطيخ: الخربز ويسمون السميط: الرذدق، ويسمون المصوص: المزور[٢] ويسمون الشطرنج: الأشترنج وغير ذلك من الأسماء»[٣].

ويقال إن صهيب بن سنان الرومى (ت ٣٨ هـ) صاحب رسول الله كان عربى الأصل ولكنه سبى صغيراً، وعاش بين الروم، ونشأ فيهم، فكان ينطق العربية بلكنة رومية، فيقول:

«إنك لهائن يريد إنك لحائن أى هالك»[٤].

ويفهم من كلام الجاحظ أنه يستخدم مصطلح لُكنة Accent، للدلالة على نطق غير العرب أو الأعاجم للغة العربية الفصحى، وخُاصة على المستوى الفنولوچى، وهى تتنوع بتنوع الإقليم Regional، فهناك لكنة رومية وأخرى حبشية، كما أن لها دلالة اجتماعية[٥]Social، وذلك فى مقابل «اللحن» الذى قد يقع فيه العربى وغير العربى، فقد عقد فى البيان والتبيين باباً عن «اللحانين البلغاء»[٦].

كما فرق بين اللكنة واللحن من ناحية وعيوب النطق Speech defects من ناحية أخرى، فاللثغة وغيرها من عيوب النطق الخلقية قد يصاب بها الإنسان، يستوى فى ذلك البلغاء وغير البلغاء، وقد تقع من كبار الناس

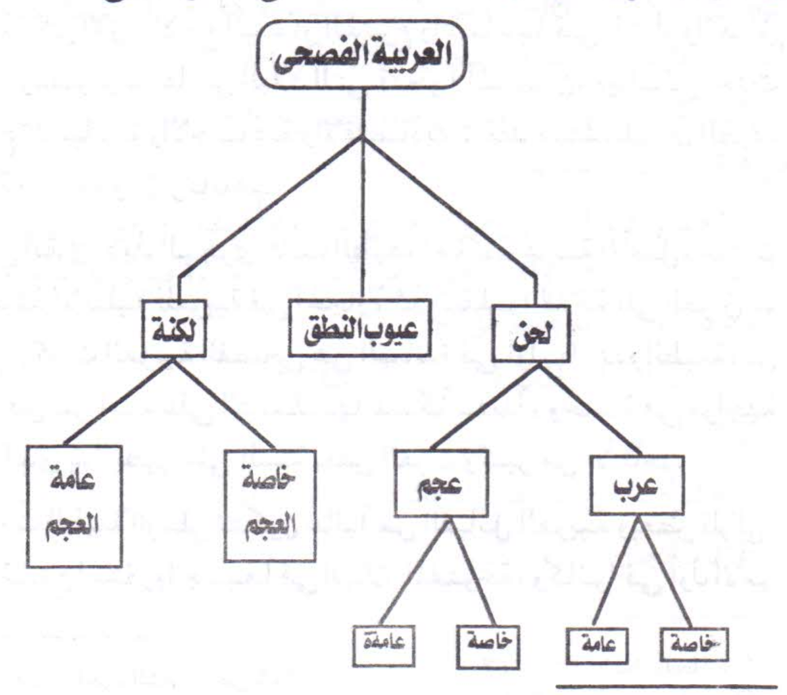
---

(١) ابن سلام الجمحى، طبقات فحول الشعراء، ص ١٢٧ - ١٢٨.
(٢) المصوص: لحم ينقع فى الخل ويطبخ.
(٣) البيان والتبيين: ١/ ١٩
(٤) المصدر السابق: ١/ ٧٢
(٥) المصدر السابق: ١/ ٧١. والحيوان: ٧/ ٢٣٣
(٦) البيان والتبيين: ٢/ ٢٢

والعلماء والشعراء والخطباء، وقد تؤثر فى كلام الخطباء والشعراء، وبعضهم قد يتغلب عليها، مثل واصل بن عطاء[1].

أما اللكنة فهى التى يختص بها الأعاجم دون غيرهم سواء من طبقة الخاصة كالعلماء والشعراء والرؤساء، أم من طبقة العامة منهم، ويعرف الجاحظ اللكنة بقول: «**يقال فى لسانه لكنة إذا أدخل بعض حروف العجم فى حروف العرب، وجذبت لسانه الحالة الأولى إلى المخرج الأول**»[2].

وهو تعريف جامع للكنة سواء فى العربية أو غير العربية. إذا ما عرفنا أن الجاحظ يستخدم مصطلح «الحرف» فى هذا النص بمعنى «الصوت»، كما يدل هذا التعريف على إدراك الجاحظ لفكرة «العادات اللغوية Speech habits». وأن اللغة ما هى إلا نظام معقد من العادات الكلامية ويمكن تصور العلاقة بين اللحن واللكنة وعيوب النطق عند الجاحظ، وصلتها بالعربية، والطبقات الاجتماعية على النحو التالى:



(١) المصدر السابق: ١/ ٣٤.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٣٩/ ٤٠.

ويقول الجاحظ إن سحيم عبد بنى الحسحاس (ت ٣٣ هـ)، وكان معاصراً للنبى، كان يرتضخ لكنه حبشية، ومع ذلك فقد وصف ابن سلام الجمحى (ت ٢٣١ هـ) شعره بأنه «حلو الشعر رقيق حواشى الكلام»[1].

غير أنه لم يكن يُحسن نطق بعض أصوات العربية، فقد أنشد عمر بن الخطاب قصيدته التى مطلعها:

عميرة ودّع إن تجهزت غازياً   كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

فقال له عمر: «لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك، فقال له ما سعرت يريد ما شعرت، جعل الشين المعجمة سينا غير معجمة»[2].

غير أن مثل هذه التأثيرات اللغوية سواء قبل الإسلام، أو فى صدر الإسلام، وسواء أكانت صادرة عن طبقة العبيد أو الشعراء أو غيرهم كانت من الضعف بحيث لم تؤثر فى العربية.

أما بعد الفتح فقد كان الأمر جد مختلف، إذ أخذت أعداد هؤلاء الأجانب فى الازدياد مع انتشار الفتوح واتساعها فى الشام والعراق وفارس ومصر وغيرها من البلاد التى فتحها المسلمون، وبالتالى أخذت المصالح السياسية والاجتماعية والاقتصادية تتعقد وتتشابك بين الطبقة العربية الحاكمة وبين رعاياهم.

ففى القرن الأول الهجرى كانت الطبقة الحاكمة عربية الأصل، عاشت فى البيئة الأصلية للعربية فى الحجاز، ثم انتقلت الخلافة إلى العراق ثم الشام، وكانت العربية الفصحى هى السائدة فى أواسط هذه الطبقة، بل لقد حرص بنو أمية على التمسك بها تمسكاً شديداً، وخاصة فى مواجهة اللحن الذى بدأ يظهر على ألسنة بعض العرب وكثير من الأعاجم.

وكانت الطبقة الوسطى تتكون غالباً من القبائل العربية وبعض الموالى، وبعد الفتح استقروا جميعاً فى البلاد المفتوحة، وكانوا فى أول الأمر

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ص ١٥٦
(٢) البيان والتبيين: ١/ ٧١ - ٧٢

يأنفون من الاختلاط بالسكان الأصليين، ولكنهم ما لبثوا مع بداية القرن الثانى أن اختلطوا بهم، وكانت هذه الطبقة الوسطى تتكلم العربية، أما أهل البلاد المفتوحة فكانوا يتكلمون لغاتهم الأصلية ويتطلعون إلى العربية باعتبارها لغة الحكم والدين والسيادة، فحاولوا تعلمها والتكلم بها، ومن ثم كان التأثير اللغوى لهذه الطبقة محدوداً خلال حكم بنى أمية، ومن هنا حكم الجاحظ على دولة بنى أمية من الناحية اللغوية بأنها كانت عربية إعرابية[1].

ولكن المصالح الاقتصادية والاجتماعية أخذت تتعقد وتتشابك بين الطبقة العربية الحاكمة وممثليها من حكام الأقاليم، ورعاياهم، من العمال والفلاحين وعامة الناس، ومن ثم أخذ هذا الحاجز اللغوى القائم على التعصب للعرب والعربية يسقط شيئاً فشيئاً، وبالتالى بدأت تظهر لغة عملية للتحدث اليومى، أو ما يمكن أن نطلق عليه العربية الهجين[2] Pidgin Arabic التى كان يستخدمها أفراد الجيش العربى الفاتح والمتعاونين معه من سكان البلاد المفتوحة.

ولعل قصة تاجر الدواب الخراسانى التى حكاها الجاحظ تبين لنا جانباً من هذا المستوى اللغوى.

إذ أحضر هذا التاجر بضاعته من الدواب لبيعها للحجاج بن يوسف الثقفى (ت ٩٥ هـ) وإلى العراق من قبل بنى أمية، فقال له الحجاج بعد أن فحص الدواب فوجدها هزيلة:

- «اتبع الدواب المعيبة من جند السلطان؟».

فقال التاجر:

- «شركننا فى هوازها وشريكاننا فى مداينها وكما تجئ تكون».

فقال الحجاج: «ما تقول ويلك!».

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ٣٦٦.

(٢) انظر مصطلح Pidgin.

1 - Hartmann & Stork, P. 177.

2 - Holmes, Janet, op. cit., PP. 346, P. 371.

فقال بعض من كان اعتاد سماع الخطأ وكلام الأعاجم بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك يقول:

- «شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها»[1]

والملاحظ على كلام التاجر أنه استخدم العربية فى أوضاع وتراكيب متأثرة بلغته الأصلية،فقال«شريكننا»بدلاً من«شركائى» أو «شركاؤنا». وكلاهما مركب إضافى مكون من شركاء + ضمير المتكلم «الياء» فى شركائى أو شركاء + نون الجمع فى «شركاؤنا».

ولكن التاجر فيما يبدو جاء بمفرد كلمة «شركاء» وهى «شريك» ثم أضاف إليها ضمير المتكلم «أنا» أى شريك + أنا، ثم لم يستطع نطق الهمزة، فأسقطها فأصبحت شريك + ن. ثم أضاف نوناً أخرى بدلاً من الهمزة، فنطق «شريكننا» وهناك إحتمال آخر، وهو أن التاجر الخراسانى ربما يكون أضاف للمفرد العربى «شريك» المقطع «آن» فى اللغة الفارسية وبذلك نشأ هذا التركيب الهجين: كلمة عربية ونهاية فارسية.

كما يبدو أيضاً أن التاجر قد استخدم الهاء للتعريف، ووضعها فى نهاية الكلمة، لأنه نطق «هوازها» بدلاً من «الأهواز» وكرر ذلك مرة أخرى، فنطق «مداينها» بدلاً من «المدائن» واستخدم الهاء للتعريف موجود فى بعض اللغات السامية، غير أنه يقع عادة فى أول الكلمة لا فى آخرها، أو لعله أراد أن يقول من بلادها. فتصبح الهاء مضافاً إليه.

أما جملة «وكما تجئ تكون»فهناك احتمالان، الأول أن كلمة «تكون» قد نطقها بالنون كما ذكر الجاحظ،وفى هذه الحالة يريد أن يقول إن الدواب تأتى من بلادها ونحن نبيعها هكذا. أما الاحتمال الثانى فهو أن الكلمة بالتاء لا بالنون، فتعود على الدواب، أى يريد أن يقول نحن نبيعها كما جاءت إلينا وفى هذه الحالة تكون الجملة مصاغة على طريقة اللغات

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٦١ ، ١٦٢

الهندية الأوروبية،من حيث وقوع الفعل المساعد auxiliary فى نهاية الجملة، أو كما يقولون بالإنجليزية (As it is) وهكذا نشأت هذه العربية الهجين Pidgin Arabic مع استقرار هذه العناصر البشرية، وخاصة فى المدن، مثل البصرة التى ولد وعاش فيها الجاحظ حياته، مما أتاح له أن يسمع ويرصد لنا الكثير من مظاهرها النطقية والتركيبية،يبدو أن هذا المستوى من اللغة العربية عاش فترة طويلة خلال الصراع اللغوى الذى خاضته العربية على ألسنة هؤلاء الأعاجم من الخاصة والعامة حتى تم التعريب.

فمن طبقة الشعراء نجد زياد الأعجمى، وكان يرتضح لكنه فارسية، كما يقول الجاحظ فكان يبدل العين همزة والطاء تاء، والسين شيناً فكان ينشد قوله:

فتى زاده السلطان فى الود رفعة إذا غير السلطان كل خليل.

فيقول: «فتى زاده الشلتان»[1].

أما أبو العطاء السندى،وهو شاعر آخر من الشعراء الأعاجم ممن عاشوا فى العصرين الأموى والعباسى، فقد كان جيد الشعر وإن كانت فيه لكنة، ويروى ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) أن بعض أصدقائه من العرب احتالوا على أبى العطاء حتى ينطق ثلاثة ألفاظ، هى: جراده - زج - شيطان.

فأرسلوا فى طلبه، ولم يلبث أن جاء قائلاً:

- «مرهبا مرهبا هياكم الله»

فقال له أحدهم:

- ألا تتعشى، فقال:

- «تأسيت».

ثم أخذ يستدرجه لكى ينطق بالكلمات الثلاث، فقال له:

- كيف بصرك باللغز يا أبا عطاه؟. فقال:

- «هشن».

فأخذ ينشد له أبياتاً فى اللغز تتضمن معانى الكلمات الثلاث، فنطق أبو العطاء الكلمات على النحو التالى:

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٧١

الجراده ← زراده
الزّج ← ززّ
الشيطان ← سيتان.

وقد دفعه إحساسه هذا بالعجز عن نطق العربية نطقاً صحيحاً أن يستوهب ممدوحاً له غلاماً عربياً ينشد شعره، فقال يشكو من لكنته:

أعوزتنى الرواة يا ابن سليم ... وابى أن يقيم شعرى لسانى
وغلا بالذى أجمجم صدرى ... وجفانى بعجمتى سلطانى
فضربت الأمور ظهرا لبطن ... كيف احتال حيلة للسانى
وتمنيت أنى كنت بالشعر ... فصيحا فبان بعض بنانى
فاكفنى ما يضيق عنه رواتى ... بفصيح من صالحى الغلمان
يفهم الناس ما أقول من الشعر ... فإن البيان قد اعيانى[1]

بل لقد زحفت هذه اللكنات إلى بعض الأمراء الذين تربوا فى أحضان أمهاتهم الأجنبيات مثل عبيد الله بن زياد، والى العراق الذى قال يوما لأحد جلسائه:

- أهرورى اليوم! يقصد أحروري ينسبة إلى فرقة الحرورية، لأن عبيد الله نشأ فى الأساورة عند شيرويه الأسوارى زوج أمه مرجانة[2].

ومنهم أبو مسلم الخرسانى (ت ١٣٧هـ) صاحب الدعوة لبنى العباس وكان - كما يقول الجاحظ - حسن الألفاظ جيد المعانى، وكان إذا أراد أن يقول: قلت لك، قال: «كلت لك»، بتحويل القاف كاف[3].

ومنهم أحد العمال، وكانت لكنته نبطية وكان ينطق الحاء «هاء» ويروى أنه أملى على كاتب له، فقال أكتب:

- «الهاصل ألف كرّ».

---

(١) الشعر والشعراء: ٢/ ٧٦٦ - ٧٦٧.
(٢) البيان والتبيين: ١/ ٧٢.
(٣) المصدر السابق: ١/ ٧٢ - ٧٣

فكتبها الكاتب بالهاء كما سمعها، فأعاد عليه الكلام، فلما فطن إلى اجتماعها على الجهل بالنطق والكتابة، قال له:

- **«أنت لا تهسن أن تكتب، وانا لا أهسن أن أملى فاكتب، الجاصل ألف كر، فكتبها بالجيم المعجمة بدلا من الهاء»**[1].

ومن النحاة زياد النبطى، وكان شديد اللكنة، دعا غلامه ثلاثا، فلما أجابه قال له:

- **«فمن لدن دأوتك إلى أن قلت لبّى، ما كنت تصنأ».**

يريد من لدن دعوتك إلى أن أجبتنى ما كنت تصنع.

ويقال إن عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) أهمل تأديب ابنه الوليد، فجرى اللحن على لسانه، ومما يروى من لحنه أن نطق يوماً كلمة «لص» بضم اللام فاستنكر ذلك منه أحد الأعراب، كما قال يوما لأبيه حين قتل أحد الخوارج، وكان يدعى أبو فديك:

- **«لو يا أمير المؤمنين قتل أبى فديك».**

وقال يوماً:

- **«يا غلام رد الفارسان الصادان عن الميدان».**

قال الجاحظ كان الوليد ومحمد ابنا عبد الملك لحانين[2].

هذا عن لكنة البلغاء والخطباء والشعراء والرؤساء، كما يقول الجاحظ، فأما عن لكنة العوام، ومن لم يكن له حظ من النطق، فمنهم «فيل» مولى زياد، وكان شديد اللكنة-فأهدى بعضهم إلى زياد حمار وحش، فقال فيل:

- **«أصلح الله الأمير قد أهدو لنا همار وهش».** فقال زياد:

- ما تقول ويلك! فقال فيل:

- **«أهدو لنا إيرا»** يريد عيرا، فقال زياد: الأول أهون[3].

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٧٢.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٢٠٤ - ٢٠٥.
(٣) المصدر السابق: ١/ ٧٣، وأنظر أيضاً الحيوان: ٧/ ٢٣٣.

ومن ذلك أيضاً أن أم ولد لجرير بن الخطفى قالت يوما لبعض ولدها :

- **«وقع الجُردان فى عجان أمكم»!.**

فأبلت الذال من الجراذن دالا ، وضمت الجيم، وجعلت العجين عجانا[(١)]

وقال بعض الشعراء فى أم ولد له ينكر لكنتها:

أول ما سمع منها فى السحر   تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

والسوْة السوآء فى ذكر القمر

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول «القمر» قالت «الكمر»[(٢)].

وقيل لنبطى: لم ابتعت هذه الأتان، فقال:

- **«إركبها وتلَد لى».** فتح اللام فى تلد، وكان حقها الكسر أى تلِد[(٣)].

ونطقت عجوز سندية:

الجمل ⟵ الذمل. قلبت الجيم ذالا.

الشر ⟵ السرّ. قلبت الشين سينا[(٤)].

وكان للجاحظ غلام يقال له «نفيس» فقال له يوما :

- بعثتك إلى السوق فى حوائج فاشتريت ما لم آمرك به وتركت كل ما أمرتك به، فقال الغلام:

- **«يا مولاى أنا ناقة وليس فى ركبتى دماغ»!.**

وقال نفيس لأحد زملائه:

- **«الناس - ويلك - أنت حياء كلهم أقل!».**

يريد: أنت أقل الناس كلهم حياء[(٥)]

وقال له الجاحظ يوما :

---

(١) المصدر السابق ك ١/ ٧٣.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٧٣ - ٧٤.
(٣) المصدر السابق: ١/ ٧٤.
(٤) المصدر السابق: الصفحة نفسها، وأنظر أيضاً الحيوان: ٣/ ٢٩٢.
(٥) المصدر السابق: ٤/ ٢٦

- «هذا الصبى فى أى شئ أسلموه، فقال:
- «فى أصحاب سند نعال»
يريد أصحاب النعال السندية[1].

وهكذا نجد أن هذه اللكنات الأعجمية كانت تمثل مستوى لغويا واضحاً ضمن مستويات العربية فى عصر الجاحظ، وقبل عصره أيضاً، يستوى فى ذلك طبقة المثقفين أو الخاصة أو طبقة العوام من النساء أو الرجال.

لعلنا من النماذج اللغوية التى قدمها لنا الجاحظ، وأشرنا إليها من قبل - نلاحظ أن النقل Transfer، أو التداخل Interference على المستوى الفنولوچى بين العربية وغيرها من اللغات الأخرى التى عاشت بجوارها على ألسنة هؤلاء الأعاجم كانت أوضح وأظهر من اللحن على المستويين الصرفى والنحوى، وهو ما انتبه إليه الجاحظ حينما أشار إلى اللكنة على ألسنة الشعراء والكتاب والرؤساء، يقول:

«وقد يتكلم المغلاق الذى نشأ فى سواد الكوفة بالعربية المعروفة، ويكون لفظه متخيراً فاخراً، ومعناه شريفاً كريماً، ويعلم من السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطى، وكذلك إذا تكلم الخراسانى على هذه الصفة، فانك تعلم مع إعرابه وتخير ألفاظه فى مخرج كلامه أنه خراسانى، وكذلك إن كان من كتّاب الأهواز»[2].

وأما عن أثر النشأة اللغوية الأولى، وتمكن العادات اللغوية الخاصة باللغة وأثرها فى اللكنة، فيقول:

«ألا ترى أن السندى إذا جلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا، ولو أقام فى عليا تميم وفى سفلى قيس وبين عجز هوازن خمسين عاماً، وكذلك النبطى القحّ خلاف المغلاق الذى نشأ فى بلاد النبط: لأن النبطى يجعل الزاى سيناً فإذا أراد أن يقول: زورق قال سورق ويجعل العين همزة فإذا أراد أن يقول مشمعل قال مشمئل»[3].

---

(1) المصدر السابق: ٤/ ٢٧.
(2) البيان والتبيين: ١/ ٦٩.
(3) المصدر السابق: ١/ ٧٠ - ٧١.

غير أن الترتيب والمران، كما يرى الجاحظ، من الأسباب التى تمكن الأعجمى أو غيره ممن يتعلم لغة غير لغته الأم من التغلب على هذه الصعوبة فى نطق أصوات العربية أو غيرها من اللغات التى يسعى المرء لتعلمها، يقول:

«ومع هذا إنا نجد الحاكية[1] من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً. كذلك تكون حكايته للخرسانى والأهوازى والزنجى والسندى والأجناس غير ذلك»[2].

وبشكل عام فإن القانون الذى يحكم العلاقة بين اللغة الأم واللغة الجديدة كما صاغه الجاحظ هو:

«واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها»[3].

ومع ذلك فهناك استثناءات نادرة من هذا القانون مثل حالة موسى بن سيّار الأسواري وكان من القصاص، يقول الجاحظ:

«وكان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتعقد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس، فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدرى بأى لسان هو أبين»[4].

على هذه الصورة الدقيقة استطاع الجاحظ أن يبين لنا الملامح اللغوية المميزة لطبقة الأعاجم، وهى طبقة عريضة ضمت فى طياتها عدة طبقات أخرى تنتمى كل منها إلى إقليم معين،واستقراء المادة اللغوية الاجتماعية التى قدمها الجاحظ وعرضنا له من قبل يؤكد ذلك حيث نجد أن توزيع

---

(١) الذى يستطيع تقليد أى نوع من الأصوات الإنسانية أو الحيوانية أو حركات الجسم والوجه: أنظر المصدر السابق: ١/ ٧٠.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٦٩.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٣٦٨.

(٤) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

اللكنات بما لها من صلة باللغة الأم والتغيرات اللغوية على ألسنة الناطقين بالعربية من هؤلاء الأعاجم على النحو التالى:

أولاً : المستوى الفنولوچى:

١ - اللكنة الفارسية
- ع ⇦ ح
- ط ⇦ ت
- ش ⇦ س
- ج ⇦ ز
- ح ⇦ هـ
- ق ⇦ ك

٢ - اللكنة الرومية
- ح ⇦ هـ
- ع ⇦ ء
- ش ⇦ س

٣ - اللكنة النبطية
- ح ⇦ هـ
- ع ⇦ ء
- ز ⇦ س

٤ - اللكنة الحبشية
- ش ⇦ س
- تاالخطاب ⇦ ك

٥ - اللكنة السندية
- ع ⇦ هـ
- ذ ⇦ د

وبناء على ذلك يمكن أن نرصد التحولات الفنولوچية المشتركة بين هذه اللكنات فى نطق العربية على النحو التالى:

١ - الفارسية والرومية والنبطية : ح ⟵ هـ

٢ - الفارسية والرومية والحبشية : ش ⟵ س

٣ - الرومية والنبطية : ع ⟵ هـ

فى حين انفردت بعض اللكنات بملامح فنولوچية خاصة، مثل:

١ - الفارسية : ج ⟵ ز
ق ⟵ ك

٢ - السندية : ع ⟵ هـ
ذ ⟵ د

٣ - النبطية : ز ⟵ س

٤ - الحبشية : تاء الخطاب ⟵ ك

ثانياً: المستويان الصرفى والنحوى:

لعل الجملة التى نطق بها تاجر الدواب الخراسانى، وأشرنا إليها من قبل، تقدم لنا بعض الملامح الصرفية والنحوية لهذه اللكنات بما له من صلة بالبيئة اللغوية الأصلية للمتكلم،بالإضافة إلى بعض تراكيب أشار إليها الجاحظ فى ثنايا حديثه عن التغيرات الصوتية التى استأثرت باهتمامه.

فعلى المستوى الصرفى نجد صيغة كلمة (شركننا) كما نطق بها تاجر الدواب الخراسانى،وهو يقصد (شركائى)،ولعل السبب فى استخدامه للمفرد فى النسبة على هذا النحو أنه لم يكن يعرف صيغة جمع التكسير (شركاء).

ومثل ذلك نطق المرأة لكلمة «عجين» على وزن فعيل، فكانت «عجان» على وزن فعال، فحولتها إلى أقرب الصيغ فى الفارسية وأشبهها.

أما على المستوى النحوى فإن اختفاء علامات الإعراب من الجملة التى نطق بها تاجر الدواب تؤيده جمل أخرى أشار إليها الجاحظ، مثل قول غلامه نفيس.

١ - «الناس - ويلك - أنت حياء كلهم أقل».

٢ - «أصحاب سند تعال».

٣ - «أنا ناقة وليس فى ركبتى دماغ»، لعله يقصد ليس فوق رقبتي دماغ فيه عقل. أو أنا مثل الناقة ليس في رأسي عقل ولا أفهم.

أو وجود حركات الإعراب مع الخطأ فيها،مثل قول الوليد بن عبد الملك:

١ - «لو يا أمير المؤمنين قتل أبى فديك».

٢ - «يا غلام رد الفارسان الصادان عن الميدان».

أما من ناحية العلاقات النحوية،وطرق تركيب الجملة العربية الفصحى، فمن الواضح أن غلام الجاحظ «نفيس» لا يكاد يدرك منها شيئاً، إنما هو يتكلم بميراث لغوى قديم ينقله إلى اللغة الجديدة التى يحاول الكلام بها، ناهيك عن جملة مثل الجملة الثالثة، وهى جملة غير مفهومة، ويبدو أن الجاحظ نفسه لم يفهمها، لأنه لم يفسر ماذا يريد الغلام أن يقول، كما فعل مع الجملة الثانية.

على هذه الصورة استطاع الجاحظ أن يصف هذه العربية الهجين Pidgin Arabic التى كانت تمثل مستوى لغوياً واضحاً من المستويات اللغوية الاجتماعية فى عصره، من حيث دلالتها على طبقة اجتماعية معينة من طبقات المجتمع فى عصره وقبل عصره، كما استطاع أن يصف هذه اللهجة الاجتماعية فى إطار تصور عام لتنوعات اللغة العربية وتعددت اللهجات الاجتماعية والإقليمية للناطقين بها ،ولولا ماقدمه الجاحظ لنا من وصف لهذه اللهجات لبقى هذا الجانب من تطور العربية غامضاً كل الغموض.

معجم بأهم الألفاظ ذات الدلالات الاجتماعية
التى استخدامها الجاحظ أو شرحها

(أ)

الإسطبل : *(البخلاء، ٥٣)*

وهو المتعامى، الذى إن شاء أراك أنه منخسف العينين، وإن شاء أراك أن بهما ماء، وإن شاء أراك أنه لا يبصر.

أصحاب الأكتاف : *(الحيوان، ٥/٣٠٣ - ٦/ ٢٠٥)*

طائفة من أهل الفراسة، يصطنعون النظر فى الأكتاف، كما يصطنع غيرهم النظر فى الكف وأسرار خطوط. ويبدو أن هذا الفن ليس من المعارف العربية، والمقصود بالأكتاف هنا أكتاف الضأن. *(ملحق البخلاء ط. الحاجرى)*

أصحاب الستارات : *(رسائل الجاحظ، رسالة القيان، ٢/ ١٤٣)*

الجوارى يغنين من خلف الستار.

(ب)

البلالية : *(البخلاء ٥٠)*

طائفة من المقاتلين بالبصرة، ظهرت مع بداية ثورة الزنج.

(ملحق البخلاء ط. الحاجرى)

(ت)

التكش : *(الحيوان ١/ ١٦٨)*

لفظ من لغة الشطار، وتدل على الغلام الذى لم يؤدبه فتى ولم يخرجه قال الجاحظ: «وإن الشطار ليخلوا أحدهم بالغلام الغرير فيقول له: لا يكون الغلام فتى أبداً حتى يصادق فتى وإلا فهو تكش».

(ج)

الجردبيل : *(البخلاء ٦٨)*

لقب من الألقاب التى تطلق على سئ المؤاكلة، وهى فارسية الأصل من «كردبان» أى حافظ الرغيف، ثم أطلق الجردبان والجردبيل على الذى يضع يده على الطعام لئلا يتناوله غيره. *(ملحق البخلاء، ط. الحاجرى)*

(ح)

الحشرية : *(البخلاء ٢٠٥)*

إصطلاح خاص بالميراث الذى لا وارث له، أو هى مال من يموت وليس له

وارث، وعربيتها «كلالة». (ملحق البخلاء، ط. الحاجرى)

(خ)

الخليدية : (البخلاء ٥٠)

جماعة من المكدين والساسانيين، وربما كانوا ينسبون إلى محلة الخلد فى بغداد. (ملحق البخلاء، ط. الحاجرى)

الخناقون : (الحيوان ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٦)

جماعة من الروافض يقتلون بالخنق، يتخذون الكلاب للحراسة.

الخيش : (البخلاء ١٠٢، رسالة صناعات القواد ١/ ٣٩٣)

مروحة تستعمل فى بلاد العراق تشبه شراع السفينة، تعلق فى سقف البيت، ويشد بها حبل يدار بها، وتبل بالماء، وترش بماء الورد، فإذا أراد أحد أن يقيل أو ينام بالليل جذبها من الحبل، فتذهب بطول البيت وتجئ، فيهب عليه منها نسيم طيب الريح بارد. (ملحق البخلاء، ط. الحاجرى)

(د)

الدوزياجة : (البخلاء ١١٩)

طريقة فى صيد السمك فى البصرة تستغل حركة المد والجزر، حيث يضع الصيادون شباك مشدودة بالقصب، أو جريد النخل على هيئة قوس طرفه الأسفل متصل باليابسة، فيدخل السمك أثناء المد، ولا يستطيع الخروج إلى الجزر، وهى مأخوذة من كلمة فارسية معناها البحيرة. (ملحق البخلاء، ط. الحاجرى)

الدفاع : (البخلاء ٧٧)

الذى إذا وقع فى القصعة عظم، فصار مما يليه، نحاة بلقمة من الخبز حتى تصير مكانة قطعة من اللحم، وهو فى ذلك كأنه يطلب بلقمته تشريب المرق دون إراقة اللحم.

الدلاك : (البخلاء ٧٦)

الذى يجيد تنقيته يديه بالأشنان ويجيد دلكها بالمنديل.

الديماس : (البخلاء ٥٠)

إسم سجن الحجاج بن يوسف الثقفى فى واسط العراق.

الراشن : (البخلاء ٧٨)

طفيلى الطعام.

الزفانون : (البيان والتبيين ٢/ ٢٩٤)

الراقصون من الرجال أو النساء.

الزكورى : (البخلاء ٥٣)

خبز الصدقة الذى يعطى للسجين أو السائل.

الزّمزمة : (البيان والتبيين ١/ ١٣)

صوت لا يستعمل فيه المتكلم اللسان ولا الشفة، ويتكلم به المجوس عند تناول الطعام أو حين الاغتسال.

الزّواقيل : (البخلاء ٤٩)

اللصوص، يبدو أن هذا الاسم كان يطلق على هذه الطائفة فى الشام.

(ملحق البخلاء ط. الحاجرى)

(ض)

الضّيفن : (البخلاء ٧٨)

ضيف الضيف. أي الضيف يصطحب معه ضيفاً آخر.

(ط)

الطّفيلى : (البخلاء ٧٨)

نسبة إلى رجل من غطفان يسمى طفيل، كان أبعد الناس فى طلب الولائم والأعراس دون دعوة، فقيل له لذلك وصار ذلك نبذاً له ولقبا لا يعرف به غيره، ثم صار اسماً لكل من سلك مسلكه.

(ع)

العوّاء : (البخلاء ٥٣)

الذى يسأل بين المغرب والعشاء، وربما رفع صوته وطرب إذا كان له صوت حسن وحلق شجى.

(ف)

الفلّور : (البخلاء ٥٢)

الذى يحتال لخصيته حتى يريك أنه آدر، وربما أراك أن بها سرطاناً أو خرجاً، وربما صنع ذلك بدبره.

(ق)

القرسىّ : (البخلاء ٥٢)

الذى يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً، ويبيت على ذلك ليلة، فإذا تورم وأختنق الدم مسحه بشئ من صابون ودم الأخوين وهو نوع من العقاقير، ثم يقطر عليه شيئاً من السمن، وأطبق عليه فرقة وكشف العصبة فلا يشك من يراه بأن به أكله أو بليه بسبب الأكلة وهو مرض تآكل خلايا الذراع أو الساق أو غيرها من أعضاء الجسم.

القطّاع : (البخلاء ٧٧)

الذى يعض على اللقمة، فيقطع نصفها ثم يغمس النصف الآخر فى الصباغ.

القطرية : (البخلاء ٥٠)

لصوص قطر، وهو موضع فى البحرين، ومن المحتمل أنهم كانوا من القراصنة.

القيقاينة : *(البخلاء ٤٩)*
لصوص قيقان وهى من بلاد السند.

(ک)

الكاغان : *(البخلاء ٥٢)*
الغلام المكدّى إذا كان عليه مسحة من جمال وعمل العملين جميعاً.
الكاغانى : *(البخلاء ٥٢)*
الذى يتظاهر بالجنون أو الصرع ويتفالج فالج الرعدة والارتعاش.
الكتيفية : *(البخلاء ٥٠)*
فرقة أو جماعة من جماعات المكدين. *(ملحق البخلاء، ط. الحاجرى)*

(ل)

اللطّاع : *(البخلاء ص ٧٧)*
وهو الذى يلطع بإصبعه، ثم يعيدها فى مرق القوم أو لبنهم أو سويقهم وما أشبه ذلك.
اللكّام : *(البخلاء ٧٦)*
الذى فى فمه اللقمة ثم يلكمها بأخرى قبل مضغها أو ابتلاعها.
اللموظ : *(البخلاء ٧٨)*
طفيلى الشراب.

(م)

المحولّ : *(البخلاء ٧٨)*
الذى إذا رأى كثرة النوى بين يديه احتال له حتى يخلطه بنوى صاحبه.
المحلقم : *(البخلاء ٧٧)*
الذى يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه.
المخضّر: *(البخلاء ٧٧)*
الذى يدلك يده بالأشنان من الغمر والودك، حتى إذا اخضر واسود من الدرن دلك به شفته.
المدّاد : *(البخلاء ٧٧)*
١ - الذى ربما عض على القصبة التى لم تتضج وهو يشدها بفمه ويده توترها له، فربما قطعها بنترة فيكون لها انتضاج على ثوب من يأكل معه.
٢ - الذى إذا أكل مع أصحابه الرطب أو التمر أو الهريسة، فأتى على ما بين يديه مدّ ما بين أيديهم إليه.
المرسال : *(البخلاء ٧٦)*
رجلان أحدهما الذى وضع فى فمه لقمة هريسة أو ثريدة أو غيرها أرسلها فى جوفه إرسالاً.

والثانى هو الذى إذا مشى فى أشب من فسيل أو شجر،قبض على رأس السعفة أو الغصن لينحيها من وجهة، ثم يرسلها فتصك وجه من يليه لا يحفل بذلك.

المزملة : *(البخلاء ١١٣)*

آنية يبرد فيها الماء تستعمل بأرض العراق فى وسطها ثقب مركب فيه قصبه من فضة أو رصاص يشرب منها، وسميت بذلك، لأنها كانت تلف بجلد أو ثوب مزين حسن المنظر أو خيش. *(ملحق البخلاء، ط. الحاجرى)*

المزيدى : *(البخلاء ٥٣)*

الذى يدور ومعه دريهمات يطلب زيادتها، وربما احتمل صبياً على أنه لقيط وربما طلب ثمن الكفن.

المستعرض : *(البخلاء ٥٣)*

الذى يعارضك وهو ذو هيئة وثياب صالحة، وكأنه قد مات من الحياء ويخاف أن يراه أحد، ثم يعترضك اعتراضاً ويسألك خفياً.

المسجديون : *(البيان والتبيين ١/ ٢٤٢، ٣/ ٥٨)*

قوم اتخذوا من المسجد منتدى لهم وطال غشيانهم له، فعرفوا به ونسبوا إليه ولم يكونوا من صنف واحد، بل كانوا خلياً من الناس، منهم الشعراء والرواة ومصطنعوا الحكمة وكانوا لا يغرقون فى فن ولا يتقيدون بنوع من العلم، وإنما يصيبون من هذا وذاك،وكان بعض الشعراء يوصف بأنه«مسجدى»وهذا يدل على أنهم كان لهم طابع خاص فى قول الشعر. *(ملحق البخلاء، ط. الحاجرى)*

المسوّغ : *(البخلاء ٧٧)*

الذى يعظم اللّقم، فلا يزال قد غصّ ولا يزال يسيغه بالماء.

المشعب : *(البخلاء ٥٢)*

الذى يحتال للصبى حين يولدن بأن يعميه أو يجعله أصم أو أعضد ليسأل الناس به.

المصّاص : *(البخلاء ٧٦)*

الذى يمص جوف قصبة العظم بعد أن استخراج مخه واستأثر به دون أصحابه.

المطبق : *(البخلاء ٥٠)*

إسم لسجن العباسيين فى بغداد.

المعينون : *(البخلاء ١٣٧)*

هو الذين اتخذوا «العينة» حرفة لهم، والعينة تطلق على نوع من المعاملات التجارية والمالية. *(ملحق البخلاء، ط. الحاجرى)*

المغربل : *(البخلاء ٧٧)*

الذى يأخذ وعاء الملح فيديره إدارة الغربال، ليجمع أبازيره يستأثر به دون أصحابه لا يبالى أن يدع ملحهم بلا أبزار

المقدّس : *(البخلاء ٥٣)*

الذى يقف على الميت يسأل فى كفنه أو يقف فى طريق مكة على حمار أو بعير ميت ويدعى أنه له وأنه أحصر، ويتكلم اللغات الخراسانية واليمانية والإفريقية، فمتى شاء كان أفريقيا، أو من أهل فرغانة، أو من مخاليف اليمن.

المقوّر : *(البخلاء ٧٧)*

الذى يقور الجراذق (رغيف الخبز)، ويستأثر بالأواسط، ويدع لأصحابه الأطراف والحروف.

المكدّى : *(البخلاء ٥٣)*

صاحب الكداء الذى ينتمى إلى هذه الطبقة من الناس.

الملغّم : *(البخلاء ٧٧)*

الذى يأخذ حروف الرغيف، أو يغمز ظهر التمرة بإبهامه، ليحملا له من الزّبد والسمن واللبن، ومن البيض النيمبرشت أكثر.

(ن)

النّشاف : *(البخلاء ٧٦)*

الذى يأخذ الجرذقة (حرف رغيف الخبز)، فيفتحه ثم يغمسه فى رأس القدر، ويشربَه الدسم، يستأثر به دون أصحابه.

النشّال : *(البخلاء)*

الذى يتناول من القدر ويأكل قبل النضّج، وقبل أن تنزل القدر، ويجتمع الناس على الطعام.

النفّاض : *(البخلاء ٧٦)*

الذى إذا أفرغ من غسل يده فى الطست نفض يديه من الماء، فنضج على أصحابه.

النهّاش : *(البخلاء ٧٧)*

الذى ينهش اللحم كما ينهش السبع.

(و)

الواغل : *(البخلاء ٧٨)*

طفيلى الشراب.

الوكيرة : *(البخلاء ٢١٥)*

وهو طعام البناء حيث كان الرجل يطعم من يبنى له، وإذا فرغ من البناء يتبرك بإطعام أصحابه ودعائهم له.

المصادر والمراجع

١ - المصادر والمراجع العربية :

أحمد كمال زكى: الحياة الأدبيه فى البصرة. القاهرة. دار المعارف ١٩٧١م

بلات، وشارل: الجاحظ فى البصرة وبغداد وسمراء. ترجمة إبراهيم الكيلانى. دمشق، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦١م.

الثعالبى، أبو منصور عبد الملك بن محمد: يتيمة الدهر تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد. بيروت، دار الفكر. الطبعة الثانية، ١٩٧٣م. فى أربعة أجزاء.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البخلاء، تحقيق وتعليق طه الحاجرى. القاهرة، دار المعارف، دخائر العرب، ١٩٧١م.

- البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون القاهرة. مكتبة الخانجى، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥م. أربعة أجزاء فى مجلدين.

- الحيوان. تحقيق وشرح عبد السلام هارون

بيروت، دار إحياء التراث العربى. الطبعة الثالثة سبعة أجزاء

- رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون

القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٦٥م جزآن

الجمحى، محمد بن سلام: طبقات فحول الشعراء، تحقيق وشرح محمود محمد شاكر القاهرة، دار المعارف، دخائر العرب. ١٩٥٢م

حلمى خليل: المولد فى العربية.بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: المقدمة بيروت، دار إحياء التراث العربى، بدون تاريخ.

الزبيدى، أبو بكر محمد بن الحسن: لحن العوام، تحقيق رمضان عبد التواب. القاهرة، مكتبة دار العروبة، الطبعة الأولى. ١٩٦٤م

طه الحاجرى: الجاحظ حياته وآثاره القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣م.

عبد السلام المسدى: التفكير اللسانى فى الحضارة العربية. تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م

فاطمة محجوب: دراسات فى علم اللغه القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٦م.

فك، يوهان: العربيه. دراسه فى اللغه واللهجات والأساليب ترجمة وتعليق

رمضان عبد التواب القاهره مكتبه الخانجى. ١٩٨م

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر القاهرة دار المعارف، الجزء الأول سنة ١٩٦٦م. والجزء الثانى سنه ١٩٦٧م

محمود السعران: اللغة والمجتمع، رأى ومنهج. الإسكندرية، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٦٣م

ابن منظور، جمال الدين محمد مكرم الأنصارى: لسان العرب. القاهر. الدار المصرية للتأليف والترجمة طبعة مصورة عن طبعة بولاق، بدون تاريخ.

ابن نباته، جمال الدين محمد: شرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٤م.

ياقوت الحموى: معجم الأدباء. القاهرة، مطبعة هندية، ١٩٣٠م. الجزء السادس.

٢- المراجع الأجنبية:

Crystal, David (1974) Linguistics, Pelican Books

Ducrot and Todorov (1981) Encyclopedic Dictionary of the Science of Language, Translated by Catherine Parter Blackwell, London.,

Hartmann and Stork (1973) Dictionary of Language Linguistics Applid Science Publishers, London.

Hudson R.A. (1980) Sociolinguistics, Cambridge University Press U.K.

IVIC, Milka (1970) Trends in Linguistics. Translated by Muril Heppell.

Mauton, Paris (2).ed.

O'Connor, J.D. (1974) Phonetics, Penguin Books

Prid and Holmes (ED) (1976) Sociolinguistics, Selected Readings. Penguin Education.

Robins R.H. (1967) A Short History of Linguistics, Longman London.

Trudgil, Peter (1985) Sociolinguistics. An Introduction and Society. Penguin Books.

Wardhaugh, Ronald (1988) An Introduction to Sociolinguistics, Blackwell, Oxford.

الفصل الخامس

عربية الأندلس

دراسة فى البنية اللغوية والاجتماعية لأهل الأندلس

فرغ اللغويون المحدثون فى الشرق والغرب على السواء من تقرير أمر الصلة بين اللغة والمجتمع وقرر هؤلاء فيما قرروا صدد هذه العلاقة أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الفكر والنفس وإنما إحدى وظائف اللغة أنها حلقة فى سلسلة النشاط الإنسانى الاجتماعى، ففى أحضان المجتمع تكونت اللغة، وتوجد اللغة عندما يشعر الناس بالحاجة إلى التوصل والتفاهم، فاللغة أكثر وسائل الاتصال مرونة وقدرة من الإشارة وغيرها من وسائل الاتصال الإنسانى الأخرى.

والمجتمع الإنسانى عبارة عن نسق مكون من الدين والحضارة والعادات والتقاليد والنظم السياسية والاجتماعية الأخرى، واللغة هى الوسيلة لتيسير التبادل المادى والفكرى فى المجتمع، ولأن المجتمع من أخص صفاته أنه لا يثبت على حال، فكذلك اللغة التى تسايره لا تثبت على حال هى الأخرى، بل تتغير وقد تختلف باختلاف النظم الاجتماعية، ولا شك أن الدين من أقوى هذه العوامل وأعمقها أثراً فى حياة اللغة.

وتشبه الحضارة اللغة فى أن كلاً منهما نادراً ما تنغلق على نفسها، فالضرورات التى قد تلجئ حضارة ما للتأثر بحضارة أخرى هى بعينها التى تدفع لغة للتأثر بأخرى مجاورة لها أو دخيلة عليها، والحضارات تتصارع واللغات أيضاً تتصارع وقد يحدث هذا الصراع عن طريق اتصال مباشر بين اللغتين وأحياناً عن طريق غير مباشر، وتختلف طبيعة الصراع الذى ينشأ بين لغتين فأحياناً يكون سليماً يقوم على تبادل المنافع الحضارية كالدين والعلم والفن، وأحياناً يكون عنيفاً بغرض الفتح

... وأجنبية تنطق ... غير أهل البلاد، أو يتجاور شعبان كل منهما يتكلم لغة تختلف عن الأخرى، وغير ذلك، وقد يحدث الانتقال عن طريق الفتح أو الغزو أو الاستعمار أو غير ذلك فتشتبك اللغات فى صراع ينتهى إما بأن تنتصر إحداهما على الآخرى فتصبح لغة السكان أصيلهم ودخيلهم أو تعيشاً معاً جنباً إلى جنب، وهنا تدخل عوامل كثيرة لحسم هذا الصراع مثل الحضارة الراقية فى مقابل الحضارة المنحطة، كثرة العدد ضد قلة العدد، انتماء اللغتين لعائلة واحدة أو أن كلاً منهما من عائلة لغوية مختلفة، وغنى عن البيان أن أى أنتصار للغة على أخرى لا يحدث إلا بعد أمد طويل قد يبلغ أحياناً بضعة قرون.

وقد تعرضت اللغة العربية لكل أنواع هذه الصراعات انتصرت فى الكثير منها وهزمت فى القليل، وكانت الأندلس إحدى ساحات هذا الصراع بما احتوت عليه من لغات وأجناس.

وهذا البحث هو محاولة لتتبع هذا الصراع بين العربية واللغات الأخرى فى المجتمع الأندلسى بعد الفتح الإسلامى وفى إطار البيئة الاجتماعية واللغوية لهذا المجتمع، وما طرأ على العربية من تغير لغوى من آثار هذا الصراع.

ولكى يتحقق ذلك قسمت هذا البحث إلى قسمين أساسين:

الأول: درست فيه اللغة والمجتمع فى الأندلس وقسمته إلى موضوعات ثلاثة هى:

١ - اللغة العربية والمجتمع فى الأندلس قبل الفتح الإسلامى.

٢ - اللغة والمجتمع فى الأندلس بعد الفتح الإسلامى.

٣ - تعريب الأندلس.

أما القسم الثانى فقد تناولت فيه أهم الملامح التى طرأت على العربية خلال ثمانية قرون من الزمان عاشتها فى الأندلس، وقد قسمته إلى أربعة أقسام تناولت فى القسم الأول منها التغيرات الصوتية وفى الثانى التغيرات الصرفية وفى الثالث التغيرات النحوية وأخيراً التغيرات الدلالية

أولاً: اللغة العربية والمجتمع فى الأندلس

١ - اللغة والمجتمع فى الأندلس قبل الفتح الإسلامى.

إيبريا كما سماها الأغريق، أو إسبانيا كما أطلق عليها الرومان، أو فاندالوسيا كما دعاها القوط، أو الأندلس كما أجمع مؤرخو العرب على تسميتها، هى شبه جزيرة تقع فى الجنوب الغربى من القارة الأوروبية، وتتصل بها عن طريق جبال شاهقة وعرة، ذات ممرات ملتوية ضيقة سماها العرب، «الأبواب».

وفى وسط شبة الجزيرة هضبة كبرى تنحدر نحو الشرق مطلة على البحر المتوسط وتنحدر هذه الهضبة نحو الغرب مطلة على المحيط الأطلسى، كما تتصل من الجنوب بالبحر المتوسط عن طريق مضيق أطلق عليه بعد الفتح الإسلامى حتى اليوم اسم: «مضيق جبل طارق»، وتمتد وسط هذه الهضبة سلسلة من الجبال تصل ما بين الشرق والغرب بها أنهار كثيرة بعضها يصب فى المحيط وبعضها يصب فى البحر المتوسط وعلى ضفاف بعض هذه الأنهار ومصباتها تقع المدن الكبرى مثل: قرطبة، وطليطلة، وإشبيلية، وغرناطة، وبرشلونه، وبلنسيه، ودانيه، ومارسيه، والمرية.

وكان لاختلاف التضاريس وتنوعها على هذا النحو أثر واضح فى اختلاف المناخ، فهو فى الجبال بارد، وفى الوديان والسهول دافئ، وفى الشرق مناخ البحر المتوسط، ولاختلاف التضاريس والمناخ اختلفت أيضاً مظاهر الحياة من نبات وحيوان فمناطق الجبال بها غابات وفى سفوحها مراع ووديان وسهول بها زروع وبساتين، وفى أحواض الأنهار حدائق الأنهار حدائق وحقول.

وتأثرت حياة السكان بكل هذا فالذين يسكنون الجبال عاشوا حياة أهل الجبال بقسوتها ووعورتها، وممن يعيشون فى السفوح والسهول تأثروا بما يتأثر به أهل البوادى، وحيث المدن نجد سكاناً متحضرين وفى

الجبال والهضاب نجد رعاة[1].

وهذا الاختلاف فى المكان والمناخ والسكان رافقه منذ أقدم العصور اختلاف فى العناصر والأجناس البشرية التى كونت المجتمع الأندلسى على مر العصور، فكان الأيبيريون من سكنها، وهم قبائل من الغال والبسك، ثم وفد إليها الفينيقيون فى القرن العاشر قبل الميلاد للتجارة، ثم ما لبثوا أن أقاموا بشواطئها الجنوبية، وأسسوا على البحر المتوسط مدينة «مالقه» وعلى المحيط مدينة «قادس»، ثم جاء من بعدهم الإغريق فى القرن الخامس قبل الميلاد، وأقاموا بشواطئها الشرقية والشمالية وأسسوا بها مدينة برشلونه، وبعد نحو قرنين جاء القرطاجيون وأسسوا فى شرقها مدينة قرطاجنه، واستولت روما عليها فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد، وكان جيشهم الفاتح خليطاً من شعوب وأجناس أوروبية مختلفة، وأشاعت فيها روما حضارتها ولغتها، حتى إذا تنصرت أدخلتها معها فى النصرانية، وظلت خاضعة لها حتى أقبل القرن الخامس الميلادى وأقبلت معه غارات المتبربرين من قبائل أوروبا، الوندال ثم القوط الذين كانوا يحكمون البلاد عند الفتح الإسلامى[2].

وكان هؤلاء القوط أقلية، وكانوا يختلفون عن السكان الأصليين فى اللغة والدين والعادات والتقاليد، إذ كانوا يتكلمون لغة جرمانية الأصل، بينما كان السكان الأصليون يتكلمون لغة رومانية أو لاتينية عامية، استقرت على ألسنتهم بعد الغزو الرومانى، كما أن القوط كانوا يعتنقون مذهباً مسيحياً لا يسلم بألوهية المسيح ولا يجعلون للعذراء فى عقيدتهم مكاناً علياً، كما كان يفعل أهل البلاد الكاثوليك وأصبحت اللغة اللاتينية هى اللغة الرسمية للبلاد.

---

(١) حول وصف القدماء لبيئة الأندلس وجبالها وهضابها وهوائها وخيراتها ومدنها أنظر على سبيل المثال ما كتبه المقرى: نفح الطيب ١/ ١٢٢ - ١٢٤، وأنظر د. شوقى ضيف: تاريخ الأدب العربى (الأندلس) ٧/ ١٣ وما بعدها.

(٢) د. حسين مؤنس فجر الأندلس ص ٢ وأنظر أيضاً د. شوقى ضيف المرجع السابق ٧/ ١٤ - ١٥.

وكان من المتوقع بعد هذا التحول فى الدين واللغة أن تنصهر الفوارق العرقية والدينية واللغوية فى المجتمع الأندلسى قبل الفتح، ولكن عوامل ومؤثرات كثيرة عرقية واجتماعية حالت دون ذلك وإن ظلت اللغة اللاتينية هى لغة الثقافة والعلوم، فى الوقت الذى ظل فيه عامة الناس يتكلمون هذه العامة اللاتينية التى دخلها عدد غير قليل من الكلمات من لغة القوط ذات الأصل الجرمانى[1].

وكان المجتمع عند الفتح الإسلامى (٩٢هـ/ ٧١١م) يتألف من خمس طبقات هى: النبلاء، ورجال الدين، والأحرار، والعبيد، ثم اليهود الذين أتاح لهم القوط قبل اعتناقهم الكاثوليكية قدراً من الحرية لإدارة شؤونهم، ولكن بعد اعتناق القوط للكاثوليكية ساموهم سوء العذاب ولذلك رأى اليهود فى الفتح الإسلامى مخلصاً ونصيراً أو كما هى عاداتهم انضووا تحت لواء القوى المنتصر.

أما النبلاء فكان معظمهم من القوط، وكانوا يؤلفون مع رجال الدين الطبقة العليا من المجتمع بما حازوا من سلطان وأراض وضياع، وكانت تفصلهم عن طبقة الأحرار هوة واسعة فى حين كان عامة السكان فى الريف من القنان والعبيد وكانوا يشتغلون بالزراعة ويسخرون فى الجيش، وفى المدن كانوا يشتغلون بالحرف اليدوية، وفى جميع الأحوال كان الجميع فى الريف والمدن يعانون من أوضاع اجتماعية واقتصادية فى غاية السوء.

ولكن هذه الأوضاع الدينية واللغوية والاجتماعية ما لبث أن تغيرت واختلفت بعد الفتح الإسلامى واستقرار العرب فى ربوع الأندلس.

٢ - اللغة والمجتمع فى الأندلس بعد الفتح الإسلامى

كان للسياسة الحكيمة التى اتبعها المسلمون فى الفتح عامة وفى فتح الأندلس خاصة أثرها البعيد فى تغيير التركيب الاجتماعى واللغوى فى

---

(١) د. حسين مؤنس المرجع السابق ص ٩، وأنظر أيضاً ألبير حبيب مطلق، الحركة اللغوية فى الأندلس ص ١٩.

حياة الأندلس، فقد أدخل مبدأ التسامح واحترام العقائد الذى طبقه المسلمون وخاصة إزاء اليهود والنصارى، أدخل في نفوس أهل البلاد كثيراً من الاطمئنان والثقة فى نوايا الفاتحين الجدد، وينوه المستشرق دوزى Dozy بذلك فى حديثه عن الفتح الإسلامى قائلاً:

«لم يكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى الشكوى بالنسبة لما كانوا عليه من قبل، أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح، فلم يرهقوا أحداً فى شؤون الدين ولم ينس النصارى للعرب هذا الفضل بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج»[1].

والحق أن المسلمين قدموا لأهل الأندلس عشية الفتح الإسلامى وبعد استقرارهم نعمتين لم تعرفهما البلاد إبان حكم القوط أو غيرهم من الأمم التى تعاورت على حكم إسبانيا.

أما الأولى: فنعمة التسامح والحرية الدينية، وأما الثانية: فنعمة الضرائب العادلة التى تُفرض طبقاً لحدود وأصول معينة، وكانت طرق جبايتها تقترن فى معظم الأحوال باللين والرفق، كما لم تكن تُفرض على النساء والأطفال والشيوخ، وكان يُراعى فى التقدير والتحصيل، أن يخرج هؤلاء الذميون - قبل كل شئ - من غلة أرضهم ما يكفى لتعهد معابدهم وكنائسهم ومرافقهم ومؤنهم.

وكان من نتائج ذلك أن اختلفت صورة المجتمع الأندلسى بعد مضى مراحل الفتح الإسلامى واستقرار المسلمين فى الأندلس[2] ومن ثم أصبح المجتمع الأندلسى يتألف من عناصر مختلفة هى:

١ - العرب:

عندما عزم موسى بن نصير على فتح الأندلس، أقر مولاه طارق بن

---

(1) Dozy, His. des Musalmano de I'espagn, A, P. 41 - 43.
نقلاً عن محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ص ٢٠ - ٢١.

(٢) حول مراحل الفتح انظر على سبيل المثال من المصادر القديمة: المقرى، نفح الطيب ١/ ٢١٤ وما بعدها، ومن المراجع الحديثة انظر: د. حسين مؤنس، المرجع السابق ص ٥٢ - ١١٢، د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين واثارهم فى الأندلس ص ٥١ - ٩١

زياد على جيش قوامه سبعة آلاف رجل كلهم من البربر ،إلا ثلاثمائة كانوا من العرب، وكان البربر حديثى العهد بالإسلام وباللغة العربية ولكنهم كانوا مقاتلين أشداء، وتجمع المسلمون عند جبل Calpe والذى عُرف بعد ذلك - وحتى اليوم - باسم جبل طارق، وكان سكان الأندلس ساخطين على حكم القوط، فأنعش دخول جيش طارق آمالهم فى الخلاص من عسف القوط وظلمهم، واتخذ طارق من الجزيرة الخضراء رأس جسر يعبر منه إلى بقية مدن الأندلس وأقاليمها، وسمع القوط بانتصار المسلمين الأول فى الجزيرة الخضراء فاستعدوا بجيشهم وعتادهم لمواجهة جيش المسلمين، فكتب طارق إلى موسى بن نصير يستمده، فأرسل إليه مدداً من خمسة آلاف من المسلمين أغلبهم من البربر أيضاً، والتقى الجيشان قرب مدينة «شذونة» فانهزم جيش القوط هزيمة منكرة فى رمضان سنة ٩٢هـ وفر أفراده وقواده من وجه طارق.

وأحدث انتصار طارق على القوط دوياً هائلاً، وتسامع الناس من أهل «العدوة» بالمغرب بالفتح وكثرة الغنائم، فأقبلوا من كل حدب وصوب وركبوا البحر قاصدين جيش طارق للانضمام إليه، فدب الهلع فى قلوب أهل الأندلس من هذه الجموع الزاحفة من البربر والعرب فارتفعوا إلى الحصون والقلاع وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال كما يقول المقرى[1].

تضخم جيش طارق وازداد ممن عبر إليه من أهل «العدوة»، ففرقه إلى وحدات مقاتلة أناط بكل منها مهمة فتح مدينة من الأندلس مثل قرطبة ومالقة والبيرة[2]. واتجه هو بمعظم جيشه إلى طليطلة دار مملكة القوط فوجدها خالية،قد فر عنها أهلها وحاميتها من جيش القوط ولم يبق منها إلا قلة من اليهود، فاستبقاهم فيها وترك معهم بعض رجاله ثم مضى يطارد فلول الحامية، فى الوقت الذى أخذت وحداته المقاتلة فى فتح مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى، وبعد أن استولى على العاصمة توغل فى

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٤٣.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٨٢.

قلب الأندلس، وكل ذلك فى أمد قصير مما أجهد جنوده فى الوقت الذى أخذت فيه المقاومة القوطية تتجمع فى أنحاء مختلفة من البلاد.

وهب موسى بن نصير لدعم الفتح واستكماله فى جيش من العرب قوامه اثنا عشر ألفاً من اليمنية أطلق عليهم اسم «الطلعة الأولى» ثم كانت طلعة أخرى تضم عشرة آلاف من أهل الشام القيسية، وأطلق على الذين استقروا من الطلعة الأولى اسم (البلديين) تميزاً لهم عن المهاجرين الشاميين الجدد وكان معظم هؤلاء البلديين من اليمنية[1].

ثم توالت هجرة العرب إلى الأندلس، يقول المقرى:

«اعلم أنه لما استقر قدم أهل الأندلس بالأندلس، وتتام الفتح صرف أهل الشام وغيرهم من العرب وساداتهم هممهم إلى الحلول بها، فنزل بها جراثيم من العرب وساداتهم جماعات أورثوها أعقابهم»[2] وبذلك أخذت البلاد تموج بمن وفد عليها من العرب، وكانت جماعات من اليمنية تفوق جماعات العدنانية عدداً وقوة لأنهم «الأكثر بالأندلس والملك فيهم راسخ إلا ما كان من خلفاء بنى أمية»[3].

وكانت المنازل التى نزلها العرب فى سائر أنحاء الأندلس تتميز بأنها من أخصب مناطق البلاد وأطيبها ومن ثم اختلطوا بالأهل وعاشروهم وتزوج بعضهم من نساء غير عربيات، فنشأ جيل من هذا الزواج هم المولدون[4].

وهكذا كون العرب فى هذه البقاع مراكز قوية للعروبة، والعربية أخذت تزداد قوة واتساعاً مع الزمان، كما كانوا نوة لطبقة عليا جديدة غالبة على عرب الأندلس حتى نهاية دولة الإسلام.

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم. تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٢٠.

(٢) نفح الطيب ١/ ٢٧١ وما بعدها، وانظر أيضاً فجر الأندلس ص ٣٨٦ وتاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١١٩.

(٣) نفح الطيب ١/ ٢٧٤.

(٤) لمزيد من التفاصيل حول القبائل العربية فى الأندلس ومنازلهم وعلاقاتهم بأهل البلاد انظر على سبيل المثال نفح الطيب ١/ ٢٧١ - ٢٧٩، فجر الأندلس ص ٣٧١ وما بعدها، تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ص ١٢١ وما بعدها.

٢- البربر:

أحرز البربر قصب السبق فى فتح الأندلس، فهم الذين خاضوا مع قائدهم طارق بن زياد المعركة الفاصلة مع القوط بوادى «لكة» عام ٩٢هـ، وهى المعركة التى حددت مصير الفتح بعد ذلك، وما كادت أبناء هذا النصر تصل إلى المغرب حتى هُرعت أعداد أخرى منهم إلى الأندلس طلباً للغنائم، والاستقرار فى هذه البلاد الغنية، وظلت بلاد المغرب مصدراً للهجرات البربرية حتى قيام دولة بنى أمية فى الأندلس، وقد استقر هؤلاء البربر فى المناطق الجبلية التى كانت تشبه المناطق التى عاشوا بها من قبل فى المغرب[١].

ويبدو أن سوء معاملة العرب للبربر، أو استئثارهم بالأرض الخصبة دونهم، أو لأن البربر أنفسهم كانوا يشعرون بأنهم أحق من العرب بالبلاد التى فتحوها قبلهم، أو لكل هذه الأسباب أو بعضها، قد أوغر صدور البربر على العرب فتحالفوا مع عرب الأندلس «البلديين» ضد «الشامية» وقاموا بثورة على عرب الشمال وجنوبه ثم تعددت ثوراتهم بعد ذلك بين كل حين وآخر[٢].

غير أن بنى أمية اختصوا البربر بعنايتهم واتخذوا من بعضهم قواداً ووزراء لهم، بل تولى بعضهم القضاء[٣]، كما كان لهم دور واضح فى الحضارة الإسلامية بالأندلس، إذ برز منهم عدد من الشعراء والعلماء منهم عباس بن فرناس (ت ٢٧٤هـ) ولعل من أبرز أدوارهم وأجلها قيامهم بالدعوة إلى الإسلام، والجهاد فى سبيل نشره فى ربوع الأندلس، وقد ساعدهم على ذلك اختلاطهم الوثيق بأهل البلاد، مما جعل الطابع البربرى ظاهرة واضحة فى الأندلس حتى وقتنا هذا[٤].

---

(١) فجر الأندلس ص ٣٨٨.
(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٢٢ - ١٢٤.
(٣) انظر الخشنى، قضاة قرطبة ص ١١ - ١١٢.
(١) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٢٢ - ١٢٤.

٣ - الموالى :

وكانوا ينتمون إلى أصول شتى بعضهم من البربر أو الفرس أو الروم، وبعضهم من أصول عربية، وكان من أبرزهم فى الأندلس هؤلاء الذين ارتبطوا بالولاء مع بنى أمية بعد الفتح الإسلامى،وزادت أعدادهم زيادة عظيمة بعد سقوط الدولة الأموية فى المشرق،كما دخل فى ولاء البيت الأموى عدد كبير من أهل الأندلس وقد اعتمد عليهم عبد الرحمن الداخل كثيراً فى إرساء دعائم حكمه، وكذلك فعل بنو أمية من بعده، فقلدوهم مناصب الدولة، فكان منهم الوزراء والقواد والقضاة والكتاب[١] وكان منهم ابن شهيد(ت ٤٠٦هـ) صاحب رسالة التوابع والزوابع، وابن حزم (ت ٤٥٦هـ) وغيرهم كثير.

٤ - المولدون :

شُغل رجال العرب والبربر بالفتح وكانوا قد تركوا نساءهم خلفهم، وعندما استقر بهم المقام فى أرض الأندلس، جاوروا أهل البلاد وصاهروهم، واتسعت رقعة الإسلام بالمصاهرة والجوار، كما اتسعت من قبل بالدعوة، ومن ثم امتزجت دماء الفاتحين بدماء أهل البلاد من هذه المصاهرة، ونشأ منها جيل جديد من آباء مسلمين عرب أو بربر عرفوا فى تاريخ الأندلس باسم المولدين، وقد احتفظ كثير من المولدين بأسمائهم القديمة[٢].

ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالإسلام ويتكلمون العربية، ويتخذون نوع الحياة التى يحياها المسلمون، إلا أنهم لم يفقدوا ميراثهم القديم وشخصيتهم التى امتزجت بعادات المسلمين وتقاليدهم بحيث أصبحوا فئة مميزة فى المجتمع الأندلسى.

وقد تألفت من هؤلاء المولدين جماعات كبيرة فى مدن الأندلس الهامة مثل «طليطلة» التى كانت مركزاً من أهم مراكزها، وقد ظهر ذلك فى ميولهم الانفصالية عن سلطان قرطبة فى ثوراتهم المتعددة وتعصبهم لميراثهم القديم، رغم كونهم مسلمين فتحالفوا مع نصارى الأندلس ضد المسلمين عندما ضعفت الدولة.

---

(١) انظر الخشنى، قضاة قرطبة ص ١١ - ١٢.
(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٢٣ - ١٢٤.

٥ - عجم الأندلس :

وهم السكان الأصليون الذين بقوا على نصرانيتهم، وكان يطلق - أحياناً «عجم الذمة» أما من أسلم منهم فقد أطلق عليهم «المسالمة» او «الأسالمة» وأما من بقوا على دينهم فهم «ذمة» أو «معاهدة» أو «المعاهدون»[1].

وكانوا يؤلفون معظم سكان البلاد فى السنوات الأولى التى أعقبت الفتح، ولكن مع الزمن أخذت أعدادهم تتناقص شيئاً فشيئاً، بينما أخذ عدد المسالمة يزداد يوماً بعد يوم، وكانوا يتكلمون العربية، كما سنرى فيما بعد، وقد عوملوا من المسلمين منذ الفتح معاملة طيبة، فتمتعوا بحرية دينية واسعة من حيث إقامة شعائر دينهم، وأقرهم المسلمون على أموالهم ودينهم ما داموا على الطاعة، يؤدون ما عليهم من الأموال، كما ظلوا يفصلون فى أقضيتهم وفقاً للقانون القوطى القديم، كما ظلت علاقاتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح،وكان لهم قاض يفصل فى منازعاتهم يعرف باسم «قاضى العجم»[2].

وهكذا كان على هذا القاضى المسلم أن يكون عالماً بالقانون القوطى والشريعة الإسلامية.

على هذا النحو طبق المسلمون فى الأندلس سياسة التسامح الدينى مع أهل الذمة من النصارى، وما لبثت هذه السياسة أن أثمرت وأمدت الأندلس برجال منهم قاموا بدور هام فى تاريخ الإسلام فى الأندلس، كما نبغ منهم عدد من المترجمين الذين كانوا يجيدون اللغتين العربية واللاتينية فترجموا كثيراً من الكتب العربية وبذلك كانوا حلقة اتصال هامة بين الثقافتين العربية والأوروبية.

٦ - اليهود :

كان موقف دولة القوط من اليهود هو موقف العداء والكراهية والاضطهاد،

---

(١) د حسين مؤنس، فجر الأندلس ص ٤٢٠ - ٤٢٤.
(٢) د عبد العزيز سالم، المرجع السابق ص ١٣١ - ١٣٢.

مع كثرتهم فى أسبانيا، حتى إننا نجد مدناً كاملة يسكنها اليهود فى أواخر العصر القوطى[1] ونتيجة لاضطهاد القوط لهم، رحبوا بالفتح الإسلامى أو بخبرتهم القديمة فى الارتباط بالدول الكبرى ومعرفتهم سلفاً بأن العرب هم المنتصرون فى هذا الصراع، وسرعان ما أخذوا يساعدون المسلمين بكشفهم عن عورات البلاد، وكان من الطبيعى أن يكافئهم المسلمون على ذلك،فاتخذوا منهم حراساً لما يفتحونه من المدن الأندلسية، إلى جانب الحرس من المسلمين كما فعل طارق بن زياد عند فتحه لطليطلة، وأشرنا إليه من قبل، ولقد لقى اليهود من المسلمين بعد ذلك تسامحاً مطلقاً، سواء خلال عصر الولادة أو بعده، فكانت لهم بيعهم وصلواتهم ورجال دينهم يمارسون فيها شعائرهم التى حرّمها القوط عليهم، وحاولوا تنصيرهم قسراً.

ومن ثم كانت الأندلس خلال الحكم الإسلامى جنة اليهود التى لم يجدوا مثلها على الأرض فى عصر من عصور حياتهم، فبلغ بعضهم الوزارة وتولى بعضهم مناصب كبرى فى دولة المسلمين، بل إن حركة بعث اللغة العبرية والأدب العبرى بدأت فى الأندلس تحت سمع وبصر المسلمين، وبموافقتهم وتحت رعايتهم، وكان اليهود لهذا كله أسرع الفئات إلى التعريب فاتخذوا من العربية لساناً بجوار العبرية، وبذلك انفتحت لهم حركة فكرية وعلمية ولغوية غذتها اللغة العربية.

ففى قرطبة ظهر شيخ نحاة اليهود على الإطلاق مروان بن جناح، الذى ألف بالعبرية كتاباً فى النحو العبرى اقتفى فيه أثر نحاة العربية وأطلق على هذا الكتاب اسم «اللمع»، كما ألف معجماً عربياً للكتاب المقدس سماه «الأصول» وكلها أسماء لكتب عربية قديمة، بل لقد ظهر منهم شعراء وكتاب مثل يهودا اللاوى،وابن جبيرول وإبراهام بن عزرا، والحريرى الذى ألف مقامات باللغة العبرية على غرار مقامات الحريرى العربية.

كما ظهر منهم فوج من الفلاسفة والعلماء والمترجمين مثل ابن تبون الذى ترجم كثيراً من آثار الفكر العربى إلى العبرية كما، أخذ بعض

---

(١) د حسين مؤنس، المرجع السابق ص ٥٢١

شعرائهم أوزان الشعر العربى وأدخلوها فى شعوهم العبرى ، بل صاغ بعضهم على أوزان الموشحات الأندلسية شعراً محاكين فى ذلك أساتذتهم من الشعراء العرب[1].

تلك هى صورة المجتمع الأندلسى بعد استقرار الفتح: خليط من أجناس وأعراق ولغات مختلفة، وهى صورة قد تبدو عسيرة على التصور، غير أن هذا كله أحيط بإطار عام من الإسلام واللغة العربية، وانتهى إلى الانصهار فى هذا الإطار، وقد علل أبو بكر الزبيدى (ت ٣٧٩ هـ) صاحب، كتاب «لحن عوام أهل الأندلس» لذلك من الناحية اللغوية تعليلاً عاماً لا يخص عربية الأندلس وحدها وإنما يتصل بالعربية فى البلدان المفتوحة بصورة عامة فقال: «لم تزل العرب فى جاهليتها وصدر إسلامها تبدع فى النطق على سجيتها وتتكلم على السليقة حتى فتحت المدائن والأمصار ودونت الدواوين، فاختلط العربى بالنبطى، والحجازى بالفارسى، ودخل الدين أخلاط الأمم وسواقط البلدان فوقع الخلل فى الكلام وبدأ اللحن على ألسنة العوام»[2].

وملاحظة الزبيدى هذه إذا كانت صادقة على البلاد المفتوحة جميعاً فهى أصدق ما تكون على أرض الأندلس، إذ اختلطت فيها أجناس وعناصر بشرية مختلفة تتطلع كلها إلى العرب والعربية إما بدوافع صادقة من الإيمان بالإسلام أو بمصالح مادية كانت فى أيدى العرب ، وأبو بكر الزبيدى فى هذا الكتاب - كما سنرى فيما بعد - يعرض لما وقع على ألسنة المتكلمين باللغة العربية من أخطاء فى النطق والكتابة حتى امتد ذلك من العامة إلى الخاصة وكل ذلك بتأثير هذه الأجناس من أصحاب اللغات المختلفة، الذين ضمهم المجتمع الإسلامى فى الأندلس يستوى فى ذلك البربر أو العرب أو المولدون أو اليهود أو أهل البلاد الأصليون الذين كانوا يتكلمون لغة تخالف العربية في الأصل الأرومة.

---

(١) د حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم ص ٩٩ - ١٠٠.
(٢) الزبيدى، لحن العوام، المقدمة.

ولكن رغم هذه الصورة العسيرة على التصور فإننا نستطيع أن نرصد الأوضاع اللغوية فى الأندلس على النحو التالى

١ - عندما فتح العرب الأندلس ودخلت العربيه لأول مرة إلى مناطق لم يكن للعرب أو اللغة العربية بها اتصال من قبل. وذلك على العكس من المناطق التى كانت تحيط بالجزيرة العربية سواء قبل الإسلام أو بعده، إذ كان العرب يختلطون بصورة أو بأخرى بشعوب المنطقة المحيطة بهم سواء فى فارس أو العراق أو مصر أو الشام، يدل على ذلك من الناحية اللغوية الخالصة وقوع ألفاظ وكلمات من بعض لغات المناطق المحيطة بالعرب فى اللغة العربية فيما عرف عند علماء العربية القدماء بالمُعرب والدخيل.(١)

٢ - كان العرب الذين اشتركوا فى فتح الأندلس يتكلمون العربية لغتهم الأصلية ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا ينتمون لقبائل مختلفة لها لهجات خاصة قد تقترب من الفصحى أو تبعد عنها، وإن غلبت اللهجات اليمنية على ما عداها ولذلك كانت اللغة المنطوقة Spoken Language تختلف وتتنوع تنوعاً مفهوماً للجميع فى الوقت الذى كانت فيه اللغة المكتوبة Wirren Language تكاد تلتزم بمستوى واحد لا يتغير

٣ - حمل البربر الذين كانت لهم السابقة فى فتح الأندلس، لغتهم البربرية معهم بجوار اللغة العربية، التى كانت بالنسبة لهم لغة الدين لا لغة الحياة اليومية، إذ كانوا يتحدثون البربرية فيما بينهم وإن كان تفاهمهم مع العرب بالعربية أمراً طبيعياً منذ أن أسلموا، أى أنهم كانوا ممن يطلقون عليهم علماء اللغة اليوم من أصحاب الازدواج اللغوى Bilingual يستوى فى ذلك الأفراد والجماعات التى تستخدم فى حياتها لغتين فى آن واحد(٢)

٤ - كان اليهود قبل الفتح الإسلامى للأندلس يستعملون اللغة العربية

---

(١) انظر كتابنا المولد في العربيه ط ثانيه ص ٩ ، ١٤١

(٢) راجع Hartmann & Stork Dict of Language and ling P 27

فى طقوسهم الدينية، وطبقاً لسياستهم المعروفة عبر التاريخ فى الارتباط بالأمم القوية الغالبة، كانوا من أسرع الفئات الاجتماعية فى الأندلس تعريباً، لكنهم لم يتخلوا عن لغتهم، العبرية، بل نشأت حركة إحياء واسعة فى عصر ملوك الطوائف لإحياء اللغة العبرية، وجعلها لغة ثقافة وأدب وكتابة ونجحوا فى ذلك لكن العربية كانت لغة الحياة بالنسبة لهم بجوار العبرية، أى أنهم أيضاً كانوا من أصحاب الازدواج اللغوى.

٥ - لغة أهل البلاد الأصلية وخاصة الذين بقوا منهم على نصرانيتهم وعاشوا فى كنف سلطان المسلمين، وهى اللغة التى وصفها بعض المؤرخين بأنها كانت لاتينية عامية أو رومانية دخلها عدد غير قليل من ألفاظ اللغة القوطية ذات الأصل الجرمانى، وهى اللغة التى أطلق عليها العرب «العجمية» أو «عجمية أهل الأندلس».

تلك هى الصورة العامة للأوضاع اللغوية فى الأندلس بما لها من صلة بفئات المجتمع المختلفة ولغاتهم التى تنتمى واحدة منها إلى العائلة السامية التى انحدرت منها العربية هى اللغة العبرية بينما كانت اللغات الأخرى من عائلات لغوية مختلفة بعضه ينتمى إلى العائلة الهندية الأوروبية مثل اللاتينية واللاتينية العامية لغة أهل البلاد، ثم اللغة البربرية وهى تنتمى إلى اللغات الحامية، ومن ثم فإن الصراع الذى نشب بين هذه اللغات من ناحية، واللغة العربية من ناحية أخرى، خاصة على مستوى اللغة المنطوقة، كان صراعاً لا بد أنه استغرق زمناً ليس باليسير.

فهل سادت العربية ألسنة الناس جميعاً؟ أم زاحمتها فى ذلك لغة من هذه اللغات التى كانت منتشرة على ألسنه الناس خاصة هذه اللاتينية العامية؟ وهل ظلت العربية تنطق بخصائصها النطقية التى كانت عليها أم اعتراها التغير والتطور، وهل نشأت لهجات عربية أخرى نتيجة لهذا الصراع كانت هى الوسيلة بين الفاتحين وأصحاب البلاد الأصليين؟

كل هذه الأسئلة وغيرها سنحاول الإجابة عنها فى القسم الثالث فى حديثنا عن تعريب الأندلس.

٣ - تعريب الأندلس

لم تكن تجربة اللغة العربية فى الصراع اللغوى بينها وبين اللغات الأخرى فى الأندلس هى التجربة الأولى فى حياة هذه اللغة، بل سبقتها تجارب أخرى فى العراق والشام ومصر طوال القرن الأول الهجرى، غير أن الحياة اللغوية فى الأندلس، كانت أكثر تعقيداً من تلك التى وجدتها العربية فى البلدان الأخرى، فلم يكن صراع العربية فى مصر مثلاً إلا مع لغة واحدة، هى اللغة القبطية ومثل ذلك أو قريباً منه فى الشام أو العراق خاصة بين العربية والفارسية، وبعض اللغات من العائلة السامية التى تنتمى إليها العربية، وكان عدد المتكلمين بها ضئيلاً،كما كانت تجربة العربية المكتوبة أيسر بكثير من تجاربها مع اللغات المنطوقة التى احتكت بها بعد خروجها من الجزيرة العربية، عقب الفتح الإسلامى، إذ كانت العربية المكتوبة قد استقرت على نظام ثابت فى الكتابة، فضلاً عن أن اللغة العربية المكتوبة أكثر ثباتاً واستقراراً من اللغة المنطوقة،يضاف إلى هذا أن العربية المكتوبة استمدت سلطانها من الدين والحكم والسياسة والعلوم والفنون والآداب، ومن ثم تحصنت بأقلام الكتاب والشعراء والعلماء، فى الوقت الذى كانت العربية المنطوقة تخوض على ألسنة المتكلمين بها من غير العُرب صراعاً شديداً من أجل الاحتفاظ بخصائصها النطقية.

ولذلك كان انتشار العربية المكتوبة أيسر بكثير من المنطوقة، التى واجهت ميراثاً لغوياً خاصة فى الأندلس شديد التعقيد، ومع ذلك لم تخل العربية المكتوبة من التصحيف والتحريف،وقد فطن أبو بكر الزبيدى(ت ٤٧٩هـ) إلى كل هذا فيما يتصل بالصراع اللغوى فى الأندلس فقال: إن لحن عامة الأندلس مختلف عن لحن عامة المشرق، وإن كتب اللحن التى وضعها علماء المشرق لا تصور اللحن فى بيئة الأندلس وانتهى إلى ضرورة وضع كتاب عن لحن عوام أهل الأندلس ليذكر فيه ما لم يذكره علماء المشرق، مما أفسدته العامة عندنا فأحالوا لفظه ووضعوه فى غير موضعه، وتابعهم فى ذلك الكثرة من الخاصة حتى ضمنته الشعراء أشعارهم، واستعمله جلة الكتّاب وعليه الخدمة فى رسائلهم وتلاقوا به فى حافلهم[١].

---

(١) انظر الزبيدى. لحن العوام ص ٦ - ٨

ومعنى هذا أن الزبيدى قد شعر بالتغير الذى أصاب العربية فى بيئة الأندلس، وهى تختلف عما أصابها فى المشرق، وهو ما تثبته وقائع الصراع اللغوى بين العربية واللغات الأخرى التى وجدت فى الأندلس.

وقد مر بنا من قبل أن الأندلس كانت تموج بأجناس ولغات منها الأوروبى من الغال والبسك والإغريق والرومان والفاندال، والقوط، ومنها الأسيوى من الفينيقيين والقرطاجنيين، واليهود، كما نزلها مع فتح العرب، قحطانيون مضريون، ونزلها معهم بربر كثيرون من أفريقية وجلب الأمويون معهم الكثير من الموالى من أجناس شتى، واستقبلت الأندلس الفتح العربى بلغة رومانية أو عامية لاتينية.

وبعض هذه اللغات كانت لغة ذات حضارة وبعضها كان لقبائل متبربرة، وكان على العربية أن تواجه هذا السيل من اللغات وبقايا الحضارات الوثنية، وبعض الديانات السماوية، وكان المسلمون لا يملكون إلا الدين والعربية وحضارة كانت ما زالت فى طور التكوين تمثلت فى علوم القرآن والحديث وبعض العلوم الأخرى حديثة النشأة فتلك وسالتهم الأولى.

وكان من الطبيعى أن ينشر العرب الإسلام، وكان من الطبيعى أيضاً أن يقبل الناس على تعلم العربية حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام وتلاوة القرآن، بل لعلهم دفعوا بعض أبنائهم إلى هذا التعلم،ومن ثم بدأ الصراع على ألسنة الناس بين لغة الحياة اليومية التى اكتسبوها سليقة،وبين تلك اللغة التى ينبغى عليهم تعلمها إما من أجل الدين الذى آمنوا به، وإما من أجل التعامل مع الحكام الجدد لبلادهم.

يقول مندث بدال «إن اللغة التى كان يتكلمها أهل أيبيريا قبل القرن الحادى عشر الميلادى، لا يمكن معرفتها إلا على وجه التقريب، نظراً لقلة الأصول التى يعتمد عليها وكل ما يمكن قوله: إنها كانت تضم ألفاظاً قليلة من لغة القوط أما بقيتها فكانت لهجات مختلفة من اللاتينية العامية "Latin vulgar"[١] وهذه اللغة هى التى أطلق عليها العرب

---

(١) د. حسين مؤنس، فجر الأندلس هامش ص ١٤٧.

العجمية أو عجمية أهل الأندلس كما أشرت من قبل أو «اللطينية» كما كان يسميها ابن حزم(ت ٤٥٦)[١].

ويقول المقّرى فى نفح الطيب «مع أن كلام أهل الأندلس الشائع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية، حتى لو أن شخصاً سمع كلام الشلوبينى[٢] أبى على المشار إليه بعلم النحو فى عصرنا، الذى غربت تصانيفه وشرقت، وهو يقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه، والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخر يجرى على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه، ولكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات بالرسائل وعلم الأدب والنظم والنثر»[٣].

من ملاحظة بدال Pidal السابقة وما أشار إليه المقرى فى النص السابق نستطيع أن نستنتج الحقائق الآتية:

١ - كانت هناك لغة لاتينية عامية أو اللطينية، كما أسماها ابن حزم يتكلم بها عامة أهل الأندلس، وهى التى أطلق عليها العرب عجمية أهل الأندلس.

٢ - كانت هناك لهجة عربية على درجة كبيرة من التحريف حتى أن كبار علماء النحو فى الأندلس فى عصر المقرى، لم يكن بقادر على التخلص منها حتى وهو يلقى دروسه فى علم النحو.

٣ - أن لغة الكتابة الديوانية أو الفنية الأدبية، كانت تراعى فيها أوضاع العربية الصحيحة. وهذه الملاحظات تؤكد ما أشرنا إليه من قبل عن الفرق بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة من حيث التطور والتغير، ولكن هل معنى هذا أن اللغة المنطوقة فى الأندلس كانت تتألف من مستويين هما: هذه اللغة اللاتينية العامية مقابل لغة عامية عربية الأصل أم أن

---

(١) د. حسين مؤنس فجر الأندلس ص ٣٣٧.

(٢) هو عمر بن عبد الله الأزدى الأندلسى الأشبيلى النحوى المعروف بالشلوبينى كان إماماً فى النحو.

(٣) انظر المقرى: نفح الطيب ١/ ٢٠٦.

هذه العامية العربية كانت نتيجة الاختلاط بين هذه اللاتينية والعربية، التى كان يتكلم بها الفاتحون من العرب فى مناطق أخرى بالأندلس؟

إن شواهد الصراع اللغوى الذى دخلته العربية مع اللغات الأخرى فى مناطق أخرى غير الأندلس خاصة فى العراق والشام تدل على أن هناك لغة ثالثة نشأت على ألسنة غير العرب ممن حاولوا التكلم بالعربية، ففى القرن الأول الهجرى كانت الطبقة الحاكمة عربية الأصل عاشت فى البيئة الأصلية للعربية فى الحجاز ومع انتقال الخلافة من المدينة إلى الكوفة ثم إلى دمشق، كانت العربية الفصحى هى السائدة فى أواسط هذه الطبقة بل لقد حرص بنو أمية على التمسك بها تمسكاً شديداً فى مواجهة اللحن الذى بدأ يتسرب إلى الطبقات الأخرى.

وكانت الطبقة الوسطى تتكون غالباً من القبائل العربية والجند المسلمين الذين اشتركوا فى الفتح واستقر بهم المقام فى البلاد المفتوحة وكانوا عادة لا يختلطون بأهل البلاد المفتوحة، لكنهم ما لبثوا مع بداية القرن الثانى الهجرى أن اختلطوا بالسكان الأصليين، وكانوا يتكلمون العربية بشكل عام، أما السكان الأصليون فكانوا يتكلمون لغاتهم الأصلية لكن المصالح الاقتصادية والاجتماعية أخذت تتعقد وتتشابك بين الطبقات الحاكمة ممثلة فى الولاة وحكام الأقاليم والموظفين من العرب ورعاياهم من الفلاحين والعمال والأجزاء من أهل البلاد، ومن ثم أخذ هذا الحاجز اللغوى القائم على التعصب للعرب والعربية يسقط شيئاً فشيئاً وبدأت تظهر لغة عملية للتحدث اليومى بين أفراد الجيش العربى المتعاونين معه من سكان الأمصار المفتوحة.

ولعل قصة تاجر الدواب الخرسانى تعكس جانباً من هذه اللغة، فقد أحضر هذا التاجر بضاعته من الدواب لبيعها للحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق من قبل بنى أمية فقال له الحجاج عندما رأى الدواب هزيلة ضعيفة أتبيع هذه الدواب المعيبة لجند السلطان، فقال التاجر «شريكاننا فى هوازها وشريكاننا فى مداينها وكما تجئ تكون» فقال الحجاج: ما تقول ويلك؟ فقال بعض من اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية

حتى صار يفهم مثل ذلك، إنه يقول: شركاؤننا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها[1]

والملاحظ من هذه القصة أن الحجاج لم يستطع فهم ما قاله التاجر الخرسانى دون ترجمة ممن يفهم هذه اللهجة ويتعامل مع تلك العناصر البشرية الجديدة على العربى من خلال هذا المستوى اللغوى الذى يستعملونه فى حياتهم اليومية وخاصة فى تعاملهم مع العرب.

ويقول المستشرق الألمانى يوهان فك، إن هذه اللهجة نشأت بالضرورة لتسهيل التفاهم فى البلاد المفتوح بين العرب وهؤلاء الذين يتعاملون معهم من الخدم والعبيد والطهاة والتجار وغيرهم،وهو يشبه هذا المستوى اللغوى باللهجات التى نشأت فى العصر الحديث من اللغة الإنجليزية ولغات أفريقيا والشرق الأقصى والتى أطلق عليها مصطلح Pidgin English[2].

وهذا ما حدث فى الأندلس بين العربية من ناحية،وعجمية أهل الأندلس أو اللاتينية العامة من ناحية أخرى ولكن أين اللغة البربرية من هذا الصراع، وهى اللغة التى كانت تعيش جنباً إلى جنب مع العربية قبل فتح الأندلس فى المغرب.

يبدو أن الصراع بين العربية والعجمية كان هو المسيطر على هذا الصراع المتعدد الأطراف ولا يستبعد أن تكون البربرية قد اشتركت فيه، غير، أن عدداً غير يسير من هؤلاء البربر كان قد التقط العربية وأصبح قادراً على استخدامها على الأقل مع الفاتحين من العرب فى الأندلس وفى المغرب، قبيل ذلك، يضاف إلى هذا أن البربر كانوا من المسلمين المجاهدين أى أنهم رغم لغتهم ينتمون بالدين إلى العرب، وهذا الاحتمال يجعل من اللغة البربرية طرفاً ضعيفاً فى هذا الصراع لأنه كان بين لغتين مختلفتين ودينين مختلفين أيضاً، الإسلام والنصرانية.

---

(١) انظر، الجاحظ: البيان والتبيين، ١/ ١٦١ - ١٦٢.

(٢) يوهان فك، العربية ص ٩، (وهذا المصطلح يدل على لهجة إنجليزية محررة من القيود اللغوية التى يجرى بها التفاهم بين الإنجليز،وسكان المستعمرات وكلمة Pidgin محرفة عن كلمة Busness الإنجليزية،ومازالت هذه اللغة مستعملة حتى اليوم فى بعض مناطق آسيا وأفريقيا).

فإذا صح كل هذا فى أن الصراع كان أساساً بين العربية وعجمية أهل الأندلس وقد يكون للبربرية حظ ولو ضئيل فى هذا الصراع الذى انتهى إلى وجود لغة أخرى، أو مستوى لغوى آخر غير العربية الفصحى وغير العجمية وبالقطع غير البربرية ويتمثل هذا المستوى فى عربية عامية جديدة وكانت هذه اللغة العربية هى لغة الحديث اليومى فى الطرقات والأسواق والمحافل العامة فى الأندلس، وبطبيعة الحال فإن هذه اللهجة لم تنتج من تأثير العجمية بل دخلتها ألفاظ وعبارات من هذه اللغة وربما أيضاً من اللغة البربرية وكل هذا تمدنا به تجربة العربية فى المشرق كما أشرنا إليها من قبل وطبيعة الصراع اللغوى بين اللغات المختلفة بل ربما غزت هذه العامية العجمية الأندلسية فدخلت فيها ألفاظ عربية كثيرة ولا شك أن هذا الصراع قد استغرق زمناً طويلاً، ولعل السؤال الذى يتبادر إلى الذهن متى ظهرت هذه اللهجة العربية العامية؟ وهل حلت محل عجمية أهل الأندلس وقضت عليها؟ وإذا لم يكن الأمر على هذا النحو؟ فأين ذهبت العجمية بعد أن سيطرت هذه العامية العربية على حياة الناس فى الأندلس؟

أما عن الزمن الذى استغرقه هذا الصراع فمن المستحيل أن نحدد بدقة بدايته أو نهايته، نظراً لطبيعة هذا الصراع والقوانين التى تحكمه، فهناك صراع بين لغتين أو أكثر كالذى نحن بصدده الآن، وهناك صراع داخل اللغة الواحدة بين القوة المحافظة التى تريد إبقاء اللغة كما هى دون تطور أو تغير والقوة التطورية التى تدفع اللغة إلى التطور والتغير، وكلا النوعين يحتاج إلي وقت طويل دون أن تنتصر إحدى اللغتين على الأخرى، وقد تنتصر إحداهما بحيث تقضى على الثانية بعد أمد طويل، يدل على ذلك الصراع الذى نشب بين اللغة العربية واللغة القبطية فى مصر الذى استغرق ما يقرب من قرنين من الزمان حتى قضت العربية على القبطية.

نحن نعلم أن العرب دخلوا الأندلس عام ٩٢هـ وبطبيعة الحال لم يبدأ الصراع بين العربية والعجمية مع بداية الصراع العسكرى بين جيش الفاتحين والقوط، وأغلب الظن أنه لم يبدأ إلا بعد أن استقر الأمر للعرب العربية، واختلط جند العرب من القبائل العربية وغيرها من البربر بأهل

الأندلس، ومن ثم أخذ الصراع مجراه الطبيعى حتى وصل إلى مداه واستقرت الحياة اللغوية على هذه العامية العربية وهى تقوم بوظيفتها الاجتماعية فى الحياة اليومية لأهل الأندلس جميعاً العربى وغير العربى، الفاتحون وأبناء البلاد الأصليين، وقد نجد أثراً لهذه العامية فى اللحن الذى وقع على ألسنة الخاصة من الناس كما أشرنا من قبل وكما سنرى فيما بعد، غير أننا قد نجد دليلاً أقوى من ذلك وأوضح فى ظهور فنين أصيلين من فنون القول فى الأندلس هما: الموشح والزجل

وسبيلنا إلى إثبات وجود هذه اللغة العامية أن نتوقف عند جزء من الموشحة هو ما اصطلح على تسميته بـ «الخرجة» أو القفل الأخير من الموشحة، ويذهب عدد من الدارسين لهذا الفن إلى أن ظهور الموشحات بأوزانها الخاصة يرجع إلى القرن الثالث الهجرى[1]

كان الوشاح يأخذ اللفظ العامى أو العجمى ويسميه «المركز» ويضع عليه الموشح وقد أطلق عليه مصطلح «الخرجة» وهى عند الوشاحين أهم جزء من أجزاء الموشح فمقامها عندهم، مقام مطلع القصيدة عند شعراء العربية، وكانت اللغة التى كتبت بها هذه الخرجات تختلف عن اللغة التى كتب بها الموشح، فالموشحة كالشعر يكتب بلغة عربية فصيحة يراعى فيه الأصول والقواعد إلا الخرجة فإنها تكتب بلغة عامية ملحونة وأحياناً بلغة عجمية ، وكثير من خرجات الموشحات التى وصلت أيضاً إلينا كتبت بالعامية العربية فى لغة بسيطة وتلقائية كأنها كلام عادى مما يقع على ألسنة الناس فى الحياة اليومية[2] ويبدو ذلك واضحاً إذا ما قارنا بين لغة الموشح واللغة التى كتبت بها الخرجات وإليك أمثلة منها.

١ - بسْ نَقْدرَ نراك اليوم مُرْ أرجعْ لغير اليوم

٢ - حبيب أنت جارى، دارك بجنب دارى، وتَهُجُرنى

٣ - يا ريت يا ربَّ هذا الحبيب اجمعنى ما عُ

---

(١) انظر د عبد العزيز الأهوانى الزجل فى الأندلس ص ٧ وانظر أيضاً: شوقى ضيف المرجع السابق ص ١٤٧

(٢) المرجع السابق ص ٤ ،انظر أيضاً: شوقى ضيف المرجع السابق ص ١٤٨ ١٤٩

٤ -- ألا تستحى تمشى مع الحاسدين، وتتركنى وحدى

٥ -- على حبيبى خطر ببالك   أنى بغيركَ شغلت بالى

وقد تبلغ الخرجة من بساطة اللغة وتلقائيتها حداً يجعلها منتزعة من الحياة مثال ذلك:

١ -- محبوبى سافر صبرونى

٢ -- سافر حبيب وما ودعتو

يا ووحش قلبى فى الليل إذ أفتكرتو(١)

ولسنا فى حاجة إلى تحليل لغوى يثبت عامية هذه الخرجات، إذ هى تتحدث بلغتها عن نفسها، وتحدد انتماءها إلى مستوى العامية العربية التى تتحدث عنها، ومع ذلك سنعود إليها بالتحليل فى القسم الثانى من هذا البحث، وقد يدعم عاميتها قول ابن سناء الملك فى كتابه «دار الطراز» من أن الخارجة أكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران، ولا بد فى البيت الذى قبل الخرجة من «قال» أو «قلت» أو «غنى» أو «غَنَّيْتُ» أو «غَنَّتْ»(٢) أى أن هذه الخرجات تنتمى إلى اللغة المنطوقة لا المكتوبة، مما يجرى على ألسنة الناس، لا تلك التى وجدوها فى بطون الكتب، غير أن الدارسين لفن الموشح قالوا أيضاً إن بجوار هذه الخرجة العربية العامية هناك خرجات أخرى مكتوبة بلغة أهل الأندلس أى بعجمية أهل الأندلس مثال ذلك:

١ - كتال مى ما ألمه كركرى ما ألمهْ

وترجمتها: من الذى سلب روحى؟ من تريد يا روحى(٣)

٢ - ميو سيدى إبراهيم يا نوا دلج

فأنت ميب دى نخت

إن نون شنون كارش بيريم تيب

غر مى آوب، لقرت.

---

(١) د. شوقى ضيف، تاريخ الأدب العربى ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) د. عبد العزيز الأهوانى، الزجل فى الأندلس ص ١٩.

(٣) د. عبد العزيز الأهوانى، الزجل فى الأندلس ص ٢١.

وترجمتها: يا سيدى إبراهيم يا صاحب الاسم العذب، أقبل إلىّ فى المساء، فإن لم ترد جئت إليك، ولكن أين أجدك[١].

وهذه الخرجات رغم لغتها العجمية إلا أنها لا تكاد تختلف فى معانيها عن الخرجات العامية، وقد يدل وجودها هذا على أن عجمية أهل الأندلس عاشت بجوار العربية العامية، وتأثرت بها تأثراً شديداً وأن الوشاحين من العرب كانوا يعرفون هذه اللغة ويستعملونها فى موشحاتهم رغم أنهم اشترطوا كما رأينا من قبل أن الخرجة فى الموشح ينبغى أن تكون عامية ملحونة.

يقول الدكتور شوقى ضيف مفسراً وجود هذا النمط من الخرجات المكتوبة باللاتينية العامية أو بالعجمية «إنَّ ما تحمله الخرجة أحياناً من مجون زائد عن الحد قد يقال على لسان امرأة كان السبب فى استخدام الوشاح الأندلسى أحياناً للخرجات الرومانسية فراراً من التصريح بألفاظ مفحشة نابية... هو الباعث على وجود الخرجات العجمية فى بعض الموشحات»[٢] أى أن الوشاح كان يلجأ إلى هذا النمط عند الضرورة ولم تكن جزءاً من لغة الموشح الذى اشترطوا فى خرجته أن تكون عامية ملحونة.

وهذا يدل من ناحية أخرى على أن الوشاحين كانوا يعرفون هذه اللغة لكن درجة شيوعها فى الموشحات التى وصلت إلينا - قليلة بالنسبة للخرجات العامية - هذا عن الخرجة فى الموشح الفصيح فماذا عن الزجل؟

لعل الأمر فيما يتصل بلغة الزجل أهون بكثير من الموشح فالأزجال مكتوبة بلغة عربية عامية،ولا نجد فيها ما وجدناه فى الموشح من خرجات عامية كثيرة وخرجات عجمية قليلة، وإنما لغته خالصة للعامية العربية بل إن ابن قزمان(ت ٥٥٤هـ) زعيم الزجالين فى عصره يعيب على الزجالين قبله بأن لغتهم ليست عامية وبأن الاعراب قد يغلب على بعض أزجالهم ويفخر بأنه جرد أزجاله من الأعراب تجريد السيف من القراب[٣].

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨.
(٢) تاريخ الأدب العربى (الأندلس) ٧/ ١٤٨ - ١٤٩.
(٣) د. الأهوانى، الزجل الأندلسى ص ٥٢ - ٥٥.

ومعنى هذا أن الزجل لم يأخذ صورته الفنية ومقوماته اللغوية التى وضعها ابن قزمان إلا فى القرن الخامس الهجرى أى فى عصر ابن قزمان ومعنى هذا أيضاً أن نشأة الزجل كانت متأخرة على الأقل عن الموشح بقرنين كاملين أو يزيد قليلاً، فإذا كان الموشح قد ظهر فى القرن الثالث الهجرى كما أشرنا من قبل، والزجل فى أواخر القرن الخامس أو أوائل السادس، فمعنى هذا أن العامية العربية التى نحن بصددها فى الأندلس، قد استقرت أوضاعها اللغوية التى وجدناها عليها فى الخرجات وفى الموشح، وهى أوضاع تنبئ عن النضج والاستقرار وليست كعربية صاحب الدواب التى أشرنا إليها من قبل، ثم ظهر الزجل بعد ذلك بقرنين، أى أن هذه العامية العربية لم تكتف بالذيوع والانتشار بين أهل الأندلس من العرب وغير العرب، بل انشأت لها فناً خاصاً وهو ما يتفق وطبيعة الأشياء، إذ لم يكن من المتصور أن ينشأ الزجل وهذه اللغة ما زالت بعد فى طور التكوين، فإذا وجدت فى الموشح فى القرن الثالث ثم استوت لغة ذات فن فى القرن الخامس، فمعنى ذلك أنها كانت لغة منطوقة مستخدمة على الأقل قبل القرن الثالث، ومن ثم يمكن القول بأن هذه العامية العربية فى الأندلس كانت وسيلة اتصال يتكلمها أبناء المجتمع الأندلسى من عرب وغير عرب مع نهاية القرن الثانى الهجرى على الأقل، إن لم يكن قبل ذلك وهذه المدة الزمنية هى التى استغرقتها العربية فى العراق والشام ومصر حتى تغلبت على غيرها من اللغات الأخرى وإن لم تقض عليها إلا بعد ذلك بقرن آخر.

لكننا نجد أن عجمية أهل الأندلس كانت تستعمل فى خرجات الموشح بعد القرن الثالث، فهل معنى هذا أن العربية لم تقض على هذه اللاتينية التى كان يتكلم بها أهل الأندلس وأنها عاشت بجوار هذه العربية العامية، قد يكون ذلك، ولكن قوانين الصراع اللغوى قد تقول غير ذلك.

فمن المعروف طبقاً لهذه القوانين أن اللغتين المتصارعتين إذا تساوتا فى درجة التحضر وعدد المتكلمين بها، لم تستطع إحداهما أن تتغلب على الأخرى كما أشرنا من قبل، أما إذا كانت إحداهما ذات حضارة والأخرى

أقل حضارة، وعدد المتكلمين بكل منهما متساو، فإن اللغة ذات الحضارة هى التى تتغلب وقد كانت هذه اللهجة اللاتينية العامية التى يتكلم بها مسيحيو أهل الأندلس لغة فقيرة فقراً شديداً، فلم تكن لها حضارة ظاهرة أو أدب رفيع[١] بعكس العربية التى دخلت إلى الأندلس وخلفها ميراث حضارى جاهلى من الشعر والنثر ثم العلوم الشرعية والتاريخية وغيرها من المعارف والعلوم مما نشأ وتطور طوال القرن الأول الهجرى فى العراق ومصر والشام.

وأغلب الظن أن العربية لم تستطع أن تقضى على هذه اللاتينية العامية قضاء مبرماً، وما غير أن ما حدً من انتشارها وجعلها تتراجع سببان:

الأول: أن كثيراً من أهل الأندلس من النصارى الذين كانوا يتكلمون بهذه اللاتينية العامية قد دخلوا الإسلام، لما لمسوه من تسامح المسلمين وعدم إكراههم على اعتناقه، ومن ثم سعوا إلى تعلم العربية لغة الدين الجديد.

الثانى: أن حركة إقبال الناس على اتخاذ العربية لساناً، لهم سواء من أسلم منهم أو لم يسلم،كانت فيما يبدو حركة واسعة وشديدة بلغت ذورتها فى القرن الثالث الهجري خاصة بين جيل المولدين،حتى أن الروايات تنسب إلى الفارو بطريك قرطبة شكوى مريرة من أبناء جلدته على اهتمامهم الشديد بالثقافة العربية والأدب العربى حتى نسوا لغتهم الأصلية[٢].

وسواء كانت هذه الرواية صحيحة أم غير صحيحة،فإن لها دلالتها غير المباشرة، لا على اتساع نفوذ العربية الفصحى فحسب، بل على أن لغة الحياة اليومية أيضاً أصبحت عربية،ممثلة فى هذه اللهجة العربية العامية، وأن عجمية أهل الأندلس قد انزوت بعيداً عن الحياة فى الأندلس، ومعنى هذا أن العربية الفصحى فى المساجد والدواوين وأروقة الحكم وفى الثقافة والأدب قد سادت،فى حين سيطرت أختها العامية على لغة الحياة اليومية، مما جعل هذه اللاتينية العامية التى كان يتكلمها أهل الأندلس تنحصر

---

(١) شوقى ضيف، المرجع السابق ١٢٩.
(٢) شوقى ضيف ص ١٣٢.

وتراجع إلى الإمارات المسيحية في الشمال، وربما في صورة جيوب وجزر لغوية معزولة، وسط بحر العربية الفصحى، وأختها العامية، ولعل هذا يفسر لنا استعمال بعض الوشاحين لهذه الخرجات التي كتبت باللغة العجمية في موشحات بالعربية الفصحى كما يفسر لنا أيضاً بعض الروايات التي ذكرها المؤرخون على أن بعض العرب كانوا يعرفون عجمية أهل الأندلس[1].

فقد ذكر الخشني (ت ٣٧١هـ) أن بعض قضاة قرطبة من العرب، كان يعرف هذه اللاتينية العامية. وهذه الأخبار التي ذكرها الخشني لا تدل على أن هذه اللغة كانت شائعة بين العرب بحيث يستخدموها في حياتهم اليومية، وإنما تدل على أن بعض العرب كان يعرف هذه اللغة ويفهمها ولكنه لا يستخدمها في حياته اليومية، كما تدل على أن القاضي الذي ذكره الخشني عندما فهم ما يريد الرجل الذي صاح عليه، لم يردّ عليه بنفسه، وإنما قال لمن حوله ممن يستخدمون هذه اللغة قولوا له بالعجمية[2] أي أنه كان يفهم اللغة ولكنه لا يستخدمها، وهو أمر شائع عند كثير من الناس الذين يفهمون لغة ما، ولكنهم لا يستطيعون استخدامها، كما يدل على أن هذه اللغة لم تكن شائعة بين العرب على النحو الذي ظنه بعض المستشرقين ورتبوا عليه نتائج غير صحيحة[3].

وأقصى ما يمكن أن نستخلصه من هذه الروايات أن العربية العامية كانت سائدة بجوار هذه اللهجة اللاتينية العامية التي قد يعرفها بعض العرب ولكن لا يستخدمونها في حياتهم اليومية، ومعنى هذا أنها لم تكن على هذه الدرجة من الشيوع على الأقل منذ القرن الثالث الهجري.

وأهل الأندلس في هذا، مثل غيرهم من الشعوب الإسلامية التي دخلتها العربية مع الفتح الإسلامي، حيث نجد أن الجماعات المثقفة فيها كانت تتمسك بالفصحى، وتتمثل أدبها وحضارتها وتشارك في الحياة الثقافية والعلمية بهذه اللغة الفصحى، وفي الوقت نفسه تستخدم مستوى

---

(١) قضاة قرطبة ص ٦٤.
(٢) قضاة قرطبة ص ٦٤.
(٣) د. شوقي ضيف المرجع السابق ص ١٣٠ - ١٣١.

لغوياً آخر هو العامية الدارجة،مثلها فى ذلك مثل العامة من حولها حيث نجد أن هذا المستوى العامى يحمل خصائص لغوية شبه ثابتة بين هذه الشعوب، من حيث إسقاط الإعراب، أو تغيير حركات الكلمة أو دلالتها وقد تنتقل بعض كلمات هذه اللغة العامية وتراكيبها إلى الفصحى، ولا يجد بعض الكتاب أو الشعراء حرجاً فى استخدامها ،مما جعل بعض علماء اللغة فى الأندلس يرصدون هذه التغيرات فى كتب لحن العامة حتى يتجنب الكتاب والشعراء استخدامها ،وكتاب أبى بكر الزبيدى كما سنرى فى القسم الثانى من هذا البحث خير شاهد على ذلك، وهذه العامية العربية هى التى نظم بها الزجالون زجلهم وهو تراث عربى أندلسى ضخم لا يتفوق عليه إلا ما أنتجته العربية الفصحى من تراث هائل ثقافى وأدبى وعلمى وفلسفى.

ومن هذا كله نخلص إلى أن الحياة اللغوية فى الأندلس قد استقرت خلال ثمانية قرون كاملة فى ظل الإسلام على مستويات لغوية واضحة تتمثل فيما يأتى:

١ - **العربية الفصحى** : منطوقة أو مكتوبة فى الدين والحكم والثقافة والأدب والعلوم والفنون،يستوى فى ذلك من أهل الأندلس من أسلم منهم أو من لم يسلم،والدليل على هذا؛ اليهود الذين تعربوا بالكامل، وغيرهم من النصارى الذين شاركوا فى هذه الحياة العلمية والثقافية والأدبية، والسياسية وأنتجت لنا هذه اللغة فناً عربياً أندلسياً هو الموشح.

٢ - **العامية العربية الأندلسية** : وهى لغة الحياة اليومية يستخدمها الجميع على الأقل منذ القرن الثالث الهجرى، وصورتها الراقية التى أنتجت لنا فناً عربياً أندلسياً هو الزجل.

٣ - **عجمية أهل الأندلس** : كما أطلق عليها العرب أو اللاتينية العامية أو الرومانسية، هى لغة أهل البلاد قبل الفتح والتى تراجعت إلى الإمارات المسيحية فى الشمال، وربما انحصرت فى الأندلس فى صورة جيوب وجزر لغوية معزولة وسط محيط واسع من العربيتين الفصحى والعامية، وتأثرت كثيراً بالعربية كما تأثرت من قبل بالقوطية فدخلتها

ألفاظ غير قليلة من العربية بطبيعة الحال نشأت عن هذا الصراع اللغوى بين العربية واللغات الأخرى فى الأندلس تغيرات لغوية صوتية وصرفية ونحوية ودلالية رصدها بعض علماء اللغة سواء على مستوى الفصحى أو العامية بحيث يمكن أن نستنتج منها بعض ملامح العربية كما نطق بها أهل الأندلس، وهو ما سنتناوله فى القسم الثانى من هذا البحث.

ثانياً: الملامح اللغوية لعربية الأندلس

كان انتشار العربية المكتوبة وسيطرتها على الحياة الدينية والعلمية والثقافية فى الأندلس أيسر بكثير من انتشار العربية المنطوقة كما أشرنا من قبل، ومع ذلك لم تخلُ هذه العربية المكتوبة من التغيرات التى ظهرت فى صورة أخطاء فى الكتابة وقع فيها بعض الكتاب بتأثير من العربية العامية التى كانت شائعة على ألسنة المتكلمين بالعربية من العرب وغيرهم من أهل الأندلس، غير أن نسبة التغيرات التى ظهرت فى العربية المكتوبة أقل بكثير من تلك التى ظهرت فى العربية المنطوقة، وكان هذا التغير الكثير فى النطق والقليل فى الكتابة، يعكس مظاهر الحياة اللغوية فى الأندلس، يطبع هذه التغيرات اللغوية بطابع خاص يجعلها تختلف عن التغيرات التى أصابت العربية على ألسنة الناطقين بها فى المشرق العربى.

وهو ما فطن إليه أبو بكر الزبيدى الأندلسى (ت ٣٧٩هـ) مؤلف كتاب «لحن العوامّ» أى عوام أهل الأندلس حين قال: إن لحن عامة الأندلس يختلف عن لحن عامة أهل المشرق، وإن كتب اللحن التى ألفها علماء المشرق لا تصور اللحن فى بيئة الأندلس ولذلك ألف كتابه هذا ليسجل فيه ما لم يذكره علماء المشرق «مما أفسدته العامة عندنا فأحالوا لفظه ووضعوه فى غير موضعه، وتابعهم فى ذلك الخاصة حتى وقع فى شعر الشعراء واستعمله بعض الكتاب فى رسائلهم وتلاقوا به فى محافلهم»[1].

---

(١) انظر الكتاب ص ٦ - ٨.

ومعنى هذا أن الزبيدى يسجل لنا فى هذا الكتاب مظاهر التغير التى طرأت على العربية المكتوبة والمنطوقة كما سمعها فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى بعد أن استقرت الحياة اللغوية فى الأندلس على هذه المستويات اللغوية التى أشرنا إليها من قبل.

ومصطلح «اللحن» الذى يستخدمه الزبيدى وغيره من علماء العربية فى المشرق والمغرب قديماً، مصطلح يدل على الخروج على أوضاع العربية الفصحى كما نطق بها العرب الخلّص بالسليقة قبل الفتح الإسلامى، واختلاط العرب بغيرهم من الأمم الناطقة بغير اللسان العربى، وكانت المعيارية Prescriptivism أى الحكم على الاستعمال اللغوى بالصواب أو الخطأ، هو منهج هؤلاء العلماء الغالب عندما يسجلون ما اختلف من نطق الشعوب غير العربية التى اتخذت من العربية لساناً بعد انتشارها فى البلاد المفتوحة، كانوا يرون فى أى تغير لغوى خطأ ولحناً.

وترجع هذه الأحكام إلى تصورهم غير العلمى أو الموضوعى لحقيقة التغير اللغوية وعلاقة اللهجات باللغة المشتركة،فأصحاب كل لغة أو لهجة سواء العربية أو غيرها من اللغات، يراعون دائماً مستوى صوابياً اجتماعياً خاصاً عندما يتكلمون، هذا المستوى يختلف باختلاف المجتمعات الناطقة بلغة ما أو لهجة ما، وكان المستوى الصوابى الذى يحتكم إليه هؤلاء، يختلف باختلاف المجتمعات، ومع ذلك فقد كان لهؤلاء لهجات خاصة معروفة ومشهورة ومن ثم سجل لنا هؤلاء العلماء التغيرات التى أصابت هذه العربية الفصحى أو اللغة المشتركة التى كان ينطق بها العرب الخلص قبل الإسلام من النواحى الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ولم يكن تسجيلهم هذا كاملاً بل اقتصروا على الشائع المتداول منها، أو ما سمعوه بأنفسهم كما فعل أبو بكر الزبيدى فى كتابه لحن عوام أهل الأندلس ومن ثم كان لهم فى ذلك موقفان واضحان، الأول، إنهم كانوا وصفيين Descriptive حينما كانوا يصفون التغيرات اللغوية كما وقعت، أما فى الموقف الثانى فكانوا معياريين Prescriptive حينما كانوا يردّون هذه التغيرات إلى المستوى الصوابى للفصحى، أو اللغة المشتركة التى كان يستخدمها العرب قبل الإسلام.

أما عن مفهوم العامة أو الخاصة فى كتبهم، فهو مفهوم متداخل مضطرب[1]. غير أن أبا بكر الزبيدى كان واضحاً، فهو ينطلق من وصف التغيرات التى وقعت على ألسنة الناس المتكلمين بالعامية العربية فى الأندلس، ثم تسربت هذه التغيرات إلى لغة بعض الكتّاب والشعراء وهو ما نص عليه صراحة فى مقدمة كتابه وأشرنا إليه من قبل.

ويؤكد ذلك أيضاً حديث ابن حزم عن بعض خصائص هذه العامية العربية الأندلسية فيقول إن العامية قد بدلت بعض ألفاظ العربية تبديلاً، وهو فى البعد عن أصل تلك الكلمة - أى فى اللغة الفصحى - كأنه لغة أخرى، فهم ينطقون الكلمات:

١ -- العنبُ ← العينب.

٢ -- السوّطْ ← أسطوط.

٣ -- ثلاثة دنانير ← ثلنثلدا[2].

كما يشير ابن حزم أيضاً إلى اختلاف هذه العامية من بلدة إلى أخرى فى الأندلس أحياناً فيقول: «ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط - وهى على بُعد ليلة واحدة من قرطبة - كاد أن يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة»، ثم يعلل لهذا الاختلاف نتيجة لعوامل لغوية واجتماعية بقوله «فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبدلاً لا يخفى على من يتأمله»[3].

وفيما يلى سنعتمد فى دراسة الخصائص الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية لعربية أهل الأندلس على ما سمعه ودونه أبو بكر الزبيدى فى كتابه لحن العوام[4].

---

(١) راجع: عبد العزيز مطر، لحن العامة، ص ٣٥ - ٤٠.

(٢) الإحكام ١/ ٣٠، وما قبل السهم يشير إلى النطق العربى الفصيح، أما ما بعده فيشير إلى نطق أهل الأندلس.

(٣) الإحكام، ١/ ٣١ - ٣٢.

(٤) حقق هذا الكتاب ونشره د. رمضان عبد التواب عام ١٩٦٤، ودرس مخطوطة الكتاب من الناحية اللغوية د. عبد العزيز مطر ضمن دراسته لبعض كتب لحن العامة ونشر هذه الدراسة عام ١٩٦٧، وقد أفدت من دراسته تلك فى هذا القسم من البحث (انظر الكتاب ص ٩٠ - ١٢٢) غير أننى سأعتمد على النسخة التى حققها ونشرها رمضان عبد التواب وهى التى أشرت إليها فى هوامش هذا البحث من قبل.

١ - المستوى الصوتى :

تتألف أصوات أى لغة من نوعين من الأصوات، الأصوات الصامتة Consonants والأصوات الصائتة Vowels وهى تختلف فيما بينها من حيث طبيعتها النطقية والسمعية، والأصوات الصامتة فى اللغة العربية هى جميع الأصوات ما عدا ستة أصواتهي الصائتة، وتنقسم إلى صوائت قصيرة Short Vowels، وهى الفتحة والضمة والكسرة، وصوائت طويلة Long Vowels وهى الألف فى مثل «قال»، اليا ء فى مثل «قيل» والواو فى مثل «بكور»، أى أن الهمزة والبا ء والتا ء والثا ء... إلخ فى اللغة العربية هى الصوامت، فى مقابل الصوائت القصيرة والطويلة التى أشرنا إليها[١].

وغالباً ما يصيب التغير فى النطق كلا النوعى من هذه الأصوات غير أن هذا التغير يختلف نظراً لطبيعة كل نوع منها، فالصوامت مثلاً تتغير غالباً عن طريق إحلال صوت محل صوت أخر يشبه أو يقترب منه فى النطق، سواء كان من ينطق بهذا ابن اللغة Native Speaker أو أجنبى عنها، وغالباً ما ينقل الصوت إلى صوت قريب منه فى لغتُه أو يبدله بصوت آخر مثال ذلك تحويل أو نطق الصاد فى العربية سيناً أو زاياً، والقاف همزة، كما فى العامية المصرية، أما الصوائت فقد تتغير بتحويل الصائت القصير إلى صائت طويل أو العكس، أو إبدال الفتحة بكسرة، وغير ذلك من التغيرات التى سنعرض لها فيما بعد من خلال ما سجله أبو بكر الزبيدى عن لحن عوام أهل الأندلس.

ويطلق علماء اللغة المعاصرون على هذه الأصوات جميعاً الصوامت منها والصوائت مصطلح «الفونيم Phoneme»، والعلم الذى يدرس هذه الفونيمات وما يطرأ عليها من تغيرات قد تؤدى أحياناً إلى اختلاف المعنى علم: «الفنولوجيا Phonology»[٢].

---

(١) راجع، حلمى خليل. مقدمة لدراسة اللغة ص ٢١٤ - ٢٣

(٢) حلمى خليل. مقدمة لدراسة اللغة ص ٢٢٤

وقد سمع الزبيدى من المتكلمين بالفصحى أو العامية فى الأندلس كثيراً من هذا التغيرات، بعضها لم يؤد إلى اختلاف المعنى والآخر غيّر معانى الكلمات والعلة الغالبة على هذه التغيرات الفنولوجية فى عربية الأندلس هى تقارب مخارج بعض الأصوات أو اشتراكها فى المخارج والصفات، أو لأن بعض هذه الأصوات لا توجد فى اللغة الأصلية للمتكلمين بالعربية فى الأندلس، أو غير ذلك من أسباب لغوية واجتماعية تتصل باللغة أحياناً، وهو ما يميز عربية أهل الأندلس عن غيرها من اللهجات العربية الأخرى، وفيما يلى سنتناول هذه التغيرات ونعلل لها على النحو الآتى:

أولاً: الصوامت Consonants

لعل أهم ما يميز الصوامت عن الصوائت أن الصوامت لها موضع نطق أو مخرج Point of Articulation بالإضافة إلى صفات أخرى مثل الاحتكاك أو الانفجار أو الإطباق... الخ[1].

ووقوع الإبدال بين الصوامت المختلفة أمر شائع فى اللغات واللهجات، وقد لاحظ علماء العربية القدماء هذه الظاهرة وعللوا لها، كما درسها علماء اللغة المعاصرون واستخرجوا من هذه الدراسة قوانين عامة تخضع لها عملية الإبدال وتختلف الأسباب التى تدعو المتكلم أحياناً بلغة ما إلى الإبدال لكنها قد تتحدد فى كثير من اللغات بالنظر إلى تجاور الأصوات أو غير ذلك من الأسباب كما سنرى فيما بعد، وقد وقع التغير فى عربية أهل الأندلس فى الصوامت والصوائت معاً فى كلمة واحدة، أو فى الصوامت وحدها، أو فى الصوائت وحدها، وسنحاول فيما يأتى تفسير ذلك من خلال أمثلة مما نطق به الأندلسيون:

١ - الإبدال بين الأصوات الشفوية (ب) و(م):

الباء صوت شفوى انفجارى مجهور، والميم صوت شفوى مجهور أغن، أى أن هذين الفونيمين فى اللغة العربية يشتركان فى المخرج أو موضع

---

(١) حلمى خليل، المرجع السابق ص ٢٢٤.

موضع النطق فهى سنية انفجارية مجهورة،أى أن كلاً من الصوتين يشترك فى موضع النطق ويختلفان فى الصفة فالتاء مرققة والطاء مفخمة وكثيراً ما نسمع فى اللهجة المصرية ما ترقق فيها الطاء، فتحول إلى تاء خاصة على ألسنة أهل المدن مثل القاهرة والاسكندرية والنساء منهم خاصة.

وعلى هذا النحو نطق أهل الأندلس «كُسْطْ» لنوع من البخور: «كُستْ» بإبدال الطاء تاءً والصواب هو النطق الأول[1].

وفى نطاق هذا النوع من الصوامت نجد الإبدال يحدث أيضاً بين صوتى [ط] و [د]، والطاء كما رأينا من قبل صوت سنى انفجارى مجهور، أما الدال فهى صوت سنى انفجارى مجهور أيضاً أى متحدان فى المخرج والصفة غير أنهما يختلفان فى أن الطاء مطبقة والدال مرققة.

ولهذا القرب نطق العامة من أهل الأندلس كلمة «جُخْتب» وهو اسم لدويبه تألف الماء، نطوقها «جُحْطب» بإبدال الدال طاءً، والصواب هو النطق الأول[2] كما قالوا «قُنْفُط» بدلاً من «قنقد» الحيوان المعروف[3].

٥ - **الإبدال بين الأصوات الأسنانية اللثوية: (د) و (ذ):**

تتفق الدال والذال فى صورة الكتابة وتختلفان فقط فى إعجام الذال ولذلك فإن احتمال وقوع التصحيف بينهما راجح، غير أن الإبدال - قد يقع بينهما من الناحية الصوتية، فالدال، كما عرفنا من قبل - صوت سنى انفجارى مجهور، أما الذال فهى تنطق مما بين ثنايا احتكاكى مجهور، وتنطق أحياناً مع بعض الانفجار، أى أن الصوتين يشتركان فى المخرج والانفجار وهو ما يفسر نطق العامة فى الأندلس لكلمة «جَرَذ» بالذال لمرض الدابة فى عرقوبها، فيبدلون الذال دالاً وينطق «جرد» والنطق الأول هو الصواب[4]، كما ينطقون «تَذَعذَع» البناء أى تدافع فيبدلون الذال دالاً وينطقنها «تَدَعْدع»[5].

---

(١) المصدر السابق ص ٩١.
(٢) لحن العوام، مقدمة المؤلف، ص ٨ ص ٥٩ - ٦٠.
(٣) لحن العوام، ص ٦١.
(٤) لحن العوام، ص ٩٦.
(٥) لحن العوام، ص ١٣٩.

٦ - الإبدال بين أصوات (ر) و (ل) و (ن):

لاحظ الخليل بن أحمد الفراهيدى (ت ١٧٥هـ) كما لاحظ علماء اللغة والأصوات فى العصر الحديث أن هذه الأصوات الثلاثة ترتبط فيما بينها بعلاقة خاصة، فهى من أكثر الأصوات شيوعاً فى العربية وفى اللغات الأخرى أيضاً، وهى تشبه من حيث صفاتها ونطقها الأصوات الصائتة Vowels ولذلك كثيراً ما يحل الواحد منها محل الآخر، أى تتبادل فيما بينها[١] من هذا النوع من الإبدال ما وقع فى لغة أهل الأندلس فى قولهم «قَسْطال» باللام بدلاً من «قسطار» بالراء للرجل الذى يميز الجيد من الزائف من الدراهم[٢] والثانى هو الصواب، كما نطقوا «قَرَسْطُون» أى الميزان العظيم «قَلَسْطون» أبدلت الراء لاماً والصواب الأول[٣].

كما يقولون فى الإبدال بين اللام والنون «زوال» اسم حبة تكون فى الحنطة والصواب «زؤان»[٤] بالنون مع الهمزة التى يخففونها والتخفيف سمة غالبة على نطقهم كما سنرى فيما بعد.

وفى الإبدال بين النون والميم يقولون لنوع من الديدان «حُلْزوم» بالميم والصواب «حُلْزُون» بالنون[٥].

٧ - الإبدال بين (س) و (ص):

السين والصاد يتبادلان فيما بينهما كثيراً فى العربية الفصحى لأنهما من مخرج واحد ولهما صفات واحدة، غير أن الإطباق فى الصاد يميز بينهما، ولذلك سُمع عن العرب أن كلمة «الصقر» الطائر المعروف تنطق أحياناً «السقر» بالسين وفى القرآن الكريم تقرأ كلمة «السراط» بالسين كما تقرأ بالصاد أيضاً «الصراط».

وكل هذا يفسر لنا نطق العامة من أهل الأندلس لكلمة «جصْ» إذ

---

(١) انظر حلمى خليل، التفكير الصوتى عند الخليل، ص ٥٢.
(٢) لحن العوام، ص ٧١.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٢.
(٤) المصدر السابق ص ١٦٨.
(٥) المصدر السابق، ص ١٩٢.

ينطقونها «جبس» بإبدال الصاد سيناً مع إضافة الباء[1] كما نطقوا «صابور» وهو شئ يُثقلُ به المركب فى الماء «سابور» بالسين[2].

٨ - الإبدال بين (ج) و(د):

وذلك فى قولهم «الدَّشيش» لما يطحن من البرْ وغيره، والصواب «الجشيش» أبدلوا الجيم دالاً[3] كما فى لهجة بعض أهل صعيد مصر حينما ينطقون كلمة الجيش «الديش» مع إمالة الفتحة نحو الكسر، ومثل ذلك اسم مدينة جرجا ينطقونها «داردا»، وذلك لأن الجيم والدال من مخرجين قريبين، وصوت الجيم صوت مركب ويسمع فى بعض لهجات اليمن مثل الجيم القاهرية ويقال أن هذه لغة القحطانية، أما العدنانية فينطقونها كما جاءت فى القرآن الكريم، وهى صوت يشترك فيه أكثر من عضو من أعضاء النطق فهو كما وصفه علماء اللغة صوت لغوى حنكى احتكاكى انفجارى مجهور[4] ويبدو أن ذلك هو السبب فى إبدالها بالدال لقرب المخرج ولصعوبة النطق بها.

٩ - الإبدال بين (ق) و(ك):

القاف صوت لهوى انفجارى مهموس مطبق، والكاف أقرب الأصوات مخرجاً من القاف فهى من أقصى الحنك وانفجارية ومهموسة أيضاً والصفة الفارقة بين القاف والكاف هى أن القاف مطبقة والكاف مرققة ولذلك نجدها فى بعض لهجات أهل فلسطين يبدلونها بالكاف فى مثل «قال» ينطقوَن «كال» لولا سياق الكلام لتداخلت دلالتها مع الفعل كال من الكيل وغالباً ما يحدث الإبدال بين القاف والكاف بإبدال الأولى بالثانية لأن الإطباق فى القاف يحتاج إلى جهد أكبر ويبدو أن هذا ما وقع فى لغة العامة من أهل الأندلس.

يقولون فى «حُقٌ» إناء توضع فيه الحلى والعطور «حُكّة» بإبدال القاف

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٤.
(٢) لحن العوام، ص ١٩٣.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٠.
(٤) حلمى خليل، مقدمة لدراسة اللغة ص ٢١٩.

كافاً مع التاء التى تظهر كهاء للتوقف عن النطق عندها، كما يبدلون ضمة القاف فتحة على الكاف[1].

وينطقون كلمة «تُرْقوَة» أى العظم المشرف على الصدر «تركُوَة» بإبدال القاف كافاً[2] غير أن الزبيدى يذكر أمثلة أخرى مخالفة لذلك يبدلون فيها الكاف قافاً مثال ذلك عندما ينطقون كلمة «كَبَرَ» اسم نبات ينبت فى القيعان وأسافل الجبال، ينطقونها «قُبّار» أى إبدال الكاف قافاً مع تحويل الحركة القصيرة التى على الباء فى «كَبَر» بعد تشديدها إلى حركة طويلة وتغير فتحة الكاف ضمة على القاف[3] وكل هذه التغيرات فى الصوائت من القصر إلى الطول مع تطويل الصامت أيضاً الباء يمكنهم من نطق الكاف المطبقة.

كذلك يقولون لخادم الرّحى «مقّاس» والصواب «مكّاس»[4] كما ينقطون «كُوب» «قَبٌّ» بإبدال الكاف قافاً[5] وربما كان ينطق على هذا النحو بعض المتفاحصين ليغايروا بين نطقهم ونطق العامة[6].

١٠ - الإبدال بين (خ) و (غ):

الخاء صوت حنكى قصى احتكاكى مهموس، والغين صوت حنكى قصى احتكاكى مجهور، أى موضع النطق واحد وكلاهما احتكاكى، وما يفرق بينهما هو الهمس مع الخاء والجهر مع الغين لذلك يحدث الإبدال بينهما أى أن نطق الغين خاء هو تحويل الجهر فيها إلى الهمس والعكس فى نطق الخاء.

وهو ما يفسر قول عامة الأندلس للركاب من الجدل «خَرْز» بالخاء بدلاً من «غَرْز» بالغين[7].

---

(١) لحن العوام، ص ٦٨.
(٢) المصدر السابق ص ١٣٢ - ١٣٣.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٣.
(٤) المصدر السابق ص ١٧٠.
(٥) المصدر السابق، ص ١٨٦.
(٦) عبد العزيز مطر، لحن العامة، ص ٢٣٩.
(٧) عبد العزيز مطر، لحن العامة، ص ٢٣٩.

١١ - الإبدال بين (ع) و (ء):

صوت العين حلقى احتكاكى مجهور، أما الهمزة فهو صوت حنجورى انفجارى مجهور، ومخرج الهمزة الحقيقى ليس من الحنجرة وإنما نسبت إليها فقط أما موضع نطقها ومخرجها فمن بين الوترين الصوتيين Vocal cords.

ومن المعروف أن أبناء اللغات الأخرى التى تخلو من صوت العين يصعب، عليهم نطق هذا الصوت، وغالباً ما يتحولون به إلى أقرب الأصوات إليه فى لغتهم فيما يشبه الهمزة العربية أو قريباً منها.

وقد نقل الزبيدى قول عامة أهل الأندلس قولهم: «مفقوع العين» والصواب «مفقوء» بالهمزة من فقأت عينه و«أنطاء» فى «انطاع» جمع «نطع».

على هذا النحو رأينا أن الإبدال يقع على ألسنة أهل الأندلس كما يقع على ألسنة غيرهم من أصحاب اللهجات العربية حتى اليوم والقانون العام الذى يحكم هذا الإبدال هو قانون الجهد الأقل أو التماس السهولة والتخفيف وهو خصيصة من خصائص العاميات من حيث الفرار من النطق الأصعب إلى الأسهل، ولذلك نجد أن حركات الإعراب تختفى من معظم العاميات العربية طبقاً لذلك كما سنرى فيما بعد.

ننتقل بعد ذلك إلى الشق الثانى من الأصوات العربية وهو:

ثانياً : الصوائت Vowel :

الصفة المميزة لنطق الصوائت تقوم على شكل ممر الهواء المفتوح فيما فوق الحنجرة وهذا الممر يكوّن صندوقاً من الرنين يغير من الطبيعة السمعية للصوت الناتج عن ذبذبة الوترين الصوتيين، فالأشكال المختلفة التى يتخذها هذا الممر تغير من وقع الصوت فى الأذن ولذلك نسمع أصواتاً متمايزة، وبناء على ذلك حدد علماء اللغة الصوت الصائت بأنه صوت مجهور لا يسمع عند إنتاجه احتكاك أو انفجار ولا يحدث له اعتراض من أعضاء النطق، واللسان والشفتان هما العضوان الأساسيان اللذان لهما دخل كبير فى تلوين الصوت Coloring[1].

---

(١) حلمى خليل، مقدمة لدراسة اللغة، ص ٢٢١.

والصوائت فى اللغة العربية هى: الفتحة والضمة والكسرة وهى تمثل الصوائت القصيرة Short Vowels أما الصوائت الطويلة فهى التى أطلق عليها علماء العربية القدماء أصوات المد واللين،والصوائت الطويلة Long Vowels هى الألف فى مثل باع والياء فى مثل بيع، والواو فى يبيعون.

وأهم ما يلاحظ على نطق الصوائت فى عربية الأندلس كما وصفها الزبيدى فى كتابه لحن العوام ما يأتى:

١ - ميل الناطقين بالعربية من أهل الأندلس إلى إطالة الصوائت القصيرة، فتحول الفتحة إلى ألف، والضمة إلى واو، والكسرة إلى ياء.

مثال فى إطالة الفتحة:

ينطقون: عَرْعر - عرعار، بَرْوق - برواق، كَبَر - قبّار - قدوم - قادوم، وغير ذلك كثير.

ومن أمثلة إطالة الضمة:

ينطقون: عُشّ الطائر - عوش، ولبان - لوبان.

ومن أمثلة إطالة الكسرة قولهم: الطِّراز - الطِّيراز، التلاد - التيلاد، والثمار - الثيمار، الطِّحال - الطيحال، والإكاف - الإيكاف.

وقد أولعت العامة فى الأندلس بإقحام الياء فى مثل ذلك كما يقول الزبيدى،وأحياناً ينطقون بعكس هذه الظاهرة،أى تقصير الصائت الطويل، وهو قليل: ماعدا - معدا.

٢ - تحريك وسط الاسم الثلاثى الساكن فى حالة الوقوف بالفتحة إن كان على وزن فَعل مثال ذلك: أمر وقَصْر ورَمْل وسَمْن وبَقْل.

٣ - التخلص من الصائت الطويل المركب Diphtong(ai) فى مثل الغيرة والقيح والميتة إلى كسرة طويلة مثل الغيرة والميتة.

٤ - إمالة الفتحة نحو الكسرة فى مثل خُبّار - خُبّير.

٥ - الميل إلى الإنسجام الصوتى بين الصوائت الطويلةVowel Harmony

وذلك حين ينطقون صيغة مِفعَل بكسر الميم وفتح العين تتحول إلى مَفعِل بفتحها طلباً للانسجام الصَوتى بين الصوائت.

ومن أمثلة ذلك قولهم مقْود، مَنْجَم - مَقْنَعة ومَخَدْة، ومَزْرَعة ومَطرد والصواب فيها جميعاً كسر الميم.

وكذلك يُعزى إلى ذلك أيضاً قولهم:

منكَب - أو مَنكِب، ونرجِس - نرجَس، لون مُشرب - مَشرب ورجل مُقعد - مَقعد.

ومن ذلك أيضاً قولهم: قرنفل- قُرنْفل، السَّيكُران-اليكَران - خَيْزُران، بسِطام - بَسطام[1].

٢ - المستوى الصرفى:

ويتصل بالتطور فى صيغ الكلمات وأوزانها سواء كانت فعلاً أو اسماً حيث ينطقون ببعضها على غير طريقة العرب فى الكلام:

١ - فيقولون فيما كان من الأفعال الثلاثية المعتلة على مثال ما لم يُسم فاعله، بإلحاق الألف فيبنونه على «أفعل» نحو:

أبِيع الثوب، وأقيم على الرجل، وأضيف، وأديرَ به،وأسيرَ به والصواب فى هَذا إسقاط الهمزة أى بيع الثوب، وضيف الرجل، ودير به، وقيم عليه وسير به.

فإذا أخبرِت عن نفسك أنه فُعلَ ذلك بك قلت: بُعْتُ وخُفتُ والعامة تقول: أبعتُ، وأخفتُ[2].

٢ - صيغة اسم الآلة «مِفْعَل» تطورت عندهم إلى مَفْعَل كما أشرنا فى الحديث عن الانسجام الصَوتى.

٣ - يخلطون فى اسم الفاعل بين ما كان من الفعل الثلاثى وما كان من الفعل الرباعى فيقولون:

---

(١) انظر د. عبد العزيز مطر، لحن العامة ص ١٠٨ - ١٠٩.
(٢) الزبيدى، لحن العوام ص ٢٠٤ - ٢٠٥، وانظر أيضاً د. عبد العزيز مطر لحن العامة ص ١٠٨.

أنت مُعزِم على كذا، والصواب عازم، وتاجر مُربِح ومُخسِر والصواب رابح وخاسر.

وعكس ذلك فى قولهم: يا غايث المستغيثين والصواب مغيث، ودابة طايقة، والصواب مطيقة.

وفى اسم المفعول يحدث ذلك أيضاً فيقولون مبطول اليد، والصواب مُبَطل، وموسوع عليه، والصواب مُوسع عليه.

٤ - الخلط بين صيغتى اسم الفاعل واسم المفعول أحياناً، يقولون: مذهول العقل، ومخمول، ويوم مهول، والصواب: ذاهل وخامل وهائل.

٥ - يوجد فى عربية الأندلس صيغة من صيغ الجمع لا توجد فى اللغة العربية، وهى صيغة «أفْعلَه» بفتح الهمزة والعين.

يقولون: أجِنّة فى جمع جنان، الجنة أو الحديقة، كما يقولون: أقفزه جمع قفيز، وهى صيغة انفرد بها أهل الأندلس وليست من صيغ الجمع فى العربية.

٦ - الجمع على وزن فِعلان بكسر الفاء، أو فُعْلان بضم الفاءُ، ويفرقون بينه وبين المفرد بالتاء.

ومثال ذلك قولهم: ذبان وذِبّانة، وصبئان وصبئانة، وأدمان وإدمانة، ومصران ومصرانة.

والصواب فى كل هذا: ذُبانة وصؤابة وأدمان، وذلك وجدت مفردات جديدة فى عامية الأندلس لا نجدها فى العربية الفصحى[1].

٣ - المستوى النحوى:

يصيب التغير اللغة صوتياً وصرفياً ونحوياً ودلالياً، غير أن علماء اللغة قد لاحظوا أن هذا التغير يختلف باختلاف المستويات اللغوية لا من حيث طبيعته فحسب بل من حيث درجة التغير والشيوع.

---

(١) الزبيدى، لحن العوام ٣١ - ٣٥ وانظر أيضاً عبد العزيز مطر. لحن العامة ص ٩ ١

ولعلنا قد لاحظنا مما سبق - أن هذا التغير على المستوى الصوتى وقد أصاب، مساحة واسعة فى أصوات العربية؛ الصوامت منها والصوائت، ومثل ذلك على المستوى الدلالى كما سنرى فيما بعد.

فى حين وجدناه على المستوى الصرفى أقل من ذلك، وانحسر فى عدد من الصيغ والأوزان وقد يؤدى أحياناً - كما رأينا فى عربية الأندلس - إلى خلق صيغ جديدة.

أما عن المستوى النحوى فالتغير عادة ما يكون بطيئاً ،ذلك لأن تخلى اللغة عن طريقتها فى التركيب بصورة مطردة قد يؤدى فى النهاية إلى موتها ، ولعل هذا يفسر قلة عدد الملاحظات التى ذكرها الزبيدى فى كتابه لحن العوام حول التراكيب النحوية أو تراكيب بعض الجمل.

ويفسر علماء اللغة السرعة التى يحدث بها التغير على المستوى الصوتى بأن المتكلمين بأى لغة يميلون بصورة عامة إلى توخى السهولة واليسر فى النطق، وهو قانون عام يحكم معظم اللغات لذلك يطرأ كثير من التغير على المستوى الصوتى أسرع منه على المستويين الصرفى والنحوى،أما المستوى الدلالى فيشترك مع المستوى الصوتى فى سرعة التطور والتغير، وإذا جاز لنا أن نقول إن لكل لغة شخصية، فشخصية اللغة تظهر على المستويين الصرفى والنحوى بصورة أدق، ولذلك لا تفرط اللغة فيهما إلا بعد صراع طويل ويكون ذلك إذا حدث إيذاناً بموتها .

وفيما يتصل ببعض التغيرات النحوية نجد فى عربية الأندلس تراكيب مثل:

١ - يقولون: «هذه صنعة ذاته» و «هو مباين لذاته» وهى جمل أو عبارات وقعت على ألسنة طبقة من العلماء والفقهاء فى الأندلس، كما لاحظ الزُّبيدى ومع ذلك يرى علماء العربية القدماء فيها خروجاً على أوضاع العربية الفصحى،إذ لا يجوز أن تلحق أداة التعريف أى الألف واللام لفظ «ذو» أو «ذات» ، سواء فى حالة الإفراد أو التثنية أو الجمع ، كما لا تضافان أيضاً إلى المضمرات، وإنما تقع دائماً مضافة إلى الاسم الظاهر.

فلا يقال فى العربية الفصحى: «الذو» ولا «الذوان» ولا «الذات» ولا «الذوات» ولا «ذوك» ولا «ذوه» ولا «ذواتها»، ومن ثم لا يصح أن تقول «مررت بذاتك» أو «ذاته» وينسب الزبيدى هذا الخروج على أوضاع الفصحى، إلى أهل الكلام وأكثر المحدثين من الشعراء والكتّاب والفقهاء وأهل النظر، ولكن بعض هذه الاستعمالات لا زالت حتى الآن تجرى على ألسنة بعض المثقفين والفلاسفة والصواب أن تقول «ذو المال» و «ذات النطاقين»[(١)].

٢ - يقولون «اللهم صلِّ على محمد وآله» ولا تستعمل «آل» مضافة إلى المضمر وإنما إلى الظاهر، وما زالت تُسمع أيضاً حتى اليوم، والصواب: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد»[(٢)].

٣ - ويقولون «وهبت فلانا مالاً» والصواب: «وهبت لفلان مالاً»؛ لأن الفعل (وهب) لا يتعدى إلا بحرف الجر، وهو فى ذلك بمنزلة مررت[(٣)].

٤ - ويقولون «نحو أخفش» و«شعر أخطل» والصواب «نحو الأخفش» و«شعر الأخطل»؛ إذ لا يجوز طبقاً لأوضاع العربية الفصحى حذف الألف واللام من هذه الأسماء، ولا من أمثالها، لأنها صفات لقوم معروفين، ويقول الزبيدى إن بعض العامة قد أولعت بذلك وكذلك كثير من الخاصة[(٤)].

٥ - ويقولون: «أتيت هى الأيام» و«قعدت فى هو المكان»، والصواب «أتيت تلك الأيام» و«قعدتُ فى ذلك المكان»، لأن هذه المواضع فى مثل هذا التركيب ليست مواضع الضمائر، إلا إذا أكدت بها؛ حيث تقع للمجرور والمنصوب، مثال ذلك تقول «رأيته هو» و «مررت بك أنت»[(٥)].

٦ - ويقولون للأمر الذى يشك فيه «ما أشك» لأن ما نافية للشك، والقائل يريد أن يقول إنه «يشك» فاختلف المعنى وناقض الواقع، والصواب «أشك» والنفى «ما أشك»[(٦)].

---

(١) الزبيدى، لحن العوام ص ١٢ - ١٤
(٢) المصدر السابق ص ٢٥٢
(٣) المصدر السابق ص ١ ٢
(٤) لحن العوام، ص ٢٥٢
(٥) المصدر السابق. ص ٢٥٢
(٦) المصدر السابق ص ٥٢٧

٧ -- يقولون: «ما رأيتهُ مُذْ أوّل أمس» يقصدون اليوم الذى قبل أمس، والصواب «ما رأيته مُذْ أول أمس» والعرب تقول: «ما رأيته مذ أمس» فإن لم تراه يوماً تقول «ما رأيته من أول من أمس»[١].

٨ -- يقولن «سيّما أخوك»فيسقطون (لا)، والصواب:لا سيما، ويقول الزبيدى إن جماعة من الكتّاب والشعراء والأدباء يفعلون ذلك كثيراً[٢].

وقد لاحظ د. عبد العزيز الأهوانى فى دراسته القيمة عن الزجل فى الأندلس أن عامية الزجل تقدم بعض الملامح اللغوية للتراكيب النحوية اختص بها هذا الفن ولكنها تصور أيضاً جوانب من لغة العامة فى الأندلس، مثال ذلك:

١ - الفعل كان يدخل أحياناً على الفعل المضارع التالى له فينحتون منهما فعلاً «كيقول» أى (كان يقول).

٢ - أداة النداء «يا» تستعمل لغير النداء فى الزجل ويبدو أنها كذلك فى العامية الأندلسية حيث تفارق معنى النداء، فتكون طرفاً للدلالة على الحال: مثال ذلك «يا أنا تائب» أى «أنا تائب حقاً» وهى فى الأسبانية ما زالت بهذا المعنى حتى اليوم(ya).

٣ - تستعمل (يدّ) بتشديد الدال أو تسكينها لتؤدى معنى «أيضاً» فى بعض الحالات، ومن الظروف المستخدمة فى الزجل «ذاب» و «داب» بدون إعجام ومعناها «الآن».

ولفظ «عاد» فى قولهم «لم أفعل هذا عاد» أى لم أفعله بعد، أو كما يقول الزبيدى هى بمعنى «الآن»، والصواب «لم أفعل هذا بعد» لأن عاد اسم قبيلة[٣].

ويبدو أن استعمال عامية الأندلس يشبه استعمال عامية صعيد مصر للفظ «عاد» فى بعض التراكيب، كما تستعمل كلمة «بحال» فى عامية الأندلس بمعنى «مثل» أو «شبه» وكذلك لفظ «بحل».

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٦
(٢) المصدر السابق، ٢٧٨
(٣) لحن العوام، ص ٨٣

٤ - تساوى عامية الأندلس بين المذكر والمؤنث فى صيغة فعل الأمر فيستخدمون مثلاً الفعل «قُلْ» للجنسين، كما يستخدمون الفعل المضارع «نقول» بمعنى «أقول» أى إبدال الهمزة نوناً(١).

ولا شك أن الزجل الأندلسى يحتاج إلى دراسة لغوية مفردة تلقى مزيداً من الضوء على عامية أهل الأندلس وخصائصها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية.

٤ - المستوى الدلالى:

تطورت دلالة الكلمات فى عربية الأندلس تطوراً واسعاً، نتيجة لأوضاع لغوية واجتماعية وبيئية انفردت بها الأندلس عن بقية البلدان التى دخلتها العربية، ولذلك استعمل أهلها كثيراً من الكلمات العربية بدلالات أخرى غير تلك التى استعملت بها فى العربية الفصحى، وهو ما لاحظه الزبيدى وأشار إليه فى موضع خاص من كتابه تحت عنوان «ما وضعته العامة فى غير موضوعه»(٢).

ويفسر هذا التغير الدلالى فى الكلمات التى استعملها الأندلسيون قوانين عامة تخضع لها اللغات استنبطها علماء اللغة وهى:

١ - تخصيص المعنى:

وذلك عندما تكون دلالة اللفظ عامة مثل «الصوم» فمعناه العام «المنع» مطلقاً سواء عن الطعام أو الشراب أو غيره، ولكن الشريعة الإسلامية خصصت هذا المعنى بالصيام فى شهر رمضان عن الطعام والشراب من الفجر حتى غروب الشمس.

وقد استعمل القرآن الكريم الدلالتين معاً فى مواضع مختلفة، فقال على لسان مريم ﴿ إِنِّي نذرت للرَّحْمنِ صوْماً فلَنْ أُكلِّم الْيوْم إنسيًّا ﴾(٣) أى

---

(١) د. عبد العزيز الأهوانى. الزجل فى الأندلس. المقدمة ص (ز - ط).
(٢) لحن العوام ص ٦ ٢ وما بعدها.
(٣) مريم. ٢٦

الامتناع عن الكلام أما بالمعنى الخاص فكان فى قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيام ﴾[1] وطبقاً لهذا القانون استعمل العامة من أهل الأندلس كلمات كثيرة منها على سبيل المثال:

يقولون «الوادى» للنهر خاصة، والوادى كل بطن مطمئن من الأرض، وربما استقر فيه الماء ويطلقون اسم «الآس» خاصة على الريحان، الريحان أعم إذ يدل على كل نبت طيب الريح كالورد والنُعنُع والنّمام، ويخصون اسم «اللحاف» للغطاء يكون على الأسرة واللحاف كل ما التحف به من ثوب أو رداء أو كساء، وفى العامية المصرية هو ما يتغطى به النائم.

ويقولون لضرب من سباع الطير: «صقر»، والصقر كل ما صاد من سباع الطير كالشواهدين والبزاة، ويطلقون لفظ «الخمار» على ما تغطى به المرأة رأسها من شقاق الحرير خاصة، والخمار يشمل كل ما غطت به المرأة رأسها من ثوب أو غيره، ويقولون «بحر» لما كان ملحاً خاصة والبحر للعذاب والمالح، ويقولون للثوب من الوشى: «حلة»، والحلة للإزار والرداء معاً يقولون لكف الإنسان إلى معصمة يد. واليد اسم جامع للأصابع والكف والذراع، ويستعملون لفظ «الإسكاف» للخرز خاصة وكل صناع عند العرب إسكاف، وهناك أمثلة أخرى كثيرة فى الكتاب على هذه الظاهرة[2].

٢ - تعميم المعنى:

وهو عكس القانون الأول، وذلك عندما تكون دلالة الكلمة خاصة ويستعملها المتكلمون باللغة فى الدلالة على معنى عام، مثال ذلك فى العربية الفصحى كلمة «البأس» التى تدل على الحرب خاصة، ولكن الاستعمال بعد ذلك وسع المعنى وعممه فأصبح يدل على كل شدة أو كما نقول نحن اليوم «ورد» الورد نوع خاص من الزهور، لكننا نعممه على جميع الزهور.

---

(١) البقرة: ١٨٣

(٢) لحن العوام ص ٢٤ - ٢٤٢، ٢٤٦ - ٢٤٧، ومواضع أخرى وانظر أيضاً د. عبد العزيز مطر. لحن العامة ص ١١

وبناء على ذلك استعمل عامة أهل الأندلس الكلمات التالية بعد تعميم دلالتها وكان لها فى العربية معنى خاص، من ذلك مثلاً:

(الاستحمام) يطلقونه على ما كان بالماء الحار أو البارد، والاستحمام خاص بالماء الحار، وهكذا نفعل فى العامية المصرية.

ويعممون دلالة عجز عن الشئ فيعبرون به وإن كان المرء يستطيع القيام به، والعجز خاص بحالة الضعف عن الشئ وعدم القدرة عليه، والصواب فى حالة الاستطاعة أن يقال (كسل).

ويعممون دلالة «الباع» بحيث يشمل أوسع الخطأ وهو خاص بما بين يدى الأنسان[1].

٣ - نقل المعنى أو تحويله:

ويحدث ذلك بسبب من *العلاقات المجازية أو المشابهة*، وينشأ ذلك خلال الاستعمال فى عصر واحد أو بالمقارنة بين عصر وعصر فى الاستعمال، مثال ذلك كلمة «المذياع» فى العربية القديمة تدل على: «الرجل لا يكتم سراً» يقال هو «رجل مذياع»، ونحن الآن نَستعملها للدلالة على «الراديو» والعلاقة هى المشابهة، وكذلك كلمة «القطار»، قديماً كانت تدل على الإبل الواحد منها يسير وراء الآخر، وهى الآن تطلق على قطار السكك الحديدية للتشابه بين قطار الإبل وعربات القطار.

وفى هذا المجال استعمل عامة أهل الأندلس الكثير من الكلمات منها:

يقولون للحزام: «قلادة»، القلادة العقد الذى يوضع فى العنق، ويقولون «بنيقة» للقطعة من الشقاق بجنب القميص، والبنيقة لبنة القميص التى بها الأزرار، ويقولون للذى يقلع عن الشراب فيصاب بالصداع: «مشمول»، والشمل هو السكر، أما الذى يعنون به فهو فى العربية الفصحى «الخُمار»، وإذا أصاب الرجل فهو «مخمور».

---

(٢) د عبد العزيز مطر . المرجع السابق، ص ١١ - ٢٣٨

ويسمون المطر «شتاء»، ويقولن يوم شات، و «الشتاء» فصل من فصول السنة كالصيف والخريف، وفى عامية الإسكندرية يقولون أيضاً للمطر «شتاء» ويقولون للدينار من الذهب «مثقال» و«المثقال» زنة الشئ الذى يثقل به، ويقولون للبيت المحصّن «بلاط» والبلاط الحجارة المفروشة، ويقولون لعود الشراع «صار»، والصارى هو الملاح، ويقولون «أسطوانة» للبيت الذى يشرع منه إلى الفناء، والاسطوانة السارية، ويقولون للكمثرى «إجاص» والإجاص ضرب من المشمش، ويقولون «سانية» للخشب الذى تديره الدابة لتخرج الماء من البئر، والسانية الدابة التى تسنو، ويقولون «الدبران» للذباب يلسع والدبران اسم الذنانير، ويقولون لعقب الرجل «كعب» والكعب هو العظم الناتئ فى مفصل القدم من الساحة.

هذه هى أهم الخصائص الصوتية والصرفية والنحوية للعربية فى الأندلس ومنها نستطيع أن نتمثل التغير اللغوى الذى حدث لدواع لغوية تنشأ من طبيعة البنية اللغوية كما فى إبدال بعض الأصوات، ومنها ما ينشأ نتيجة لقانون عام يحكم المتكلمين بلغة ما مثل قانون السهولة واليسر، أو كما قال الخليل وتلميذه سيبويه التماس الخفة، غير أن هناك استعمالات تتميز بها عربية الأندلس، وربما بتأثير اللغات الأخرى التى احتكت بها.

أما على المستوى النحوى رغم قلة عدد الأمثلة التى نقلها لنا الزبيدى، فإن تحليل الزجل الأندلسى تحليلاً لغوياً، قد يكشف لنا عن كثير من خصائص العامية العربية فى الأندلس.

المصادر والمراجع

١ - المصادر والمراجع العربية :

ألبير حبيب مطلق - الحركة اللغوية فى الأندلس حتى نهاية عصر ملوك الطوائف، بيروت المكتبة العصرية، ١٩٦٧م.

الزّبيدى، أبو بكرمحمد بن الحسن - لحن العوام، تحقيق د. رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة دار العروبة، طبعة أولى ١٩٦٤م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب - البيان والتبيين، شرح وتحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط٣، ١٩٦٨م.

ابن حزم، أبو محمد على - الإحكام فى أصول الأحكام، تحقيق أحمد محمد شاكر - القاهرة، ١٣٤٨هـ.

زكريا عنانى-الموشحات الأندلسية-الكويت،سلسلة عالم المعرفة،رقم(٣) ١٩٨٠م.

حسن ظاظا - الساميون ولغاتهم، دار المعارف، ١٩٧١م.

حسين مؤنس - فجر الأندلس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط أولى، ١٩٥٩م.

حلمى خليل - التفكير الصوتى عند الخليل - الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨م

- مقدمة لدراسة علم اللغة، دبى، دار العلم ١٩٨٩.

الخشنى، أبو عبد الله بن حارث بن أسد القروانى، قضاة قرطبة - القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس - لبنان، دار المعارف، ١٩٦٦.

عبد العزيز الأهوانى - الزجل فى الأندلس - القاهرة، معهد الدراسات العربية، ١٩٥٧م.

عبد العزيز مطر - لحن العامة - القاهرة، دار الكاتب المصرى، ١٩٦٧م.

المقرى، أحمد بن محمد-نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب،تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ط أولى ١٩٤٩م.

يوهان فك - العربية، ترجمة د. عبد الحليم النجار - القاهرة، مطبعة دار الكاتب العربى ١٩٥١م.

٢- المراجع الأجنبية:

- Lyons, John - Introduction to the theoretical Linguistics (Cambridge 1971.

- Sturtevant, E. H. Linguistic change, Chicago 1961.

الفصل السادس

علم المعاجم عند أحمد فارس الشدياق

بين النظر والتطبيق

مقدمة

تنوعت جهود الشدياق[1] فى ميدان الدراسة اللغوية بين نقد لآراء

---

(١) ولد الشدياق واسمه فارس بن يوسف بن منصور فى قرية «عشقوت» بلبنان،وقد اختلف الباحثون فى سنة ولادته، فهى عند بعضهم ١٨٠٥م(د. محمد أحمد خلف الله) ويجعلها بعضهم سنة ١٨٠٤م (جورجى زيدان وأستاذنا المرحوم محمد خلف الله أحمد) وقد ولد الشدياق لأبوين مسيحيين وظل على مسيحيته مارونيا ثم بروتستينيا حتى سنة١٨٥٧م حين أعلن اسلامه وغير اسمه إلى أحمد فارس الشدياق،وقد أعلن إسلامه فى تونس،وكنى بأبى العباس وقد نزح الشدياق فى شبابه إلى مصر عام ١٨٢٥م واتصل برفاعه الطهطاوى (ت ١٨٧٣م) فافسح له مكاناً فى تحرير جريدة الوقائع المصرية وهيأ له فرصة الاتصال ببعض علماء اللغة والأدب فى مصر.

وفى عام ١٨٣٤م سافر إلى مالطة فى صحبة بعض المبشرين حيث اشتغل بالمسائل الدينية وتدريس اللغة العربية ثم سافر إلى انجلترا للعمل فى ترجمة الكتاب المقدس وتردد بين لندن وباريس، ثم زار تونس حيث أعلن اسلامه وقضى المرحلة الأخيرة من حياته متنقلاً بين تونس والقسطنطينية.

وفى عام ١٩٦٠م أنشأ جريدة الجوائب وحقق فى إدارتها وتحريرها نجاحاً كبيراً دام لمدة ربع قرن تقريباً حيث ذاع صيتها، وفى هذه الجريدة تمثلت آراء الشدياق العلمية والسياسية والاجتماعية وكانت وفاته عام ١٨٨٧م.

حول حياة الشدياق وآثاره وثقافته وآرائه انظر:

أولاً: ما أورده من معلومات حول حياته وأسفاره فى:

١ - الساق على الساق (١٨٥٢م)

٢ - الواسطة إلى معرفة أحوال مالطة (١٨٦٦).

٣ - كشف المخبا عن فنون أوربا (١٨٦٦م).

ثانياً: ما كُتب حول سيرته وأعماله مثل:

١ - جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ٤/ ٢٣٥ - ٢٣٦.

٢ - د. محمد أحمد خلف الله، أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية (١٩٥٥م).

٣ - الأستاذ المرحوم محمد خلف الله أحمد، معالم التطور الحديث فى العربية وآدابها ص ١١٢ - ١١٩.

٤ - د. خالد الكركى، الانجليز فى أدب أحمد فارس الشدياق، بحث منشور فى أعمال الملتقى الدولى حول الأدب المقارن عند العرب، الجزائر - عنابة فى الفترة من ١٤ - ١٩ مايو ١٩٨٢ - ص ٢٥٩ - ٣٢١.

علماء اللغة القدماء ووضع أبحاث ودراسات حول المعاجم العربية وتنمية اللغة ومشكلاتها بشكل عام، ففى كتابه «الجاسوس على القاموس» نراه يتجه إلى القاموس المحيط للفيرزابادى (ت ٨١٧هـ) متخذاً منه نموذجاً للمعاجم العربية القديمة التى كانت بما حوته من مادة لغوية من أسباب وصم العربية بالتخلف عن متابعة التطور الحضارى الحديث ومن ثم تفضيل اللغات والمعاجم الأجنبية عليها لملاحقتها لهذا التطور.

وكان القاموس المحيط - وما يزال - من أشهر المعاجم العربية القديمة وقد هاجمه الشدياق ليبين أن القصور ناتج عن وضع المعاجم وطريقة تأليفها لا من اللغة وخصائصها، وقد توصل بهذا النقد إلى الدعوة لوضع معجم عربى حديث يسهل الرجوع إليه والبحث فيه، وكان من أهم ما نادى به فى هذا الصدد، ألا يقتصر المعجم العربى على المفردات العربية القديمة وحدها بل يُضاف إليها ما استعمله العلماء والكتاب والشعراء بعد عصور الاحتجاج، يقول فى مقدمة كتابه الجاسوس «أحببت أن أبين فى هذا الكتاب من الأسباب ما يخص أهل العربية فى عصرنا هذا على تأليف كتاب فى اللغة يكون سهل الترتيب واضح التعاريف شاملاً للألفاظ التى استعملها الأدباء والكتاب وكل من اشتهر بالتأليف»[1].

وهذه الدعوة من الشدياق إلى إعادة النظر فى المعاجم العربية مادة وترتيباً دعوة لها ما يبررها فى عصر الشدياق - وما زالت حتى يومنا هذا - أما أسبابها فى عصره فيوضحها لنا بقوله «فإن هذا اللسان قد تضوع نشره.. إلا أن ألسنة الأجانب زاحمته فى هذا العصر... لأن ترتيب كتب لغاتهم أسهل، والوصول إليها أعجل، ولا سيما أنها قليلة المشتقات وليس فى تعريف ألفاظها كبير اختلاف فى الروايات، أما من

---

(١) الجاسوس ص ٣.

يتعاطون منا التجارة ويحملون عبء الإمارة، فإنهم يزعمون أن اللغة العربية لا تصلح فى هذا الزمان لهاتين الخطتين فلا بد من الاستعانة بكلام الأجانب»[1]

لذلك يرى ضرورة تنمية الثروة اللفظية وإعادة ترتيبها حتى يسهل استعمالها يقول «ومن ثم مست الحاجة إلى زيادة تفصيل لمفردات لغتنا ومركباتها وتبين لأصولها من متفرعاتها وافراز لأفعالها من مشتقاتها»[2].

وهذا الشعور بتخلف العربية عن مسايرة التطور الحضارى وحاجتها إلى النمو اللغوى يبدو لنا بصورة أوضح فيما كتبه فى جريدة الجوائب تحت عنوان «فى فوائد سر الليال» ونشر هذه المقالة وغيرها من مقالاته مجموعة فى كتاب أسماه «كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب» وفى هذه المقالة يقول: «لا شك فى أن مفردات اللغة العربية غير تامة بالنظر إلى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصنائع مما لم يكن يخطر ببال الأولين وهو غير شين على العربية إذ لا يحتمل أن واضع اللغة يضع أسماء لمسميات غير موجودة، وإنما المشين علينا الآن فى أن نستعير هذه الأسماء من اللغات الأجنبية مع قدرتنا على صوغها من لغتنا»[3].

وهكذا نجد أن جانباً هاماً من جهود الشدياق اللغوية كان موجهاً إلى قضية المعجم العربى مادة وترتيبها وشرحا أى بعبارة أخرى نستطيع أن ندرس ما أسهم به فى هذا الميدان من خلال موضوعات ثلاثة تتصل بعلم المعاجم وهى:

١ - المعنى المعجمى.

٢ - فن صناعة المعجم.

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) كنز الرغائب ١/ ٢٠٢.

٣ - تنمية المادة المعجمية.

ولكن هذه الموضوعات تتصل أيضاً بثلاث فروع انبثقت من علم اللغة الحديث وهى:

١ - علم الدلالة Semantics

٢ - علم المفردات Vocabulary

٣ - علم المعاجم Lexicology

أما علم الدلالة، فهو كما يعرفه علماء اللغة العلم الذى يدرس المعنى سواء على مستوى الكلمة المفردة أو التركيب وتنتهى هذه الدراسة غالباً بوضع نظريات علمية فى دراسة المعنى، تختلف من مدرسة لغوية إلى أخرى[١].

غير أن بعض علماء المعاجم المعاصرين يُعرِّفون علم الدلالة بأنه ذلك الفرع من علم اللغة الذى يدرس المعنى المعجمى Lexical Meaing[٢] أى أن علماء المعاجم ينظرون إلى علم الدلالة على أنه يختص بدراسة المفردات ودلالتها دون النظريات المختلفة التى قد يتطرق إليها علماء اللغة عند دراستهم للدلالة، ويؤكد ذلك ما يشعر به بعض علماء المعاجم اليوم من وجود هوة عميقة تفصل بين النظريات الدلالية الحديثة، والدراسة المعجمية وتطبيقاتها التى ما زالت حتى الآن تعتمد على تقاليد راسخة، ولكن هذا الشعور لا يحول دون اعترافهم بأهمية الاطلاع على

---

(١) حول اختلاف المدارس اللغوية الحديثة والمعاصرة فى نظرية المعنى انظر:

1 - Lyons, John, Semantics, Vol, I, II London, 1979.

2 - Leech Geoffrey, Semantics. Pelican Books, London, 1976.

وباللغة العربية أنظر:

١ - د. محمود السعران، علم اللغة ص ٢٨٣ - ٣٤١.

٢ - د. كمال بشر، دراسات فى علم اللغة ص ١٢١ - ١٨٤.

٣ - د. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، الكويت، ١٩٨٢.

(2) Zgusia, Ladislev. Manual of Lexiegraphy P 28.

النظريات الحديثة فى علم الدلالة، لمعرفة طبيعة الدلالة اللغوية وماهيتها وجهاتها المختلفة، والعلاقات الدلالية التى تربط المفردات بعضها ببعض، إلا أنهم فى الوقت نفسه يترددون كثيراً فى الاعتماد على النظريات غير المؤكدة-كما يقولون - للدراسات الحديثة والمعاصرة التى تدور حول طبيعة الدلالة، لأنهم يرون أن هذه النظريات أوسع من الحدود التى ينبغى على المعجميين العمل فيها[١].

أما علم المفردات Vocabulary فهو علم يدرس المفردات بما لها من صلة بمجالات محددة مثل:

١ - حصيلة المفردات التى يتصرف فيها المتكلم أو الكاتب أو الشاعر.

٢ - مقدار الثروة اللفظية فى لغة أو لهجة معينة.

٣ - مجموعة المصطلحات التى تستخدم فى دائرة علمية أو فنية محددة.

٤ - إحصاء ومقارنتها بالمفردات المستعملة فى عدة لغات أو لهجات طبقاً لحاجة المتكلمين بها.

٥ - أنواع المعاجم المستعملة فى كل لغة وطرق تصنيفها.

٦ - حصر وإحصاء الألفاظ المقترضة من اللغات الأخرى داخل لغة معينة[٢].

وغالباً ما يستخدم هذا العلم إحصاء الكلمات Word Count للوصول إلى نتائج أكثر دقة، غير أن الكلمات تختلف أثناء الاستعمال من حيث النشاط والركود ولذلك يفرق هذا العلم بين نوعين من المفردات هما:

---

(2) Zgusta, Op. cit., P. 19.
(1) Hartmann and stork, Dict of Lang and Ling. P. 251.

١ - المفردات النشطة Active Vocabulary

٢ - المفردات الخاملة Passive Vocabulary

وذلك لكى يميز بين المفردات التى يستعملها المتكلم عادة، وتلك التى يستطيع إدراك معناها ولكنه لا يستعملها ،كما قامت أيضاً فى نطاق هذا العلم محاولات لعمل مجموعات من الكلمات تتصل فيما بينها بفكرة محددة أو تعبر عن جوانب ثابتة فى الحياة الإنسانية لا تتغير أو تختلف مثل المفردات الدالة على خلق الإنسان أو القرابة أو الألوان فيما يطلق عليه علم الدلالة الحقول الدلالية Semantics Field[١] ويتمثل ذلك فى الرسائل اللغوية الأولى التى جمعها رواه اللغة فى العربية،كما يتمثل على مستوى المعاجم العربية فى معجم المخصص لابن سيدة(ت ٤٥٨هـ) مع اختلاف فى الأسس والأصول النظرية بين العرب وعلماء اللغة فى العصر الحديث.

ومعنى هذا أن علم المفردات وإن انفرد بموضوعات خاصة فهو يضم كذلك موضوعات ودراسات وثيقة الصلة بعلم الدلالة.

أما علم المعاجم Lexicology فهو فرع من فروع علم اللغة يقوم بتصنيف ودراسة مفردات أى لغة بالإضافة إلى شرح معناها أو دلالتها المعجمية Lexical Meaning استعداداً لعمل المعجم، وهنا لا بد أن نفرق بين هذا العلم والفرع التطبيقى له أى علم صناعة المعاجم Lexiecography الذى يختص بفن صناعة المعجم والأصول التى تقوم عليها أنواع المعاجم ونظم ترتيب المفردات وشرحها داخل المعجم[٢] ومعنى هذا أن علم المعاجم هو علم نظرى يدرس المعنى المعجمى وما يتصل به من جهات الدلالة وعلاقتها فى حين أن فن صناعة المعجم هو علم تطبيقى يختص بصناعة

---

(2) Leech, OP. cit., P. 232.
(3) Zgausta, Op. cit., P. 21, P. 74 - 89.

المعجم ولكن بعض علماء اللغة يستعملون مصطلح علم المعاجم Lexie-cogrraphy للدلالة على الفرعين معاً.

وهكذا نجد أن بين هذه الفروع من علم اللغة أعنى علم الدلالة وعلم المفردات وعلم المعاجم، صلات وثيقة وموضوعات مشتركة.

فإذا نظرنا فى ضوء ذلك إلى الموضوعات التى شغلت الشدياق فيما يتصل بالمعجم العربى وأشرنا إليها من قبل وهى دراسة المعنى المعجمى وفن صناعة المعاجم من حيث مادتها وترتيبها وشرحها وتنمية الثروة اللغظية أو مادة المعجم العربى - وجدنا أن هذه الموضوعات الثلاثة تتصل بهذه الفروع الثلاثة من علم اللغة والتى ذكرناها آنفاً.

فشرح دلالة المفردات يتصل بدراسة المعنى المعجمى وترتيبها يتصل بفن صناعة المعاجم كما تتصل دراسة المعنى بعلم الدلالة وتنمية الثروة اللفظية ومادة المعجم تتصل بعلم المفردات من ناحية وبعلم الدلالة من ناحية أخرى كما أن أنواع المعجم ومادته يتصلان بعلم المعاجم وعلم المفردات ولذلك سوف نقسم هذا البحث إلى ثلاثة أقسام أساسية وهى:

١ - الشدياق ودراسة المعنى المعجمى.

٢ - الشدياق وفن صناعة المعجم.

٣ - الشدياق وتنمية مادة المعجم العربى.

وفيما يلى سنحاول أن نتناول كل قسم من هذه الأقسام بالدراسة من خلال ما كتبه الشدياق وذلك فى ضوء ما توصل إليه علماء اللغة فى العصر الحديث من نتائج وما أذاعوه من آراء ولعلى بذلك أكون قد أسهمت فى الكشف عن جهد معجمى لعالم من علماء المعاجم العربية أحب اللغة العربية ووجد ارتياحاً غريزياً كما يقول منذ نعومة أظافره لقراءة الكلام الفصيح وإمعان النظر فيه.

١ - الشدياق ودراسة المعنى المعجمى

علم المعاجم النظرى Lexicology هو ذلك الفرع من علم المعاجم الذى يدرس المعنى المعجمى Lexicel Meaning ، ويرى علماء المعاجم أن هذه الدراسة تأتى فى مقدمة الأمور التى يهتم بها المعجمى، لأن كثيراً من قراراته تتوقف،سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة على فهمه لطبيعة هذا المعنى والطريقة التى يتعامل بها معه فى المعجم[١] .

ويتفق علماء اللغة المحدثون ومعهم علماء المعاجم على أن المعنى المعجمى - إذا حللناه - يتألف من عناصر متعددة يمكن حصرها فى ثلاثة عناصر أساسية هى:

١ - ما تشير إليه الكلمة (الدلالة الأصلية) Denotation

٢ - ما تتضمنه الكلمة من دلالات غير الدلالة الأصلية (الدلالة الهامشية) Connatation.

٣ - درجة التطابق بين العنصرين الأول والثانى Rang of Application[٢].

وقبل أن نتناول كل عنصر من هذه العناصر لا بد أن نفرق أولاً بين مجموعتين من الكلمات وهما:

١ - المجموعة الأولى وتتمثل فى الكلمات التى بينها وبين دلالتها المعجمية علاقة طبيعية وهو ما يطلق عليه علماء العربية القدماء «حكاية الصوت»[٣] ويطلق عليها علماء اللغة وعلماء المعاجم حديثا الكلمات

---

(1) Zgusta, OP. Cit., P. 21.
(2) Ibid., P. 27.
وانظر أيضاً: Lyons, OP. Cit, Vol. I, P. 206.
(٣) انظر الثعالبى، فقه اللغة ص ١٦٧. حيث يقدم نماذج من هذه الكلمات

ذات الجرس المعبر Onomatopoeic Words أو Echo - Words[1] مثل الخرير والنشيش والصليل والخضم والقضم فى العربية، وهذه المجموعة تمثل عادة كمية ضيئلة من الألفاظ فى كل لغة.

٢ - المجموعة الثانية وهى التى تمثل أكبر قدر من الكلمات فى معظم اللغات وهى التى ترتبط بدلالتها ارتباطاً رمزياً اصطلاحياً.

وهذا النوع الثانى من الكلمات هو ما يهتم به علماء المعاجم أكثر من غيره، لأنه يشكل الجزء الأكبر والأهم من متن اللغة، وهو أيضاً المتداول على ألسنة المتكلمين بأى لغة تشير كل كلمة من هذه المجموعة الثانية غالباً إلى شئ موجود فى العالم الخارج عن اللغة Extralinguistic World أو إلى مفهوم أو فكرة تتخذ من الكلمة رمزاً لها.

فإذا تجاوزنا عن المناقشات الفلسفية والنظرية التى يخوض فيها علماء اللغة المعاصرون[٢] وتصورنا مثلاً أن المرء إذا ما احتاج إلى الحديث عن شئ ما بلا كلمات تدل عليه فمن الضرورى أن يوجد هذا الشئ معه أو يعمل على احضاره أمام السامع لكى يشير إليه أي أنه يستعيض عن الكلمات بالاشارة إلى الأشياء، فإذا تيسر ذلك - وهو غير متيسر دائماً من الناحية العملية - فإن الصعوبة تتحول إلى استحالة عندما يتحدث الإنسان من المعانى المجردة والمفاهيم غير المادية مثل الحرية والحق والعدل والسلام، ولذلك استعاض الإنسان عن تلك المشقة بوسيلة أبسط وأكثر مرونة،وذلك فى مرحلة من التاريخ لا يعرف العلم عنها شيئاً عندما اكتشف أنه عن طريق إحداث بعض الأصوات من خلال أعضاء ليست للنطق أصلاً ولكنه طوعها لذلك، كى يستحضر الأشياء مادية كانت أو غير مادية وكذا يتصل بغيره من الناس ويقيم حياة اجتماعية قائمة على التفاهم المتبادل.

---

(1) Hartmann and stork, OP, Cit., P. 158.

(٢) راجع: Lyons Op. Cit., Vol. I. PP. 206 - 216.

وهنا نجد أن الكلمات - على الأقل من الناحية النظرية - كانت تشير في الأصل إلى أشياء حسية فكان الاسم الذى يطلق على شئ ما شاهداً على وجود هذا الشئ ولهذا نجد فى كثير من اللغات القديمة تعبيرات باقية من هذه الفترة المبكرة فى حياة الإنسان، كقولهم فى اللغة البابلية إذا ما أرادوا التعبير عن مفهوم عبارة «كل شئ» قالوا «كل ما له اسم يسمى به» وكناية عن الهلاك والبوار كانوا يقولون «لم يعد له اسم»[١].

فإذا كان الاسم فى لغة الإنسان القديم قد اقترن دائماً بوجود المسمى فلا عجب إذا من أن نجد أن الكلمات فى الأصل كانت تدل على أشياء محسوسة أى أصبح لكل كلمة معادل يتمثل فى الأشياء هو ما اطلق عليه علماء المعاجم Denotation ، أى ما تشير إليه الكلمة أصلاً وهو العنصر الأول من عناصر المعنى المعجمى أى الدلالة الأصلية الحسية للكلمة، ولكن لا بد من الإشارة فى هذا الصدد إلى أنّ جانب النسبية لا بد أن يؤخذ فى الحسبان، أى أن ما تشير إليه الكلمة سواء كان مادياً أو غير مادى هو غالباً عبارة عن تصور المتكلم باللغة عن هذا الشئ فى ذهنه هو، وليس كما هو فى الخارج، أو بعبارة أدق هو التصور الذى يقف بين الكلمة والحقيقة ومن هنا تصبح الكلمة رمزاً للأشياء وليست هى عين الأشياء[٢].

وعندما بدأ الإنسان يتطلع إلى آفاق أوسع من المحسوسات إلى المعقولات والمجردات وارتبطت الكلمات بتجارب شعورية ونفسية، نقلت كثير من الكلمات من الدلالة الحسية إلى دلالات معنوية. فالشك أصله الوخز ، والعقل أصله الربط ، والشر أصله من شرار ، النار والعقيدة من العقد، والشرع أصله الاتجاه إلى الماء.. الخ، ومن ثم أصبحت الكلمات ترمز إلى أكثر من معنى بجانب الدلالة الأصلية . وهو ما يمثل العنصر

---

(١) د. حسن ظاظا كلام العرب ص ٤٢

(2) Zgusta. Op. Cit. P. 32

الثانى، من عناصر المعني المعجمى فى بعض جوانبه، فالدلالة المتضمنة أو الهامشية Connotation عبارة عن تلك الدلالات التى ترتبط بالدلالة الأصلية أى تلك الدلالة التى تستدعيها وتوحى بها الدلالة الأصلية فى ذهن المتكلم بلغة ما.

ففى لسان العرب مثلاً نجد ابن منظور (ت ٧١١هـ) يشرح الدلالة الأصلية لكلمة «ثعلب» من حيث هو حيوان معروف كما يقول، ولكنه يضيف إلى الكلمة أيضاً الاحتيال والمراوغة ومن هذا المعنى يقال تَثَعْلَبَ الرجل إذا أشبه الثعلب فى الاحتيال[١] وهو المعنى الهامشى للكلمة ومثل ذلك أيضاً عندما تقول: «مات فلان» و«وتوفى فلان» حيث نجد فى الفعل «توفى» دلالات هامشية: دينية إسلامية لانجدها فى الفعل «مات»، وأهم خصيصة من خصائص الدلالة الهامشية أنها متعددة وغير ثابتة بل قد تختلف من شخص إلى آخر من أبناء اللغة الواحدة، ولذلك استغل علماء النفس هذا الجانب الشخصى من الدلالة فى التحليل النفسى.

أما العنصر الثالث والأخير من عناصر المعنى المعجمى فهو يتمثل فى درجة التطابق Rang of Application بين الدلالة الأصلية Denotation والدلالات الهامشية Connotation وهو عنصر غير متحقق فى ذات الكلمات وإنما تصوره علماء اللغة لكى يفصل فى قضايا الترادف والمشترك اللفظى والأضداد، أى فى العلاقات الدلالية بين الكلمات فمثلاً كلمة «الماهية» وكلمة «الأجر» بينهما علاقة دلالية فكل منهما تشير إلى ما يتسلمه المرء من نقود لقاء عمله، ومع ذلك فبينهما فرق يكمن فى درجة التطابق حيث تستعمل الأولى للدلالة على ما يتسلمه الموظفون مع نهاية كل شهر، فى حين تدل كلمة «أجر» على الأجر اليومى أو الأسبوعى

---

(١) لسان العرب: مادة ث ع ل ب.

للعمال ومن فى حكمهم، ومعنى هذا أن هناك فرقاً بين الكلمتين، وإن ظن بعض الناس أنهما مترادفان، ودرجة التطابق هى التى تفرق بينهما.

المعنى المعجمى للكلمة إذن يشمل هذه العناصر الثلاثة معاً ، وهذه العناصر معاً ترمز إليها وحدات صوتية نسميها الكلمات، وهى تعبر عن تصور عام لهذا المعنى،وقد يتطور هذا التصور بتطور حياة الإنسان ويبقى الرمز كما هو، ومن ثم يتطور المعنى المعجمى وما يرتبط به من عناصر ولذلك يرى علماء المعاجم أن أبرز خصيصة من خصائص المعنى أنه عام ومتعدد وغير ثابت، مما يبين لنا الصعوبات التى يتعرض لها المعجمى عند شرح الدلالة داخل المعجم وتتركز هذه الصعوبات فى تحديده للمعانى المعجمية للكلمات بدقة.

فإذا حاولنا البحث عن تصور الشدياق على ضوء ذلك لماهية المعنى المعجمى وحقيقة وجدناه شديد الإيمان بنظرية «حكاية الصوت» أى محاكاة اللغة لأصوات الطبيعة وهى نظرية قديمة قدم البحث فى اللغة نادى بها علماء اللغة وغير علماء اللغة[1] وقد أشار ابن جنى (ت ٣٩٢هـ) إلى هذه النظرية بقوله «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغة كلها من الأصوات المسموعات كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبى ونحو ذلك ثم ولُدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندى وجه صالح ومتقبل»[2].

ولكن الشدياق يتوسع فى هذه النظرية ويتخذ منها أساساً لشرح المعنى المعجمى لكلمات اللغة العربية ويحاول أن يرد هذا المعنى والمعانى الأخر التى تدور حولها المشتقات إلى هذا الصوت أو ذاك من أصوات الطبيعة يقول «انى رأيت أن معظم اللغة مأخوذ من حكاية الصوت أو حكاية صفة

---

(١) راجع: Robins A Short History of Linguistics, P. 18.

(٢) ابن جنى، الخصائص، ١/ ٤٦ - ٤٧.

وأن حكاية الصوت تأتى من المضاعف نحو دَبٌ ودَفٌ ودَقٌ وهَزٌ وفَرٌ، فإذا أرادوا الزيادة فى المعنى ضاعفوا الحروف فقالوا دَبْدَبَ ودَفْدَفَ ودَقْدَقَ وهَزْهَزَ... فلما بنوه هكذا احتاجوا إلى التسكين، وظهور هذا السر فى الماضى المضاعف أكثر منه فى المصادر[1].

ولذلك اتخذ من الفعل المضاعف أصلاً لأنه الصيغة التى تتحقق بها حكاية الصوت مثل دَبْدَبَ وزَلْزَلَ وقَرْقَرَ وهَزْهَزَ... الخ، ويمضى الشدياق فى تصوره لهذه القيم الدلالية للأصوات عندما يقرر ما قرره من قبل الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)، وسيبويه (ت ١٨٠هـ) أن لكل صوت مفرد قيمة دلالية خاصة به، وقد جمع ابن جنى أقوال الخليل وسيبويه وزاد عليها فى باب عقده فى الخصائص بعنوان «باب فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى» يقول «اعلم أن هذا موضع شريف لطيف وقد نبه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول والاعتراف بصحته قال الخليل كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا صر وتوهموا فى صوت البازى تقطيعاً فقالوا صَرْصَرَ وقال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفعلان أنها تأتى للاضطراب والحركة نحو الغَلَيَان والغَثَيَان ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه ومنهاج ما مثلاه وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير نحو الزَّعْزَعة والقَلْقلة والصَّلْصَلَة»[2].

وفى موضع آخر يقول «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ومنهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما تقدره وأضعاف ما نستشعره. من ذلك قولهم خضم وقضم فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ

---

(١) سر الليال ص ٢٢.

(٢) الخصائص ... ١٥٢ - ١٥٣.

والقثاء وما كان نحوها من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس.. فاختاروا الحاء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث»[١].

ويمضى الشدياق مع هذه الأمثلة وغيرها حتى يحولها إلى قانون عام يحكم به على حروف اللغة العربية يقول «إن كل حرف يختص بمعنى من المعانى دون غيره، وهو من أسرار اللغة العربية التى قل من تنبه لها... فمن خصائص حرف الحاء السعة والانبساط نحو الابتحاح والبداح والبراح والأبطح والجح والرحرح والروح والسفوح والانسياح إلى آخر الباب ويلحق به ألفاظ كثيرة خفية الاتصال لا تدرك إلا بامعان النظر نحو الاسحاح والتسريح والسماحة ... ومن خصائص حرف الدال اللين والنعومة نحو الراخدة والقيد والتأد والثعد والتوهد والتمهد والخود والأملود إلى آخر الباب[٢].

ولكنه يجد أن حرف الدال قد يدخل فى بناء ألفاظ تدل على الشدة والقوة مما يخالف ما ذهب إليه من دلالته على اللين والنعومة فيقول «وربما عدلوا فى بعض الحروف أى راعوا فيها الاكثار من النقيض فإن حرف الدال يشتمل أيضاً على ألفاظ كثيرة تدل على الصلابة والقوة والشدة وذلك نحو التأدد والتأكد والتأييد والجلعد والجلمود والسلخد والعجرد والعربد... إلى أخره»[٣] ومع ذلك يمضى مع نظريته فيرى أن من خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسر، ومن خصائص حرف الهاء الحمق والغفلة وعلى هذا الأساس أقام كتابه «منتهى العجب فى خصائص لغة العرب»[٤].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٥٧ - ١٥٨.
(٢) الساق على الساق ص ٦٥ - ٦٦.
(٣) المصدر السابق ص ٦٦.
(٤) المصدر السابق ص ٦٥.

ولكى تكتمل نظرية الشدياق حول المعنى المعجمى من حيث هو «حكاية الصوت» عول الشدياق على فكرة التقليب التى اصطنعها الخليل بن أحمد فى حصر المستعمل والمهمل من الكلمات العربية[1] والتى تقوم على فكرة رياضية تتصل بنظرية الاحتمالات، وهى الفكرة التى طورها ابن جنى فيما بعد وأطلق عليها مصطلح «الاشتقاق الأكبر» يقول «هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول وتقدم أمام القول على الفرق بينهما طرفا من ذكر أحوال تصاريفها واشتقاقهما مع تقليب حروفها فإن هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق ويعلوه إلى ما فوقه وستراه فتجده طريقا غريبا ومسلكاً من هذه اللغة الشريفة عجيباً، فإن معنى (ق و ل) أين وجدت وكيف وقعت مع تقديم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه إنما هو للخفوف والحركة وجهات تراكيبها الست مستعملة لم يهمل شئ منها»[2].

وفكرة إتصال تقاليب الجذر (ق و ل) بمعنى معجمى واحد هى فكرة ابن جنى أما التقاليب للوصول إلى ما استعملته العرب وما أهملته إنما هى للخليل بن أحمد، وهى الفكرة التى حاول الشدياق أن يوظفها فى محاولة لوضع إطار عام لنظريته يقول «ولا يكاد الثلاثى يأتى حكاية صوت إلا وكان مقلوبه وما يجانسه كذلك»[3] ويمثل للتقلب بالفعلين دَقَّ، قَدَّ وما يجانسه فيمثل له بالأفعال قَسَّ، قَصَّ، قَطَّ[4] ثم يلتزم بالمضاعف أصلا لأنه يستجيب إلى فكرة التقليب مع حكاية الصوت يقول: وقد التزمت أن أزيد على المضاعف المختلف من عدة أوجه فما يظهر فى بادئ الرأى أنه متقلب من وجه واحد ليكون الأسلوب مطرداً،

---

(٣) راجع كتاب العين ص ٦٦.
(٤) ابن جنى، الخصائص ١/ ٥.
(١) سر الليال ص ١٢.
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة وانظر أيضاً ص ٤٦ حيث يفصل القول فى حب ومقلوبها بح وص ٥٤ فى خب ومقلوبها بخ وص ٦٣ فى عب ومقلوبها بع وص ٧٢ فى غب وبغ.

وذلك مثل فثقه وفدغه وفدخه وفلغه وفلقه وثلقه وثدغه وهدغه وهمغه ووشفه فانى جعلت فثغه من فث وفدغه من فد، فإن وقع شئ بخلافه فهو سهو والكمال لله وحده»[1].

ولكى تستقيم له نظرية أن المعنى المعجمى هو الأصل فى الأسماء والصفات كما استقامت له فى الأفعال يفرق الشدياق بين الفعل والاسم من حيث أن الأصل فى كل منها حكاية الصوت أيضاً فيقول «إن الفعل فى الأصل كالاسم فى كونه يوقف عليه بالسكون قبل اتصاله بفاعله فإذا اتصل بفاعله فتح وتقرير ذلك أن الواضع لما وضع قَدْ ودـضقْ ودَفْ لم يقصد بهما فى أول الأمر أن تكون فعلا ولا اسما بل مجرد حكاية لصوت توهمه بقطع النظر عن أى شئ آخر، فلما وصل دق بفاعله قال دَقَّ الرجلُ ولما أراد تخصيصه بأن يكون اسماً قال دَقُ الرجلِ ولهذا كثيراً ما نرى صيغة الإسم والفعل فى هذا الباب واحدة»[2].

وفى موضع آخر يوضح العلاقة بين الصفات وحكاية الصوت فيقول «وأما حكاية الصفة فهى نظم حروف يتوهم الناظم فيها أنها تدل على صفة شئ باعتبار ما فى تلك الحروف من اللين والترخيم أو الشدة والتفخيم كقولهم مثلاً شئ مُنَمنَم أى مزخرف .. وهى ململم أى مدور مضموم مجتمع وقولهم حبنجاب لرخاوة الشئ المضطرب.. وكقولهم امرأة رجراجة أى يترجرج عليها لحمها وربما التبست هنا حكاية الصفة بحكاية الصوت .. نحو السَّلْسَـــل للماء العذب أو البارد ، والسَّلس للسهل اللين... والوسوسة لحديث النفس،والهمس للصوت الخفى»[3] وهو هنا لا يستند إلى القيمة الدلالية للصوت فحسب، وإنما إلى الصفات الصوتية أيضاً من حيث الشدة واللين والتفخيم والترقيق.

---

(1) سر الليال ص ٢٢.

(2) المصدر السابق نفس الصفحة.

(3) المصدر السابق ص ٣١.

أما من حيث ترتيب المشتقات داخل المادة فقد ابتدأ بالمضاعف لأنه الأصل فى رأيه الأجوف الواوى ثم اليائى ثم المهموز، فإذا لم يجد المضاعف ذكر الأجوف، وإذا لم يكن الأجوف ذكر المهموز، كما استخدم أيضاً رموز القاموس المحيط وهى : ع = موضع د= بلد ، هـ = بلده ، م = معروف ، ج = جمع ، ج ج = جمع الجمع[١].

وهكذا وضع الشدياق نظريته فى المعنى المعجمى لمفردات اللغة العربية ثم وضعها موضع التجريب من خلال معجمه، «سر الليال» وذلك وفق الأصول والمبادئ الآتية:

١ - أن أصل المعنى المعجمى هو حكاية الصوت الطبيعى.

٢ - أن للحروف قيمة دلالية خاصة تختلف من حرف إلى حرف.

٣ - أن الأصل فى بنية الكلمة العربية هو المضاعف أو مقلوبه أو ما زيد عليه.

وهو لا يكتفى بتطبيق نظريته تلك على اللغة العربية وحدها بل يحاول أن يدلل على أنها نظرية عامة تستجيب لها اللغات الأخرى، فهو يرى أن اللغات الانجليزية والفرنسية والتركية واليونانية والفارسية وغيرها فيها ما يشبه حكاية الصوت فى العربية[٢] وهو يرى فى ذلك ظاهرة طبيعية يقول «وكلما كانت اللغة مبنية على هذا المبنى الطبيعى كانت للنفس أشوق، وبالطبع أعلق»[٣] وأن «زيادة حرف على المضاعف أليق بحكمة الواضع فى التفنن من نقصه إذ لو جعلت السالم أصلا لزم العدول عنه من الكمال إلى النقصان»[٤].

---

(١١) المصدر السابق ص ٦٠٧.

(١٢) سر الليال ص ٢٤.

(١٣) المصدر السابق ص ٢٥.

(١٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

ولكن عند تطبيق النظرية على مادة المعجم العربى لا تستقيم له دائماً فهو كما رأينا يتخذ من حكاية الصوت نواة للمعنى المعجمى والتى تتحقق فى المضاعف ومقلوبه وما يزيد عليه ثم يحاول رد جميع المشتقات إلى هذه الدلالة الأصلية على أساس أن الدلالات الحسية تأتى قبل الدلالات المجردة وهو يعتمد على مادة معجمية غزيرة جمعها من المعاجم العربية وبخاصة من القاموس المحيط فنراه مثلاً فى مادة (أ ب) يقول.

«وعندى أن أول هذه المعانى: أبَّ الشئ حركة، وهو حكاية صوت ونحوه هَبَّ وهَفَّ لحركة الريح وخَبَّ لعدو الفرس وحَفَّ لصوت ركضه. وقَبَّ لصوت ناب الفحل، وعَبَّ لصوت جرع الماء وأبَّ للسير أى تهيأ من معنى الحركة، ونحو عَبَّأ المتاع والأمر هَيَّأَهَ. وجاء أيضاً أَهَبَّ للأمر وتَأَهَّبَ أى استعد، ومن هذا المعنى قيل أب هزم بحملة وإلى وطنه اشتاق، جاء الوب التهيوء للحملة فى الحرب. ونحو أب ابه وحم حمة وأمته وعمته، والأبُّ الكلأ من معنى القصد، ولك أن تقول أنه من معنى الحركة المقرونة بالاشتياق. إذ هو عند العرب شئ أعظم ما يتشوق إليه... ومن معنى القصد والاشتياق جاء أيضاً الاياب بمعنى الماء، وهو بالفارسية أحد قطرى اللفظ العربى أعنى آب، وأما اطلاقه على السراب فمن تسميه المكروه بما يستحب كقولهم نام أى بات»[1].

على هذا النحو يمضى الشدياق فى بقية مواد معجمة يحاول بالتأويل تارة وبالافتراض تارة أخرى أن يرجع بعض المواد والمشتقات إلى هذا الأصل أو ذاك مما يدل على حكاية الصوت، ولكنه أحياناً يعجز عن ذلك ففى مادة حب يحاول جاهداً ربط المعنى المعجمى بدلالة الصوت فلا يجد سبيلاً إلى ذلك فيقول «فى هذه المادة ربك شاق وتخليط لا يطاق»[2]

(١) المصدر السابق ص ٣٢.
(٢) المصدر السابق ص ٣٨.

ثم يقول «وعندى أن أول المعانى حبه وأحبه ذلك فيه أوجه: أحدهما أن ترجع به إلى معنى أبَّ أى اشتاق والثانى أن يكون من حبة القلب... والثالث أن يكون من معنى حباب الماء أى معظمه.. والرابع من حبة الحنطة ونحوها»[١].

وعلى الرغم من الجهد الضخم الذى بذله الشدياق فى إعداد معجمه «سر الليال» وفق نظرية حكاية الصوت فإنه وقع فريسة النظريات التى كانت تبحث فى نشأة اللغة وأصلها والتى سيطرت على الفكر اللغوى فى القرن التاسع عشر[٢] وكانت نظرية محاكاة أصوات الطبيعة من أوسع النظريات انتشاراً حينئذ ولا شك أن وجود هذه النظرية فى التراث اللغوى العربى قد قوى من إيمان الشدياق بها، ويبدو أنها كانت واسعة الانتشار أيضاً حتى أنها أخذت تردد فى تراث المعتزلة الذين اشتهروا بالاحتكام إلى العقل ومنطقه، يروى السيوطى (ت ٩١١هـ) أن عباد بن سليمان السيمرى من المعتزلة كان يرى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للمواضع أن يضع هذه اللفظة أو تلك ازاء هذا المعنى أو ذاك، وكان يقول أنه يعرف معنى اللفظ من أصواته فسئل ما يسمى «اذغاغ» وهو بالفارسية الحجر فقال أجد فيه يبساً شديداً وأراه الحجر[٣].

ولكن هذه النظرية تسلحت عند الأوربيين بآراء فلسفية وكان العالم الألمانى هردر Herder من أشد المدافعين عنها[٤] وكان الدليل اللغوى الوحيد الذى قدمه أصحاب هذه النظرية سواء فى الشرق أو الغرب هو وجود مجموعة من الكلمات التى أشرنا إليها من قبل والتى أطلق عليها

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) راجع «فندريس»، اللغة ص ص ٢٩ - ٤٢، وانظر أيضاً:

Robins, Op. Cit., P. 149.

(٣) السيوطى، المزهر ١/ ٤٧.

(4) Robins Op. Cit., P. 151 - 153

فالكلمة فى أبسط تعريف لها عبارة عن مجموعة من الفونيمات بينهما علاقة تقابل وبينها وبين الفونيمات فى كلمة أخرى علاقة تبادل، ومعنى هذا أن القيمة الحقيقية للفونيم هى قيمة تبادلية وتقابلية ولا معنى له فى نفسه.

فالنون فى الفعل (نام) هى فونيم يشترك مع الفونيمات الأخرى فى تحديد المدلول الاصطلاحى لهذا الفعل وفى ذات الوقت يجعل هذا الفعل مختلفاً عن فعل مثل (قام)أو(صام) وتتضح هذه القيمة إذا ما استبدلنا أحد فونيمات الفعل بآخر كأن تستبدل فونيم الكاف فى (قام) بفونيم العين فيصبح الفعل (عام) ويستوى فى ذلك الصوامت Consonants أو الصوائت Vowels فاسم الفاعل من غير الثلاثى يفرق بينه وبين اسم المفعول بفونيم واحد هو الكسرة فى الأول والفتحة فى الثانى مثل مُرْسِل ومُرْسَل ومعنى هذا أن فونيم الغين فى غم وغمم وغمد وغمر وغمس وغمض وغمط وغمل وغنم ليس له قيمة دلالية خاصة أى يدل على الستر والتغطية كما ذهب الشدياق[١] وإذا كان هذا هو المعنى المعجمى لهذه الكلمات التي تشترك فيه وتتحقق فيها جميعاً فليس الفضل فى ذلك لوجود الغين فيها جميعاً وإنما فى اشتراك هذا الفونيم مع غيره من الفونيمات الأخرى بحيث يصبح لكل كلمة منها دلالة تختلف عن الأخرى فى إطار معنى الستر والتغطية وإلا صح استعمال كل منها مكان الأخرى فى سياق واحد فنقول مثلاً غمده بالماء وغمره بالسيف وهو فرق دلالى يرجع إلى مكونات كل كلمة على حدة.

ومع ذلك فإن الفونيمات بما هى أصوات لها سمات وملامح صوتيه مميزة مثل الجهر والهمس والشدة والرخاوة وغير ذلك من الصفات، إلا أن هذه الصفات والملامح الصوتية ليس لها معنى أيضاً، وإنما هى خصائص

---

(١) سر الليالى ص ٢٧.

صوتية تميز كل فونيم عن الآخر وهذا لا يمنع من أن تتشابه عدة فونيمات فى عدة لغات، ولكنها مع غيرها لا يمكن أن تؤدى إلى تشابه المعنى أيضاً كما ذهب إلى ذلك الشدياق.

يضاف إلى هذا أن العلاقة بين الصوت والمعنى هى علاقة رمزية اعتباطية Arbitrainess[١] وهذه العلاقة الرمزية هى المسئولة عن تحريك الدلالات الهامشية Connotation فيما أشرنا إليه سلفاً، بجانب الإشارة إلى المعنى المعجمى للكلمة من حيث أن الرمز بالنسبة للكلمة ما هو إلا نوع من الإشارات العقلية التى يمكن نطقها وهى تعمل كما يعمل أى رمز آخر من حيث استدعاه الصورة أو المفهوم، وبذلك لا تكون الكلمة مجرد تقليد أو حكاية صوت الطبيعة وإنما هى بالنسبة لابن اللغة رمز لأشياء وتصورات وخبرات لا يمكن أن تتمثل فى أصواتها بأى حال.

غير أن القارئ لكتاب الشدياق «سر الليال» وهو يمثل الجانب التطبيقى لنظريته فى المعنى المعجمى لا يستطيع أن يملك نفسه من الإعجاب بالجهد الدؤوب الذى بذله الرجل فى إعداد هذا المعجم وجمع مادته لكى يخرج نظريته من حيز النظر إلى حيز التطبيق ولعل الفترة التاريخية التى عاشها هذا المعجمى مسئولة إلى حد كبير عن توجيه جهده هذه الوجهة التى كشف علم اللغة قناع الوهم عنها ولكن يبقى للشدياق جهد قل أن نلقاه فى عمل المعاجم اليوم والذى يظهر جلياً فى تصوره الدقيق لفن صناعة المعاجم وهو ما سنتناوله فى القسم الثانى من هذا البحث.

---

(2) Ducrot and Todrov, Op. Cit., PP. 130 - 133.

٢ - الشدياق وفن صناعة المعجم

فن صناعة المعاجم Lexicography وهو الفرع التطبيقى لعلم المعاجم Lexicollogy وموضوع هذا الفن هو المبادئ والأصول التى تقوم عليها صناعة المعاجم من حيث جمع المادة وترتيب المداخل Eatries والمشتقات وشرحها وذلك فى ضوء المعجم المراد وضعه وحجمه والهدف منه[١].

وفن صناعة المعجم من الفنون العريقة فى التراث العربى، فأول معجم عرفتنه اللغة العربية هو معجم «العين» للخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) قد مضى على وضعه أكثر من ألف عام، ثم توالى بعده التأليف فى المعاجم العربية، فظهرت أنواع من المعاجم مختلفة الترتيب والحجم والهدف، وقد حاول كثير من المحدثين - عرب ومستشرقين - دراسة المعاجم العربية من حيث نشأتها وتطورها وأنواعها والمدارس المختلفة التى تعاورت على صناعتها[٢] بل لقد امتد أثر المعاجم العربية وفن صناعتها إلى المعاجم الأوربية وتأثرت بها[٣] ولكن دراسة أحمد فارس الشدياق لهذه المعاجم وبخاصة دراسته «للقاموس المحيط» تعد أحدى العلامات البارزة فى تاريخ دراسة المعجم العربى، فقد عكف الشدياق على هذا القاموس قراءة وفحصاً حتى كاد يستظهره ومن ثم درسه دراسة دقيقة جمع فيها كثيراً

---

(١) راجع - Zgusta, Op. Cit., P. 198 - 217.
وانظر أيضاً د. حسن ظاظا. كلام العرب ص ١٢٤ - ١٢٨.

(٢) حول نشأة المعجم العربى وتطوره، انظر الدراسة القيمة التى كتبها الدكتور حسين نصار فى جزئين كبيرين بعنوان: «المعجم العربى نشأته وتطوره» القاهرة، مطبعة مصر، ط الثانية ١٩٦٨، ومن أهم الدراسات التى قامت حول المعاجم العربية دراسة المستشرق الانجليزى جون هايود. انظر مقدمة كتابه:. - Haywood, A abic Lexicography, Leiden, 1965.

(٣) انظر: - Haywood, Op. Cit., PP. 127 - 131.
وانظر أيضاً كتابنا، مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٨.

من الكتب التى دارت حوله شارحة ومحشية وناقدة، وكانت ثمرة هذه الدراسة كتابه «الجاسوس على القاموس» الذى يعد كما يقول د. حسين نصار من أحسن الكتب التى نقدت القاموس المحيط[1] وفى ثنايا هذا النقد تعرض الشدياق للمعاجم العربية عامة، مما جعل كتابه الجاسوس يتجاوز حدود نقد القاموس إلى دراسة المعاجم العربية الأخرى ونقدها، فجاء الكتاب موسوعة غنية بالمعلومات عن المعاجم العربية وأصحابها وخصائصها وعيوبها.

وفى هذا الكتاب تظهر موهبة الشدياق الحقيقية وعلمه الواسع بالتراث اللغوى العربى، كما يظهر تصوره لما ينبغى أن يكون عليه المعجم العربى وهو عندما يكتب فى هذا الفن يكتب فى الحقيقة من موقع الخبير المتمرس بالمعاجم وأنواعها وطرق وضعها سواء فى العربية أو فى غيرها من اللغات، وهذه الخبرة هى بعض ثمار معاناته وعمله فى الترجمة الذى دفعه إلى الاطلاع على كثير من المعاجم فى اللغات الأخرى التى يترجم عنها أو ينقل إليها وتصور بعض عباراته هذه المعاناه يقول «أقول لك الحق ولا أكتمه عنك هو أنى أكره الترجمة من كلام العجم فاكتب هذه الفصول تخلصاً من عذاب الترجمة»[2].

ولكن تصور الشدياق لعلم المعاجم بشقيه النظرى والتطبيقى نجده موزعاً بين كتابيه «الجاسوس» و «سر الليال» الذى أعاد فيه تلخيص نقده للقاموس كما شرح فيه نظريته فى المعنى المعجمى كما أشرنا إلى ذلك فى القسم الأول من هذا البحث، فإذا استثنينا مقدمة كتابه «سر الليال» وجدنا هذا الكتاب يخلص إلى فن صناعة المعجم كما تصوره الشدياق بالإضافة إلى ملاحظاته النظرية التى أودعها نقده للقاموس

---

(١) د. حسين نصار، المرجع السابق، ص ١/ ٣، ٢/ ٦١٥ - ٦١٧

(٢) كنز الوغائب ١/ ١

المحيط في كتابه الجاسوس، لذلك كثيراً ما كان يشير إلى سر الليال في الجاسوس [1].

ومنذ الوهلة الأولى في نقده للقاموس المحيط نراه يتخذ من تصوره لما ينبغي، أن يكون عليه المعجم معياراً للحكم على هذا المعجم وغيره من المعاجم العربية يقول «وبعد، فإني لما رأيت في تعاريف القاموس للأمام القاضي مجد الدين الفيروزابادي قصوراً وإبهاماً وإيجازاً وإيهاماً وترتيب الأفعال ومشتقاتها فيه محوج إلى تعب في المراجعة ونصب في المطالعة والناس راوون فيه راضون عنه أحببت أن أبين في هذا الكتاب من الأسباب ما يخص أهل العربية في عصرنا هذا على تأليف كتاب في اللغة يكون سهل الترتيب واضح التعاريف شاملاً للألفاظ التي استعملها الأدباء، والكتّاب وكل من اشتهر بالتأليف سهل المجتبى داني الفوائد بين العبارة وافي المقاصد» [2].

ومعنى هذا أن العناصر التي يرى الشدياق ضرورة توافرها في المعجم العربي المنشود تتمثل فيما يلي:

١ – الشمول أي أن يكون المعجم شاملاً لألفاظ العربية في عصورها المختلفة كما تتمثل في لغة الكتاب والشعراء وكل من اشتهر بالتأليف وليست مقصورة على عصر دون عصر.

٢ – سهولة ترتيب مواد المعجم ومشتقاته.

٣ – وضوح تعريف وشرح المعنى المعجمي.

وعلى هدى من هذه المبادئ والأصول أخذ الشدياق في نقد القاموس المحيط خاصة، والمعاجم العربية عامة.

---

(١) انظر الجاسوس ص ٨٦.

(٢) الجاسوس ص ٢ – ٣.

وعلى الرغم من أن الشدياق كان حريصاً - كما يقول - على القصد فى النقد[1] فإن انتقاداته للقاموس امتدت حتى بلغت أربعة وعشرين نقداً[2] تمثل فى مجموعها مادة كتابة الجاسوس، ثم أعاد تلخيصها تلخيصاً وافياً فى مقدمة كتابه «سر الليال» كما أشرنا من قبل.

ومن هذا التلخيص يتبين لنا أن مآخذ الشدياق على المعاجم العربية وفى مقدمتها القاموس المحيط تتمثل فيما يلى:

١ - عدم اشتمال المعجم العربى على مادة لغوية تمثل أطوار اللغة العربية وعصورها المختلفة.

٢ - الإبهام وعدم الوضوح فى شرح المعنى المعجمى.

٣ - سوء ترتيب المشتقات داخل المادة الواحدة وعدم ذكر أصل المشتقات على رأس المادة.

ولكنه آثر أن يفصّل ويفرّع فأخذ يذكر أمثلة لأخطاء كثيرة وقع فيها صاحب القاموس المحيط وغيره من أصحاب المعاجم العربية، ولكن هذه الأخطاء تتصل فى النهاية بواحد من الأمور الثلاثة السابقة.

غير أنه يعطى لمبدأ ترتيب المشتقات داخل المادة أهمية واضحة لأن عملية الترتيب عنده يتحقق بها غرضان هامان هما:

١ - سرعة الوصول إلى المعنى المراد.

٢ - الوقوف على سر الوضع فى العربية وبيان خصائصها[3].

فإذا تجاوزنا عن مسألة «سر الوضع» هذه لأنها ليست من مهام المعاجم أو أهدافها، وجدنا أن اهتمام الشدياق ينصب على أربعة مبادئ

---

(١) المصدر السابق ص ٦

(٢) المصدر السابق ص ٧ - ٨.

(٣) المصدر السابق ص ٢٧

أو موضوعات أساسية فى فن صناعة المعاجم، بل هى محور اهتمام هذا الفن وأصوله وهى:

١ - مادة المعجم.

٢ - ترتيب المداخل.

٣ - ترتيب المشتقات داخل كل مادة.

٤ - شرح المعنى المعجمى[١].

وهى موضوعات تداخلت وتوزعت فى كتابات الشدياق المختلفة حتى داخل كتابيه «الجاسوس» و «سر الليال» وفيما يلى سنتناول كل موضوع منها وفق الترتيب المشار إليه.

أولا - مادة المعجم:

ونقصد بمادة المعجم الألفاظ التى يقوم المعجمى بجمعها وترتيبها وشرح دلالاتها، وهذه المادة تختلف من معجم إلى معجم تبعاً للغرض الذى يوضع من أجله ولذلك تعددت أنواع المعاجم واختلفت باختلاف مادتها والهدف منها فهناك المعاجم الموسوعيةEncyclopedic Dictionaries والمعاجم اللغوية Linguistic Dictionaries والمعاجم التاريخية الاشتقاقية Historical and Etymological والمعاجم الوصفية (الآنية)Synchronlc والمعاجم الخاصة والعامة التى قد تناول دائرة محددة من الاستعمالات أو دائر عامة والمعاجم الأحادية اللغةMonolingual والمعاجم الثنائية اللغة Bilingual والمعاجم الموضوعة أو معاجم المعانى[٢].

ويرى أستاذنا الدكتور حسن ظاظا أن المعجم الثنائى اللغة هو أول

---

(١) راجع - Zgusta, Op. Cit., P. 240.

(2) Ibid., PP. 198 - 213.

وانظر أيضاً د. حسن ظاظا «كلام العرب» ص ١٢٤ - ١٢٧.

المعاجم ظهوراً فى تاريخ الإنسانية إذ الأصل أن المتكلم بلغته القومية لا يحتاج إلى شرح لفظ أو بيان معنى كلمة ما، وإنما قد يحتاج إلى معرفة معنى لفظ فى لغة غير لغته القومية، ولذلك كان المعجم الثنائى اللغة من أقدم المعاجم التى عثر عليها فى الحضارات القديمة وبخاصة فى الحضارتين الشومرية والأكادية[1]. ثم يأتى بعد ذلك سبب آخر للتفكير فى وضع المعجم الاحادى اللغة، أى المعاجم التى تشرح دلالات اللغة القومية لأبنائها وخاصة بالنسبة للاستعمالات النادرة أو الغريبة داخل اللغة القومية، لأن اللغة عادة ما تورث من جيل إلى جيل كما يورث بقية التراث الفكرى والحضارى لهذه اللغة،وخلال المسيرة الطويلة التى قد تقطعها لغة ما، يحدث أن تختفى بعض الكلمات من الاستعمال أو من ذاكرة المتكلمين بهذه اللغة لأسباب كثيرة، وعندما يطلع الأبناء علي ما خلفه الآباء يجدون ألفاظاً من هذا النوع لا يفهمون مدلولها، ولذلك تدعو الحاجة إلى وضع معجم يشرح مثل هذه الألفاظ، يضاف إلى ذلك أن ذاكرة ابن اللغة لا تستوعب إلا عدداً محدوداً من مفردات الثروة اللفظية فليس غريباً أن يصادف عند السماع أو القراءة كلمات مستعملة فى لغته لا يعرف معناها بدقة ووضوح.

ومعنى هذا أن الوظيفة الأساسية للمعجم كانت فى الأصل وظيفة دعت إليها حاجات عملية وهى إما لبيان مقابل لفظه من لغة بلفظة فى لغة أخرى، أو شرح دلالة لفظه فى اللغة القومية ولم يكن مبدأ «حفظ اللغة» هو الدافع الأول لوضع المعاجم، ولكن تصور علماء اللغة العربية القدماء غلّب وظيفة «الحفظ»على وظيفة «الاستعمال» لأسباب تاريخية ولغوية تتلخص فى مبدأ تنقية اللغة العربية صوتياً وصرفياً ونحوياً ومعجمياً مما أصابها على ألسنة المتكلمين بها من غير العرب سواء ممن

---

(١) د حسن ظاظا المرجع السابق ص ١٢٣

دخلوا الإسلام عشية الفتح الإسلامي وتطلعوا إلى لغة الدين الجديد أو ممن ظللوا على دينهم وتطلعوا إلى لغة السلطة الجديدة، ولذلك حرص علماء المعاجم العربية تطبيقاً لمبدأ التنقية على أن تكون مادة المعجم العربى من الألفاظ عربية إعرابية أى مما استعمله العرب الخلص دون غيرهم، ومن ثم أهدروا كل استعمال لم تنطق به العرب الخلص فى الحواضر إلى نهاية القرن الثانى الهجرى وفى البوادى إلى نهاية القرن الرابع فيما عرف عند علماء العربية بالاحتجاج[١].

ولكن المتتبع لتطور اللغة العربية يلحظ أن هذه اللغة قد بلغت مع نهاية القرن الرابع الهجرى قمة نموها فى الوقت الذى بلغت فيه الحضارة الإسلامية من علوم وفنون وآداب ذروتها، وكانت العربية طوال هذه القرون تواكب التطور الحضارى وتسير معه جنباً إلى جنب رغم الرقابة الصارمة التى فرضها علماء اللغة، فخلفت ثورة هائلة من الألفاظ والمصطلحات فى شتى نواحى الحياة من علوم سياسية وفكرية ومال وإدارة وتجارة ناهيك بالفنون القولية والتشكيلية وبناء على ذلك نستطيع أن نقسم مفردات اللغة العربية إلى مجموعتين كبيرتين:

١ - المجموعة الأولى وتتمثل فى المفردات العربية البدوية المتمثلة فى لغة الشعر الجاهلى والتى جمعها الرواة فى صورة رسائل لغوية ذات موضوعات محددة مثل الرسائل التى جمعت عن المفردات المتصلة بالحيوان والنبات والحشرات وخلق الإنسان والمفردات النادرة وغريب القرآن والحديث ولغات القرآن وغيرها[٢] وكل ذلك يمثل الرصيد الكلاسيكى للعربية كما كانت تستعمل فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام.

---

(١) حول آثار هذه النظرية على مادة المعجم العربى انظر:
حلمى خليل، المولد فى العربية ص ١٦٨ - ١٨٠ ط. الثانية.

(٢) راجع د. [illegible] نصار، المعجم العربى نشأته وتطوره ص ٣٩ وما بعدها.

٢ - المجموعة الثانية وتتمثل فى المفردات والمصطلحات العلمية والحضارية التى أخذت تظهر مع تطور الحياة العربية من البداوة إلى الحضارة وشاعت فى بيئات العامة والخاصة على السواء.

ولكن عندما بدأ علماء المعاجم فى تنظيم هذه المادة اللغوية الضخمة سيطر على أذهانهم مبدأ تنقية اللغة ومن ثم أنصب جهدهم على جمع وتنظيم المجموعة الأولى من المفردات ولعل تسمية الجوهرى (ت٣٩٣هـ) معجمه بالصحاح أثر باق من آثار سيطرة هذا المبدأ.

وبذلك أخذ اللغويون وعلماء المعاجم موقفاً ثابتاً من المجموعة الثانية من المفردات التى كانت تمثل فى الحقيقة الجزء الحى من اللغة كما كانت تمثل جزءاً غير يسير من الثروة اللفظية فى العربية وكان الإتجاه السائد بينهم هو استبعاد هذه المفردات من معاجمهم باعتبار أنها ألفاظ لم يستعملها العرب الخلص وليس مما استعملته العرب ولم يشذ سوى صاحب القاموس المحيط الذى حاول إدخال بعض هذه الألفاظ فى معجمه ولكنه لم يسلم من ألسنة النقاد، وهكذا أصبحت المعاجم العربية القديمة لا تمثل حقيقة النمو اللغوى الذى بلغته العربية وإذا حدث وتسربت بعض الألفاظ من النوع الثانى إلى المعاجم طاردتها الرقابة بكلمة «مولد» أو «ليست من كلام العرب» ومن ثم أصبح مدار النقد المعجمى القديم وبعض الحديث فى البيئات التقليدية، يدور فيما يتصل عادة بمادة المعجم العربى حول أصالة الكلمات أو عدم أصالتها.

وقد ظل الأمر على هذا المنوال حتى مطلع العصر الحديث عندما أحس المتكلمون بالعربية بأن المعجم اللغوى العربى لا يمثل اللغة التى يستخدمونها، كما أن اتصالهم بالحضارة الغربية الحديثة ورغبتهم فى مسايرتها فى العلوم والفنون والآداب والمأكل والملبس والأدوات وغيرها أشعرتهم بحاجتهم إلى معجم جديد يدفع عنهم هذا الفيض من الكلمات الأجنبية الذى أخذ يغزو العربية فى صورة هذه الحضارة الحديثة، ولذلك

أخذوا ينظرون إلى المفردات العربية نظرة جديدة تجاوزت حدود الزمان والمكان والجنس التى تحكمت فى مادة المعجم العربى القديم فشملت تلك النظرة المفردات العربية كلها بحثاً عن استعمالات عربية أو مولدة تؤدى عنهم جوانب من هذه الحضارة الوافدة.

وكان الشدياق واحداً من الرواد الذين رفضوا الحدود والقيود التى وضعها علماء العربية القدماء على مادة المعجم باسم الاحتجاج وحفظ اللغة ومن ثم نظر إلى المادة التى ينبغى أن يضمها المعجم نظرة شاملة ورأى أن المعجم ينبغى أيضاً أن يعد اللغة للاستعمال لا الحفظ فقط يقول: «اعلم هداك الله ووفقك لما ارتضاه، أنى كنت نويت أن اجعل مكان هذه الخاتمة نقداً يشتمل على ما فات صاحب القاموس من الألفاظ اللغوية الإصطلاحية الفصيحة وكنت جمعت منها نحو خمسة كراريس مع مقدمة وازنت فيها بين العرب العاربة والعرب المولدين والغرض من ذلك الاحتجاج بكلام هؤلاء إذ كانوا متضلعين من العربية كجرير والفرزدق والأخطل وبشار بن برد وميهار الديلمى وأبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى فراس وأضرابهم وأقمت عدة بيانات من جملتها أن المولدين راعوا حق اللغة والتزموا قواعدها أكثر من العرب فى الجاهلية لأنهم اعتقدوا أن اللغة وسيلة إلى فهم التنزيل والحديث الشريف، فبالغوا فى ضبطها ما أمكن، وهذا الأمر لم يخطر ببال العرب قط فإذا كان المولدون قد جاءوا شيئاً مخالفاً للأصول والقواعد فإنما كان لعدم وقوفهم على نص فيه» أو لأنهم كانوا قادرين على تخريجه، بخلاف العرب العاربة فانهم خالفوا تلك الأصول لعدم المبالاه ولهذا قيل ما جاز للعرب المتقدمين لم يجز للمتأخرين»[1].

والشدياق هنا يؤكد بصورة ما ما سبق أن قاله ابن جنى فى باب عقده

(١) الجاسوس ص ٥٢٠.

فى الخصائص عن أغلاط العرب لأنهم ليست لهم أصول يرجعون إليها ولا قوانين يعتصمون بها وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به فزاغوا عن القصد[1] إلا أن الشدياق يتوسع فى هذا بحيث يخرج به عن حدود مخالفة القواعد الصرفية والنحوية التى وقع فيها العرب العاربة -كما يزعم - لكى يعطى المولدين حق الوضع على مستوى المفردات لأن لهم قوانين تعصمهم من الخطأ يقول «أما قول العلماء أن كلام المولدين المفردات لا يحتج به فانهم لم يبينوا معنى المولدين فغاية ما قالوه فى المولد أنه عربى غير محض، فإن كان المراد بذلك أنه الذى نشأ بعد الإسلام، فهو محض تعنت لأن من هؤلاء المولدين من عاش قبل أن يعرف التأليف فى اللغة فكيف يحكم على كلامهم بأنه لم يكن عربياً صحيحاً من دون كتب اللغة»[2].

والشدياق يشعر هنا بالخلط الذى وقع فيه القدماء بين المولدين من حيث هم جماعة بشرية وبين التوليد من حيث هو ظاهرة فى كل اللغات تتصل بالتطور اللغوى، خاصة على مستوى المفردات ودلالتها ولذلك فإن الأحكام التى أصدرها القدماء على بعض الاستعمالات لم تكن أحكاماً دقيقة لعدم وجود مصادر بين أيديهم لمعرفة المولد من غيره، واللوم فى ذلك يقع على رواد اللغة فى القرن الأول - كما يرى الشدياق - لأن جمعهم لمفرداتها لم يكن مستقصياً «كان يجب على أهل القرن

---

(١) الخصائص ٣/ ٢٧٣ وابن جنى والشدياق قد جانبهم الصواب فى هذا الحكم لأن القواعد والقوانين تابعة لاستعمالات ابن اللغة وليس العكس، ولذلك قال بعض علماء اللغة المحدثين أن كتاب النحو قد يصبح غير صالح للاستعمال فور الانتهاء من تأليفه لأن اللغة لا تنتظر النحوى حتى يضع قواعد ليتكلم الناس تبعاً لها، ومثل ذلك قالوا أيضاً فى المعجم الذى يستغرق إعداده أعواماً طويلة ومن ثم قد تتغير كثير من الألفاظ والدلالات وخاصة فى عصرنا الحاضر التى تلعب فيه الإذاعة المسموعة والمرئية والصحف والمجلات دوراً خطيراً فى حركة الثروة اللفظية ولذلك لا بد أن تكون هناك متابعة دائمة لاستعمالات أبناء اللغة وتلك مهمة المجامع اللغوية وغيرها من الهيئات المعنيه بشئون اللغة.

(٢) الجاسوس ص ٥٢٠.

الأول عقب تشيد أركان الإسلام أن يقصدوا العرب فى البادية ويستقروا قبائلهم قبيلة قبيلة وشعوبهم شعباً شعباً ويدونوا عنهم لغاتهم بالضبط والاتقان والترتيب»[1].

التوثيق إذن وعدم دقة الجمع والخلط بين المولد والدين هو السبب الأول لرفض الشدياق لنظرية الاحتجاج.

أما السبب الثانى الذى رفض من أجله الشدياق هذه النظرية وما ترتب عليها من آثار فى مادة المعجم العربى فهو كما يقول:

«أأنه لا يمكن أن يخطر ببال عاقل منصف أن الشاعر البليغ من هذه الطبقة (يقصد طبقة المولدين من الشعراء) يخترع ألفاظاً ليس لها أصل فى العربية... على أنه لو كان أحد من المولدين ألف كتاباً فى اللغة لقبل لا محالة، فليس من الإنصاف أن تقبل روايته فى اللغة ويرد كلامه فى الشعر»[2].

وهكذا يرى أن لغة الكتاب والشعراء والعلماء، أى لغة الحضارة لها الحق فى الدخول إلى حرم المعجم العربى على قدم المساواة مع لغة الشعر الجاهلى وصدر الإسلام،وهى نظرة تنبع من إدراك لطبيعة التطور اللغوى، لأن المفردات الجديدة التى عرفها الكتاب والشعراء والعلماء إنما وجدت لعدم وجود مرادف أو مقابل لها فى اللغة أو كما يقول «فصارت من هذا القبيل جزءاً ضرورياً منها، كيف لا والذين اصطلحوا عليها كانوا أئمة ورعين فلو لم يروا لزوماً ما تداولوها»[3].

وكان شعور الشدياق بضرورة إدخال هذه المفردات التى جرت فى حياة العربية وخاصة فى عصور ازدهارها فى العصر العباسى نابعاً من وعى

---

(١) المصدر السابق ص ٥٢١.
(٢) المصدر السابق ص.
(٣) الجاسوس ص ٣٤٥.

بحاجة مادة المعجم العربى إلى الشمول لكى تستجيب للمقتضيات الفكرية والحضارية التى شاهدها فى أوربا وانعكست فى المعاجم اللغوية التى اطلع عليها ولم يقف جهد الشدياق فى هذا الصدد عند حدود الدعوة النظرية بل اتخذ خطوات عملية فى هذا السبيل فقام بوضع العديد من الألفاظ التى رأى أن العربية تحتاج إليها فى التعبير عن بعض مظاهر الحضارة الحديثة، كما سنرى ذلك فى القسم الثالث والأخير من هذا البحث.

ثانياً - ترتيب المداخل :

المدخل Entry هو عبارة عن الوحدة اللغوية التى ستوضع تحتها بقية الوحدات الغوية الأخرى أو المشتقات(١) وهو فى اللغة العربية واللغات الاشتقاقية يتكون غالباً من الأصوات التى تكون البنية الأساسية الثابتة للكلمات المشتقات أى الجذر Root وهو غالباً ما يتكون فى اللغة العربية واللغات السامية من أصوات صامتة Consonants أما فى غير العربية فقد يتكون من صوامت وصوائت Vowsls .

وغالباً ما تلتزم المعاجم بالترتيب الالفبائى Alphabetical Sequence سواء على مستوى المدخل الواحد أو على مستوى مداخل المعجم كلها(٢)، ولكن المعاجم العربية شهدت أنواعاً وطرقاً أخرى من ترتيب المدخل غير هذا الترتيب.

ولكى يحدد الشدياق الطريقة المثلى فى ترتيب المداخل يأخذ فى دراسة طرق الترتيب المختلفة التى ابتدعها علماء المعاجم العربية على مر العصور مبيناً مميزات كل طريقة وعيوبها فبدأ أولاً بمدرسة الترتيب المخرجى وهى المدرسة التى وضع أصولها الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)

---

(1) Zgusta, Op. Cit., P, 240.
(2) Ibid, P. 280.

فى كتاب «العين» حينما رتب المداخل تبعاً لمخارجها من جهاز للنطق مبتدئاً بأقصاها مخرجاً فى الحلق وهو صوت العين - كما تصور - ومنتهياً بما يخرج من الشفتين وهو الميم فاستقام له ترتيب أصوات العربية أو الصوامت على النحو التالى:

ع خ هـ غ - ق ك - ح ش ض - ص س ز - ط ر ت - ظ ذ ث - ر ل ن - ف ب م، ثم حروف المد واللين أو الحركات الطويلة أ و ى[1].

وقد أخذ الخليل من هذا الترتيب المخرجى أساساً لترتيب المداخل أولاً، ثم على مستوى المدخل الواحد ثم على مستوى المعجم، ولذلك قسم معجمه إلى كتب، جمع مادة كل كتاب منها تحت حرف من هذه الحروف حسب ترتيبها السابق، وسمى كل كتاب باسم الحرف الذى يبدأ به فبدأ بكتاب العين ثم الحاء ثم كتاب الهاء وهكذا وتحت كل مدخل بدأ بالثنائى ثم الثلاثى الصحيح ثم الثلاثى المعتل ثم اللفيف ثم الرباعى والخماسى مع مقلوباتها[2].

وقد مثل الشدياق لهذه المدرسة بعد كتاب العين بمعجم «الجمهرة» لابن دريد (ت ٣٢١ هـ) ويحكم على هذه المدرسة بأن البحث فى معاجمها صعب جداً لأنك إذا أردت أن تبحث مثلاً عن لفظة «رقب» لم تدر هل هى الأصل فتبحث عنها فى الراء أو مقلوبه عن «قرب» فتبحث عنها فى القاف أو عن «برق»، وما بين هذه الحروف مسافة بعيدة ثم يقول بعد ذلك «وكل منها عسر المهلك ومنهل وعر المسلك كأن واضعها شرع للناس مورداً عذباً وجلاهم عنه، وارتاد لهم مرتعاً قريباً ومنعهم منه، قد أخر وقدم، وقصد أن يعرب فأعجم فرق الذهن بين الثنائى والمضاعف والمقلوب، وبعد الفكر باللفيف والمعتل والرباعى والخماسى فضاع المطلوب. وليس لذلك سبب إلا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب»[3].

---

(١) الجاسوس ص ١٣.
وانظر أيضاً كتاب العين ص ٦٥.

(٢) راجع كتاب العين ص ٤٥.

(٣) الجاسوس ص [illegible].

ثم ينتقل بعد ذلك إلى ترتيب المداخل حسب أوائلها وأواخرها ومثل لهذا الاتجاه بصحاح الجوهرى (ت ٣٩٣هـ) وهو رأس المدرسة ثم اللسان لابن منظور (ت ٧١١هـ) ثم القاموس المحيط للفيروزابادى (ت ٨٠٧هـ) فيرى أن هذا الترتيب «مسهل للمطلوب وخصوصاً جمع القوافى إلا أنه فاصل لتناسق معانيها وموار لأسرار وضعها ومبانيها... وفيه مع ذلك اجحاف باحرف الكلمة»[1].

ثم ينتهى إلى مدرسة الترتيب الألف بائى ومثّل لها بأساس البلاغة للزمخشرى (ت ٥٣٨هـ) والمصباح المنير للفيومى (ت ٧٧٠هـ) وهذه المدرسة عنده أفضل المدارس الثلاث ترتيباً يقول «الأولى عندى ترتيب الأساس للزمخشرى والمصباح للفيومى، أعنى مراعاة أوائل الألفاظ، دون أواخرها..فهذا النسق أعنى ترتيب الكلام من دون مراعاة أواخره هو الذى يظهر حكمه وضع الواضع»[2].

وحكمة الواضع عند الشدياق - كما رأينا من قبل - تتمثل فى حكاية الصوت، ولكنه يقدم سبباً آخر لتفضيله الترتيب الألفبائي؛ لأن معظم معاجم اللغات الأخرى تلتزم هذا الترتيب يقول «وعلى هذا النسق رتب اليونانيون والرومانيون والسريان والإفرنج كتب لغتهم فإن نسق حروف الهجاء عندهم الألف الباء»[3].

وهكذا يختار الشدياق الترتيب الألفبائى بعد دراسة لطرق ترتيب المعاجم العربية والأجنبية ومن ثم يلتزم فى عمله التطبيقى فى «سر الليال» بهذا الترتيب.

ثالثاً - ترتيب المشتقات :

ويتمثل فى وضع الكلمات والمشتقات تحت المدخل أيها يأتى أولاً

---

(١) الجاسوس ٢٦.

(٢) المصدر السابق ٢٦ - ٢٧.

(٣) المصدر السابق ص ٢٥.

وأيها يأتى ثانياً، وإذا كانت المعاجم العربية القديمة قد اختلفت فى ترتيب المداخل على النحو الذى عرض له الشدياق وعرضنا له، فإن الاختلاف بل الاضطراب أو تشتيت المشتقات - كما يقول الشدياق -[1] تحت المدخل الواحد، كان أشد وأعظم بحيث يصعب على الباحث أن يجد منهجاً واضحاً اتبعه علماء المعاجم القدماء فى سرد الكلمات والمشتقات داخل المادة الواحدة فقد، يبدأ المعجمى بعد المدخل يذكر الفعل أو الاسم أو الصفة، وقد يبدأ بالأفعال الرباعية قبل الثلاثية وقد يقدم المجاز على الحقيقة وقد يتكرر ذكر المشتق فى أكثر من موضع، وقد يختلط المتعدى باللازم، وقد يأتى الجمع قبل المفرد، وقد تذكر الكلمات المعربة والدخيلة فى مداخل مستقلة وأحياناً تذكر مع المداخل العربية الأصل.

ويبدو أن هذا الداء قديم يرجع إلى الطريقة والمنهج اللذين تم بهما جمع مادة المعجم فلم يسلم منه معجم، وهو ما لحظه الشدياق، كما لحظه كل من تصدى لدراسة المعاجم العربية[2] غير أن الشدياق كان أشدهم استقصاء لهذا الخلل يقول:

«إن من أعظم الخلل وأشهر الزلل فى كتب اللغة جميعها قديماً وحديثاً مطولها ومختصرها متونها وشروحها وتعليقاتها وحواشيها، خلط الأفعال الثلاثية بالأفعال الرباعية والخماسية والسداسية، وخلط مشتقاتها، فربما رأيت فيها الفعل الخماسى والسداسى قبل الثنائى والرباعى، أو رأيت أحد معانى الفعل فى أول المادة وباقى معانيه فى آخرها، ففى مادة «عرض» التى هى فى القاموس أكثر المواد اشتقاقاً وتشعباً ذكر الجوهرى المعارضة التى بمعنى المقابلة بعد المعارضة التى بمعنى المجانبة بثلاثة وثلاثين سطراً وصاحب القاموس أورد[3]، احتمل

---

(1) المصدر السابق ص ٢٧٥.

(2) انظر د. حسين نصار، المعجم العربى نشأته وتطوره ٢/ ٧٤٧ وما بعدها.

وانظر: Haywood, Op. Cit., P. 82.

(3) يقصد أورد فى مادة ح م ل.

الصنيعة أى تقليدها فى أول المادة ثم احتمل أى اشترى الحميل للشئ المحمول من بلد إلى بلد فى آخرها وبينها أكثر من ثلاثين سطراً، والشارح أورد فى تاج العروس اختلج بمعنى تحرك بعد اختلج بمعنى نكح بنحو ستة وخمسين سطراً»[1] وبناء على ذلك الاضطراب فى تنسيق الكلمات يقدم الشدياق نصحه لمستعملى المعاجم العربية يقول «ولهذا أنصح مطالعى كتب اللغة أن لا يقتصروا على فهم اللفظ فى موضع واحد بل لهم أن يطالعوا المادة من أولها إلى آخرها، لا جرم أن هذا التخليط والتشويس فى ذكر الألفاظ ليذهب بصبر المطالع ويحرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائراً وبائراً»[2].

ولأن المعجم ليس لحفظ اللغة بل لاستعمالها فإن الشدياق يفرق بين الجمع والترتيب من أجل وضع المعجم والجمع بلا هدف أو الترتيب يقول «إن من مستلزمات الجمع أى جمع كان، الترتيب والنظام ووضع كل شئ فى محله»[3] وانطلاقاً من هذا الفهم لفلسفة الترتيب يقترح الشدياق الالتزام بطريقة الصرفين فى ترتيب المشتقات وذلك على النحو التالى:

١ - وضع الفعل الثلاثى ومشتقاته فى أول المادة بعد المدخل.

٢ - وضع الفعل الرباعى ومشتقاته فى وسطها.

٣ - وضع الخماسى والسداسى ومشتقاتها فى آخرها.

ولا بأس - كما يقول - من استخدام الأرقام حيال المواد الغزيرة المشتقات فيوضع رقم «٣» مقابل الفعل الثلاثى ورقم «٤» قبالة الفعل الرباعى وهكذا[4].

---

(١) الجاسوس ص ١٠.

(٢) المصد السابق نفس الصفحة.

(٣) المصدر السابق ص ١١.

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

وعندما يقترح الشدياق وضع الفعل سواء كان ثلاثياً أو رباعياً أو أكثر من ذلك فى أول المادة يعطى أولوية الدلالات الحسية على الدلالات غير الحسية، أو المجردة، وهو بذلك يفسر معنى ما يقصده من اتخاذ ترتيب الصرفين الذى قد يفهم منه أن المصدر يأتى أولاً إذ هو أصل المشتقات عند البصريين فى حين يرى الكوفيون أن الفعل هو أصل المشتقات[1] وهذا الخلاف هو أحد الأسباب التى أدت إلى سوء الترتيب وتشتيت المشتقات داخل المادة، لذلك حرص على الشدياق على تفسير ما يقصده بتقدم الفعل، إذ الفعل عنده ليس أصلاً للمشتقات، وإنما يمثل الأصل الحسى أو المعنى المعجمى للمادة، ويظهر ذلك بوضوح عندما بدأ فى عرض نظريته فى أصل المعنى المعجمى يقول «إن الأمور المعنوية أو العقلية مأخوذة من الأشياء الحسية وذلك موجود فى جميع اللغات، لأن الحواس الظاهرة هى التى تبعث الحواس الباطنة على التفكير والتخيل... فالعقل مأخوذ من عقلت البعير والحكمة من حكمة اللجام والذكاء لتوقد الذهن من ذكاء النار»[2].

ولكن هل معنى تقدم الحسى على المعنوى وتقدم الفعل على الأسم هو الترتيب الذى يراه الشدياق، أنه كان يعتقد-كما أعتقد الكوفيون من قبل - أن الفعل أصل المشتقات ومن ثم حرص على وضعه فى صدر المادة ؟

الحقيقة أن الشدياق عندما أخذ فى تطبيق مبدأ ترتيب المشتقات داخل المادة فى معجمه «سر الليال» بدأ بالأصل الثنائى وفق نظريته فى أصل المعنى المعجمى فجعل المدخل لهذا الأصل رمزاً لهذا المعنى وهو ما يرجح أن الشدياق لم يكن يؤمن بأن المصدر أصل أو حتى الفعل وإنما كان يرى

---

(١) راجع الانبارى، الإنصاف فى مسائل الخلاف ١/ ١٢٩ - ١٣٧.

(٢) سر الليال ص ١١.

أن الجذر أو المدخل هو الذى يرمز إلى المعنى المعجمى ولذلك حرص على بيان ترتيب الجذور أو المداخل فأشار إلى أنه بدأ بالمضاعف ثم الأجوف الواوى ثم اليائى ثم بالمهموز[1] أما السبب الذى جعله يبدأ بالمضاعف فهو إيمانه بحكاية الصوت».

ومعنى هذا أن تصور الشدياق لترتيب المشتقات قائم على مبدأ أن الجذر هو المدخل الطبيعى الذى يرتب ترتيباً ألف بائياً على مستوى المعجم ثم ترتيب المشتقات داخل المادة من حيث البدء بالمعنى الحسى المتمثل فى الفعل ويؤكد ذلك كثرة استخدام الشدياق للجذر فى الإشارة إلى المشتقات التى كان يناقش فيها صاحب القاموس[2] ومعنى هذا أيضاً أن استخدام الشدياق يحل بذلك الخلاف الذى نشب بين علماء العربية القدماء حول أصل المشتقات وبناء على ذلك فإن المصدر عند الشدياق يأتى فى الترتيب بعد الأفعال، أى أن المصدر مشتق لأن صيغته هى إحدى الصيغ التى يتقلب عليها الجذر، وكذلك يتعين أن يكون الفعل الماضى مشتقاً ومتصرفاً وليس أصلاً للمشتقات وبذلك يكوُن الشدياق قد «رد كل فرع إلى أصله ونسق معانى المادة نسقاً يبين مأخذها وعلاقتها ومناسبتها»[3].

رابعاً - شرح المعنى المعجمى:

يستخدم الشدياق مصطلح «التعريف» ليدل به على شرح المعنى المعجمى، كما يستخدم مصطلح «الإبهام» لدلالة على غموض الشرح ولكن هذا المصطلح الأخير كثيراً ما يدل عنده على أمرين:

١ - الإبهام فى التعريف أى الشرح، ويقصد به غموض شرح المفردات

---

(١) المصدر السابق ص ٦ ٧

(٢) انظر على سبيل المثال، المصدر السابق، صفحات ١٣، ١٤، ١٥

(٣) المصدر السابق ص ١٣

سواء فى عبارة المعجمى نفسه أو نتيجة لاستخدامه لألفاظ تحتاج هى نفسها إلى شرح، فيما يطلق عليه الشدياق الشرح الدورى أو التسلسلى.

٢ - الخطأ فى ذكر المشتقات أو عدم ترتيبها أو ذكر بعضها دون بعض.

وحول هذين الأمرين يدور معظم نقد الشدياق حيث يقدم نماذج وأمثلة متعددة على هذا الإبهام، ذلك لأنه يرى - ويتفق معه فى ذلك علماء المعاجم - أن الشرح أو التعريف هو مهمة المعجم الأولى التى وُضع من أجلها ومن ثم لا بد أن يكون دقيقاً واضحاً لا لبس ولا غموض فيه أى كما يقول الشدياق «ينبغى أن يكون المعجم واضح التعاريف»[١] وإلا انتفت وظيفة المعجم الأولى، من حيث هو المصدر الذى يعتمد عليه فى معرفة الدلالات.

وبناء على هذا الفهم لوظيفة الشرح يتتبع الشدياق بالتفصيل مظاهر الغموض المختلفة التى وجدها فى المعاجم العربية القديمة، وهو بهذا التتبع يشير بطريق غير مباشر إلى ما ينبغى أن يكون عليه شرح المعجم لدلالات المفردات والكلمات، وعلى الرغم من أن علماء المعاجم حديثاً يرون أن شرح المعنى المعجمى من أشق المهام التى يقوم بها المعجمى وأكثرها دقة[٢]، إلا أننا نستطيع من خلال الملاحظات التى ذكرها الشدياق أن نتمثل الشرح الأمثل للمعنى كما تصوره الشدياق هو ما تتوافر فيه الشروط الآتية:

---

(٣) انظر على سبيل المثال، الجاسوس، النقد الثالث ص ١٨٨ - ٢١٣. والنقد الثالث عشر ص ٣٠٢.

وانظر ملخصاً وافياً لكل ما أخذه الشدياق على القاموس المحيط والمعاجم العربية من غموض الشرح وأنواعه فى سر الليال ص ١٣ - ٢١.

(١) مقدمة الجاسوس ص ٢ - ٣.

وانظر أيضاً: Zgusta, Op, Cit., P. 21, P, 252 - 254.

١ - احكام ضبط نطق الكلمة على مثال أو بالنص على حركاتها لأن عدم الضبط قد يؤدى إلى لبس الدلالة.

٢ - ذكر الشائع المشهور من المعانى دون المهجور.

٣ - ذكر المعانى الأصلية قبل المعانى المجازية.

٤ - عدم استخدام كلمات لم يسبق شرحها فى تعريف المعنى.

٥ - عدم استخدام التعريف الدورى أو التسلسلى مثل «باحة الدار ساحتها، وساحة الدار باحتها».

٦ - عدم تشتيت المعنى فيما يتصل بالثلاثى ومزيده.

٧ - الإلتزام بذكر معنى المفرد أولا ثم الجمع بصورة مطردة.

٨ - التمييز بين دلالة الفعل الذى يتعدى بنفسه والفعل الذى يتعدى بالحرف.

٩ - التميز بين الأفعال والصفات والأسماء.

١٠ - التقليل من ذكر الشواهد إلا مع الكلمات النادرة الإستعمال.

وقد استفاد المعجميون العرب من انتقادات الشدياق للمعاجم العربية القديمة وخاصة فيما يتصل بشرح المعنى المعجمى فحاول كثير منهم وضع معاجم عربية حديثة خالية من هذه العيوب ملتزمة بالشرح الأمثل الذى تصوره الشدياق[١].

---

(١) راجع مقدمة المعجم الوسيط ص ١٣ - ١٥
وانظر أيضاً: د حسين نصار. المعجم العربى نشأته وتطوره ص ٧٧ ٧٧٤

٣ - الشدياق وتنمية المادة المعجمية

لعل المعجمى، دون بقية علماء اللغة،هو القادر حقاً على معرفة طبيعة الثروة اللفظية فى إطار اللغة التى يعمل من خلالها، فالمعجم فى نهاية الأمر هو صورة لحضارة الأمة،تتطور مادته بتطور الحضارة التى تستخدم هذه المادة اللغوية ممثلة فى الثروة اللفظية، وهذا التأثير المتبادل بين تطور حياة أمة من الأمم والثروة اللفظية التى فى معاجمها، نراه واضحاً فى اللغات التى عاشت قروناً طويلة وتعاقبت عليها حضارات متعددة مثل اللغة العربية، فقد درجت هذه اللغة مع أسلافنا منذ قديم الزمان وسايرتهم فى حضارتهم اتسعت فيه ونمت لكل ما أرادوها عليه ولكن المادة المعجمية الموجودة فى المعاجم العربية القديمة لا تعكس هذا التطور فى الثروة اللفظية، إنما أراد لها المعجميون واللغويون القدماء أن تقف عند حدود زمانية ومكانية لا تتخطها فأصبح المعجم القديم لا يعكس هذه الحضارة التى تقلبت فيها العربية.

وفجأة وجدت العربية نفسها أمام حضارة أخرى ذات ألوان مختلفة لم تنبت فى أرضها أو بيئتها ،بحيث تخرج وعليها طابع هذه اللغة ووسمها، وقد انحدرت هذه الحضارة منذ مطلع العصر الحديث بأسمائها وألفاظها الاعجمية بحيث عجزت المادة العربية المعجمية، أو الثروة اللفظية عن التصدى لها بمفردات عربية، تعبر عن هذه العلوم والفنون الحديثة. ويصور ذلك أصدق تصوير ما كتبه إبراهيم اليازجى (ت ١٩٠٦م) عام ١٩٠٠م فى مجلة «الضياء» مطالباً بتنمية اللغة العربية يقول: «إذا نظرنا إلى حال الأمة فى هذا القرن وما انتشر فيها من التمدين الغربى، وجدنا أنها قد أفضت إلى حال انتقلت فيها عن أفقها دفعة واحدة، وهجمت على تمدن فجائى قد نبت فى غير أرضها. فوجدت بين أيديها من أنواع الملبس والمفرش والماعون وأدوات الترف والزينة ومصطلحات العلم والتجارة

والصناعة والسياسة وفنون الأحاديث والتصورات وغير ذلك، ما هو مباين لما عندها، وأصبح الكاتب فيها مضطراً إلى وضع مئات بل آلاف من الأسماء التى لا يجادلها رديفاً فى لسانه.. فإذا لم نبادر إلى سن طرق يمكن بها وضع ألفاظ لهذه المستحدثات أو سبك ألفاظها فى قالب عربى لا تتشوه به هيئة اللغة لم نلبث أن نرى الأقلام قد تقيدت عن الكتابة فى هذه الأمور البتة أو أصبح أكثر اللغة أعجمياً »[1].

ولذا كان الشعور السائد أمام هذا الفيض الأعجمى هو عجز اللغة عن الوفاء بمطالب العلوم والفنون الحديثة، وقد شاعت هذه المقالة شيوعاً جعل الشدياق يتصدى للدفاع عن العربية محاولات اثبات قدرتها على مسايرة الحياة والتطور، ولكن دفاع الشدياق كان يتجاوز أحياناً العلم وموضوعيته إلى نوع من العشق الذى لا يرى فى المعشوق غير الكمال المطلق[2] ولكنه رغم ذلك يشخص الداء فيرى أن القصور ليس فى اللغة وإنما فى أبنائها قدماء ومحدثين.

أما القدماء فلأنهم قد سارعوا إلى رد بعض الألفاظ العربية الأصل - فى رأيه - إلى اللغات الأجنبية دون تحقيق أو تمحيص[3] وأما المحدثون فلأنهم ينهالكون على اللغات الأجنبية يتحدثون بها ويتعاملون من خلالها حتى زاحمت اللسان العربى، فكادت تجلى عنه أهله وتحجب عنهم ظله[4].

وعلى الرغم من إيمان الشدياق بكمال اللغة العربية وأفضليتها على

---

(١) انظر مجلة الضياء، ابريل عام ٩م ص ٤٤٩ - ٤٥

(٢) انظر على سبيل المثال حديثه عن العربية وكمالها وأفضليتها على كل اللغات فى:

١ - سر الليال ص ٢ - ٣.

٢ - كنز الرغائب ١/ ٥ ٢

(٣) كنز الرغائب ١/ ١٩

(٤) الجاسوس ص ٣

اللغات الأخرى، فإنه كان يعرف أيضاً أن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها لم تنشأ دفعة واحدة وإنما تنمو وتتطور مثل سائر الظواهر الاجتماعية الأخرى يقول «إن اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لا يحدث شيء منها تاماً كاملاً من أول وهلة ولكن على التدريج»[١]. ومن هذا الإيمان بالنمو والتطور يقر الشدياق حق المتكلمين بالعربيه في تنمية الثروة اللفظية بوضع كلمات جديدة وضمها إلى المادة المعجمية وبهذا النمو تستطيع العربية أن تعبر عن حاجات وأشياء وأفكار لم تكن موجودة من قبل، هو ما صنعه علماء العصر العباسى شريطة أن يكون هذا الوضع على سنن العربية فى صوغ الألفاظ يقول: «لو أن العرب الأولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد وأسلاك التلغراف والغاز والبوسطة ونحو ذلك مما اخترعه الإفرنج لوضعوا له أسماء خاصة ناصة فهم على ذلك غير ملومين، وإنما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم ننتبه لوضع أسماء لها على النسق الذى ألفه العرب فى الاختصار والإيجاز، أفيظن أحد أن لفظة المشير والسفير والوالى والمتصرف والمدبر ومجلس الشورى لا ينبغى أن تعد من الألفاظ العربية لأنها لم تكون معروفة للدولة العباسية، فإذا برأ أحد تلك الدولة لعدم اتخاذها هذه الألفاظ إذ الحاجة لم تمس إليها لم يكن له أن يلوم دولة أخرى على اتخاذها مع وجود الحاجة فقس عليها غيرها»[٢].

وبرغم أن العربية قد عرفت الوالى والمتصرف فى العصر العباسى، إلا أن ملاحظة الشدياق تبقى لها أهميتها من حيث هى أقرار بأن اللغة ملك للمتكلمين بها ومن حقهم التصرف فيها وفق احتياجاتهم وهى فكرة تختلف عما استقر عليه الفكر اللغوى عند أصحاب المعاجم القدماء

---

(١) سر الليال ص ٢٥.

(٢) كنز الرغائب ١/ ٢٠٥.

الذين آمنوا بأن المعجم ما هو إلا خزانة لحفظ اللغة التى استعملها العرب الخلص فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام وكل ما زاد على ذلك فهو من كلام المولدين الذين لا يعتد بعربيتهم، لا يسمح لها بدخول حرم المعاجم اللغوية، إذا تسربت كلمة وصممت بأنها من غير كلام العرب أو مولده أو محدثه أو غير ذلك من مصطلحات، تحذر من استخدام هذه الكلمات أكثر من التنبيه على مجرد اختلافها عن العربية القديمة، ولذلك نرى الشدياق يلح على أهمية الاعتداد بكلام المولدين والاعتراف به من حيث هو جزء من الاستعمال كما انتهت إليه العربية فى عصورهم[1] ولذلك أيضاً كانت قضية تنمية المادة المعجمية من بين هموم الشدياق اللغوية التى حاول عن طريقها حل جزء من أزمة اللغة فى مواجهة الحضارة الحديثة ومن ثم كتب كثيراً عن الطرق والوسائل اللغوية التى يمكن بواسطتها القيام بهذه التنمية بل لقد شرع فى وضع ألفاظ جديدة من خلال كتاباته حتى تحل محل الألفاظ الأعجمية التى كان كثير الشكوى من تسربها إلى العربية.

ومن خلال كتابات الشدياق حول ذلك، نستطيع أن نرصد الطرق التى اعتمدها فى إمداد العربية بحاجتها من الألفاظ فيما يلى:

١ - التوليد: وذلك عن طريق تغير دلالات بعض الكلمات القديمة إلى دلالات أخرى مثل الهاتف للتليفون والمذياع للراديو والسيارة للاتومبيل والبرق للتلغراف وقد استغل الشدياق هذه الوسيلة فى وضع كثير من الكلمات الجديدة بثها فى مؤلفاته مثل« الواسطة فى معرفة أحوال مالطة » و« كشف المخبا عن فنون أوربا »كما سنرى من بعض الأمثلة التى سنذكرها فيما بعد.

٢ - الاشتقاق: وكان الشدياق يراه وسيلة أخرى من وسائل تنمية

---

(١) راجع الجاسوس ٥٢

المادة المعجمية فصيغ اسم الآلة واسم المكان وغيرها من الصيغ والأوزان العربية قادرة على امداد اللغة بكلمات جديدة من خلال أصول عربية وفى ذلك يقول:

«إن أكثر هذه الأسماء (يقصد الأعجمية) هو من قبيل اسم المكان أو الآلة، وصوغ اسم المكان أو الآلة فى العربية مطرد من كل الأفعال ثلاثى، فما الحاجة إلى أن نقول فبريقه أو كارخاة ولا نقول معمل أو مصنع أو نقول بيمارستان ولا نقول مستشفى أو نقول ديوان ولا نقول مأمور أو نقول اسطراب ولا نقول منظر»[1].

ومعنى هذا أن الشدياق يرى فى الاشتقاق وسيلة من وسائل تنمية مادة المعجم العربى ينبغى أن نستغل بدلاً من استعمال الألفاظ الأجنبية ولكن الاشتقاق كما نعلم تحكمه علاقة عضوية بالصيغ والأوزان حتى إننا لا نكاد نظفر بكلمات جديدة إلا فى حدود الصيغ المعروفة ولكن هذا الجمود الظاهرى يعوضه أحياناً دلالة الصيغة الواحدة على معان متعددة فمثلاً وزن «فعيل» قد يدل أصلاً على الصفة الثابتة مثل كريم وبخيل وشريف وخبير، ولكنه قد يدل أيضاً على الصوت مثل زئير وعويل ووزن «فعال» يدل على مصادر مثل قتال وسياق ولكنه أيضاً يدل على آلات وأدوات مثل إناء وحزام وشعار ودسار ورداء وغطاء، كما يدل أيضاً على جمع فعيل مثل كرام وطوال وهكذا. وكل هذا يعطى هذه الصيغ التى قد تبدو لنا ثابتة ومحددة نوعاً من التجدد والحيوية ينبغى أن تستغل فى وضع ألفاظ جديدة، يضاف إلى ذلك استغلال الصيغ الجديدة التى قد تظهر على ألسنة المتكلمين مثل الصيغة الناشئة من إضافة الألف والنون مع ياء النسب مثل روحانى وجسمانى وهى صيغة جديدة لم تضف بعد إلى صيغ العربية وكذلة صيغة المصدر الصناعى التى أمدت العربية

---

(١) كنز الرغائب / ٢٠٢.

بكثير من الألفاظ والكلمات وهى صيغة جديدة لم تعرفها العربية القديمة إلا نادراً.

وبذلك يكون الاشتقاق سواء بصيغة القديمة المعروفة ذات الدلالات المتعددة أو بصيغة الجديدة وسيلة متجددة لامتداد المعجم العربى بمادة جديدة.

٣ - النحت:

وهو وسيلة أخرى يحتفل بها الشدياق ويعول عليها كثيراً فى إمداد المعجم العربى بمادة لغوية جديدة من الكلمات والمصطلحات يقول: «وهناك وجه آخر فى العربية يصوغ ألفاظ تسد مسد الألفاظ الأعجمية التى اضطررنا إليها وهو باب النحت... وكيفما كان الأمر فإن النحت طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة وتتسع أساليبها ولها نظير فى اللغة اليونانية وسائر اللغات الأفرنجية، وهى التى كثرت مواد لغتهم وأحوجتنا إلى الأخذ منهم، فقولنا الجغرافيا والفلسفة والجومتريا والجولوجيا، كلها ألفاظ يونانية مركبة ولولا هذا التركيب لما كان للغة اليونانية فضل على غيرها بشئ، وهى أن فضلت لغات الأفرنج لا تفضل لغتنا لأن الألفاظ البسيطة عندنا أكثر من المركبة وهى أفضل ما لم يحوج الضرورة إلى التركيب أو النحت وحينئذ يعمد إليه»[١].

ونلاحظ أيضاً أن الشدياق لم يفرق بين التركيب والنحت واعتبرهما شيئاً واحداً فالنحت فى العربية هو جنس من الاختصار عرفته منذ العصر الجاهلى فى قولهم عبدرى وعبقس وعبشمى وغير ذلك من الألفاظ التى روها الرواه حيث ينحتون من كلمتين أو أكثر كلمة واحدة وهو بلا شك نتيجة من نتائج كثرة استعمال كلمتين أو أكثر معاً[٢]. أما التركيب فهو

---

(١) كنز الرغائب ١/ ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢) راجع السيوطى، المزهر ١/ ٤٨٢.

قائم على السوابق Perfixes واللواحق Suffixes وغالباً ما تبقى السوابق أو اللواحق دون نقصان وحتى إذا ركب من كلمتين كلمة واحدة، يبقى كل منها غالباً كما هى دون نقصان أيضاً مثل قولنا فى العربية حيوان «برمائى».

ومع ذلك فإن الأمثلة القليلة التى قدمها الشدياق للنحت تدل على أنه كان يرى أن هذه الوسيلة لا تصلح إلا فى لغة العلوم ولوضع المصطلحات العلمية فقط، وهو ما انتهى إليه مجمع اللغة العربية بعد دراسة النحت كوسيلة من وسائل النمو اللغوى حيث وضع شروطاً لا بد أن تتوافر فى الكلمات المنحوتة وهى:

١ - ألا يكون اللفظ المنحوت نابياً فى الجرس عن سليقة العربية.

٢ - أن يكون المنحوت على وزن عربى نطق به العرب على قدر الامكان.

٣ - أن تؤدى الكلمة المنحوتة حاجات اللغة من أفراد وتثنية ونسب وإعراب.

ولذلك اتخذ المجمع قراره بجواز النحت فى لغة العلوم عند الضرورة مع مراعاة طبيعة العربية فى ذلك[١].

٤ - التعريب:

لا يخفى الشدياق فى كتاباته ضيقه الشديد بالكلمات المعربة والدخيلة ونفوره منها، والمقارنة التى عقدها فى إحدى مقالاته[٢] بين اللغات الانجليزية والفرنسية والعربية تبين حقيقة فهمه لظاهرة الاقتراض اللغوى، كما أن سيطرة مبدأ أفضلية اللغة العربية أو أفضلية اللغة

---

(١) راجع مجموعة قرارات مجمع اللغة العربية فى مصر ٣/ ٦.

(٢) انظر كنز الرغائب ١/ ٤٠٢.

المقرضة، حال بينه وبين النظر الموضوعى لهذه الظاهرة، فاللغات تقترض من بعضها البعض نتيجة لاحتياجات فكرية وحضارية وليس لمجرد التشدق باللفظ الأجنبى، الاقتراض بهذا المعنى قانون عام عرفته كل اللغات قديماً وحديثاً، عرفته العربية فى العصر الجاهلى وفى العصر العباسى وفى العصر الحديث، كما عرفته اللغات الأخرى التى اتصلت بالعربية واقترضت منها آلاف الكلمات مثل الفارسية والتركية بل وبعض اللغات الأوربية الحديثة فيما يتصل بالحضارة الإسلامية وعلومها وبعض الفلسفات الإسلامية وغير ذلك.

فالعربية ليست أفضل من الإنجليزية أو الفرنسية إذا استعملت الانجليزية كلمة Understand أو استعملت الفرنسية كلمة Comprander للدلالة على الفعل «يفهم» فى العربية لأن هذه الألفاظ التى اصطلح عليها الإفرنج كما يرى الشدياق خالية المعنى[1] ومع ذلك فإن كثرة المعرب والدخيل لا شك نذير خطر لا بد من التصدى له خاصة، إذا استشرى فى غير ضرورة علمية أو تقنيه.

ويبدو أن الشدياق استشعر هذا الخطر على العربية لذلك نراه يهيب برفاعة الطهطاوى وزملائه من محررى «روضة المدارس» لكى يستخدموا النحت أفضل من التعريب يقول:

«إن اللغة العربية أحسن اللغات صيغاً وأساليب وأتمها وأكملها نسقاً وتأليفاً مع توسيع النحت عند اقتضاء الضرورة، كان لنا أن نرجو من الأساتذة الكرام الذين يحررون بروضة المدارس أن يتواطئوا من هذا الباب أى باب النحت على ألفاظ تغنينا عن الألفاظ الأعجمية التى أحوجتنا إلى استعمالها وذلك نحو الكومسيون والكونستيتوسيون والقرنقراس وما أشبه ذلك.. فالمرجو إذا من همه كتاب الروضة ولا سيما العالم

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

الشهير عزتلو رفاعه بك أن يريحونا من الألفاظ العجمية أراحهم الله وأغناهم من التعريب الذى هو أشد عذاباً على من عاناه »[1].

وهكذا نجد أن الشدياق كان يشعر شعوراً قوياً بحاجة المادة المعجمية فى اللغة العربية إلى النمو ولا سيما فى عصره الذى واجهت فيه العربية لأول مرة حضارة لم تنبت فى أرضها كما واكب قدوم الشدياق إلى مصر حركة واسعة فى الترجمة وخاصة فى ميادين العلوم كالطب والهندسة واشتغل هو بالترجمة فترجم العديد من المقالات عن الإنجليزية والفرنسية وكانت هذه المقالات تتصل بجوانب الحضارة الحديثة التى تتطلب مصطلحات وكلمات لم تعرفها العربية من قبل، فقد، امتلأت جريدة «الجوائب» بمقالات عن البخار واختراع الباخرة وإبرة المغناطيسية والبالونات والأقمار الصناعية والسياسة والاجتماع وكلها موضوعات لم تعرفها العربية ولذلك أعطى الشدياق لنفسه حرية وضع كثير من الألفاظ والتراكيب للدلالة على أشياء أو أفكار لم تعرفها الحضارة العربية.

وختاماً لهذا البحث نقدم طائفة من الكلمات التى وضعها الشدياق والتقطنها من كتابيه «الواسطة فى أحوال مالطة» وكشف المخبا عن فنون أوربا »وقد نشرها معاً فى مطبعة الجوائب عام ١٢٩٩هـ والكتابان يصوران رحلة الشدياق إلى أوربا واحتكاكه بمظاهر الحضارة الأوربية الحديثة.

أولا - الألفاظ :

المخدع	:	مكان حفظ المأكولات
اليدل	:	داء المفاصل
القاعدة	:	العاصمة
العواجل	:	السيارات والعربات

---

(١) كنز الرغائب ١/ ٢٥٠.

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً - المصادر والمراجع العربية

(أ) مؤلفات الشدياق :

١ - الجاسوس على القاموس،القسطنطينية،مطبعة الجوائب، ١٢٩٩هـ.

٢ - الساق على الساق فيما هو الفاريق،بيروت،دار مكتب الحياة،بدون تاريخ.

٣ - سر الليال فى القلب والإبدال، والإستانة، المطبعة العامرة السلطانية، ١٢٨٤هـ.

٤ - كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب، الإستانة، مطبعة الإستانة العليا، ١٢٨٨هـ.

٥ - الواسطة فى معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا، القسطنطينية، مطبعة الجوائب، الطبعة الثانية ١٢٨٨هـ.

(ب) كتب أخرى :

١ - **ابن جنى،أبو الفتح عثمان**،الخصائص،تحقيق محمد على النجار، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، الجزء الأول، ١٩٥٢، الثانى ١٩٥٥، الثالث ٩٥٦.

٢ - **ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا**، الصاحبى، تحقيق السيد صقر، القاهرة، مكتبة عيسى البابى الحلبى، ١٩٧٧.

٣ - **ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم**، لسان العرب، القاهرة، مطبعة بولاق الأميرية، الطبعة الأولى، ١٣٠٠هـ.

٤ - **أحمد مختار عمر، (دكتور)**، علم الدلالة، الكويت، مكتب دار العروبة للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.

٥ - **الإنبارى، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد**، الإنصاف فى مسائل الخلاف، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، المكتبة التجارية، الطبعة الثانية، ١٩٥٥م.

٦ - **الثعالبى، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل**، فقه اللغة وسر العربية، مصر، المطبعة الأدبية، الطبعة الأولى، ١٣١٧هـ.

٧ - **جورجى زيدان**، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة، دار الهلال، الجزء الرابع، بدون تاريخ.

٨ - حسن ظاظا (دكتور)،كلام العرب، الإسكندرية، مطبعة المصرى ١٩٧١.

٩ - حسين نصار (دكتور)، المعجم العربى نشأته وتطوره، القاهرة، مكتبة مصر، الطبعة الثانية ١٩٦٨.

١٠ - حلمى خليل (دكتور)، المولد فى العربية، بيروت دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.

١١ - حلمى خليل (دكتور)، الكلمة، دراسة لغوية معجمية، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

١٢ - خالد الكركى (دكتور)، الانجليز فى أدب أحمد فارس الشدياق، بحث منشور فى أعمال الملتقى الدولى حول الأدب المقارن عند العرب، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية،١٩٨٣.

١٣ - الخليل بن أحمد الفراهيدى، كتاب العين، تحقيق د. عبد الله درويش، بغداد، مطبعة العانى ١٩٦٧.

١٤ - السيوطى، جلال الدين عبد الرحمن. المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.

١٥ - فندريس، ج، اللغة ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م.

١٦ - كمال بشر (دكتور)، دراسات فى علم اللغة القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.

١٧ - محمد أحمد خلف الله (دكتور)، أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٥م.

١٨ - محمد خلف الله أحمد، معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١م.

١٩ - محمد خلف الله وشوقى أمين، مجموعة القرارات العلمية لمجمع اللغة العربية، القاهرة المطابع الأميرية، ١٩٦٣م.

٢٠ - محمود السعران (دكتور)، علم اللغة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢.

(ج) الدوريات:

مجلة الضياء، المجلد الثانى، ١٩٠٠م.

ثانياً - المراجع الأجنبية

1 - Ducrot, Oswald and Tzvetan Todorv.

Encyclopedic Dictionary of the Sciences of Language United Kingdom, 1981.

2 - Hartmann, R. and Stork, F.

Dictionary of Language and Linguistics, London 1972.

3 - Haywood, John.

Arabic Lexicography, Leiden, 1965.

4 - Leech, Geoffery,

Semantics, Pelican Book, London, 1976.

5 - Lyons, John, Semantics, Cambridge University Press. London, 1977.

6 - Robins, R. H.

A Short History of Linguistics, Longman, London, 1967.

7 - Zgusta, Ladislav.

Manual of Lexicography Monton, The Hage Paris, 1971.

الفنية
للطباعة والنشر
٤٨ ش جودة - رأس التين - الإسكندرية
تليفون : ٤٨٠٣٢٥٠ - ٤٨٣٥٩٣٦